أجاثا كريستي

مغامرات تومي وتوبِنْس

دار النجمة للنشر والتوزيع

مغامرات تومي وتوبنس

بسم الله الرحمن الرحيم

أجاثا كريستي

مغامرات تومي وتوبنس

دار النجمة للنشر والتوزيع

جميع حقوق هذه الطبعة محفوظة للناشر:
دار النجمة للنشر والتوزيع

يُمنَع تصوير أو إعادة إنتاج هذا الكتاب
ورقياً أو إلكترونياً إلا بإذن خطي مسبَق من الناشر

للاستفسار والطلبات التجارية
AgathaBooks@sardira.com

-١-

الحورية

انتقلت السيدة بيريسفورد إلى مكان آخر من الأريكة ونظرت بأسى عبر النافذة إلى العمارة الصغيرة على الرصيف المقابل ثم تنهّدت وقالت: أتمنى أن يقع شيء.

ونظر زوجها إليها بلوم ثم قال: حذارِ يا توبنس، فإن الشوق إلى الأحداث المثيرة المبتذلة تثير قلقي.

وتنهدت توبنس للمرة الثانية ثم أطبقت عينيها قائلة: وهكذا تزوّج تومي وتوبنس وعاشا حياة سعيدة، وبعد ستّ سنوات كانا لا يزالان يرفلان في حُلل السعادة والهناء. من الغريب أن الواقع يختلف تماماً عن الخيال.

- هذا استنتاج خطير يا حبيبتي ولكنه غير جديد، فقد جهر به قبلك شعراء مشهورون وفلاسفة معروفون.

- منذ ستّ سنوات كنت أظن أنني أستطيع بحفنة من النقود أن أشتري كل ما أشتهي، وعندما تزوجتك بدت لي الحياة نغماً جميلاً كما يقول أولئك الشعراء الذين يخيّل إليّ أنك تعرفهم جيداً.

- وما السبب في هذا الملل يا حبيبتي؟

- «الملل» ليست الكلمة الصحيحة. لقد تعودت على سعادتي فحسب، تماماً كما ينسى المرء لذة الحياة حتى ذلك اليوم الذي يعاني فيه من إنفلونزا حادة.

- ما الأمر يا توبنس؟ لِمَ هذا المزاج الحزين؟

- لا أدري، كل ما أتمناه هو أن يقع شيء مثير. ألا تحب أن تطارد الجواسيس الألمان من جديد؟ هل نسيت ذلك الوقت العاصف الحافل بالأخطار الذي اجتزناه معاً؟ إنني أعرف أنك ما زلت تعمل في قلم المخابرات، ولكن عملك لا يزيد عن الجلوس أمام المكتب.

- هل تتمنّين أن أنطلق إلى روسيا متنكراً في زي مهرّب أو مغامر من المغامرين؟

- لن أجني من ذلك أية فائدة لأنهم لن يسمحوا لي بمرافقتك في حين أنني في حاجة ماسّة إلى عمل مثير. أريد أن أفعل شيئاً.

- ألم تفكري في أعمال البيت قطّ؟

- إنها لا تستغرق من ربة البيت الممتازة أكثر من عشرين دقيقة كل صباح بعد الإفطار. هل يوجد ما تشكو منه في هذا الصدد؟

- إنك تديرين شؤون البيت على أكمل وجه يا توبنس.

- أحبّ العرفان بالجميل يا حبيبي.

ثم استطردت تقول بعد لحظة صمت: إن لديك عملك في المكتب طبعاً، ولكن ألا تشعر يا تومي على الرغم من ذلك برغبة خفية في أن تقع حادثة غير عادية؟

- لا أشعر بذلك. لا بأس أن يتمنى المرء وقوع شيء، ولكن

من الجائز إذا ما وقع هذا الشيء أن...

فتنهدت توبنس قائلة: يا لابتذال الرجال! هل فقدت حاسّة الخيال؟

- أي كتاب تقرئين اليوم يا توبنس؟

- ماذا يكون شعورك إذا ما دق الباب بعنف وفتحت فوجدت أمامك رجلاً ميتاً يتقدم وهو يترنح؟

- إذا كان ميتاً فلن يمكنه أن يتقدم وهو يترنح أو أن يفعل أي شيء من هذا القبيل.

- إنك تتظاهر بأنك لا تفهمني. إنهم يترنحون دائماً قبل الموت ثم يقعون عند قدميك وهم ينطقون بكلمات مريبة كعبارة «الفهد الماكر» مثلاً.

- في مثل هذه الحالة أنصح دائماً بقراءة شوبنهور أو كَنت.

- ما أجمل أن تقع لنا مغامرة من هذا النوع يا تومي، فأنت تسمن وتزداد كسلاً يوماً بعد يوم.

- ليس هذا صحيحاً. أما أنت فتمارسين التمارين الرياضية للاحتفاظ برشاقتك.

- هكذا يتصرف الجميع، ولكنني عندما قلت إنك تسمن كنت أتكلّم مجازاً، وكنت أعني أنك تزداد نجاحاً وتتفجر صحّة ورفاهية.

- أنا لا أفهم حقاً ماذا حدث لك يا توبنس.

- إنه حبّ المغامرة. يجب أن أعترف أن هذه الرغبة تجيش في صدري أحياناً.

- ما الأمر يا توبنس؟

- منذ وقت طويل وأنا أغلي. إنك تعرف أنه من الخطر أن يملك المرء كل ما يريد وأن يكون تحت تصرفه من المال أكثر من حاجته، ولكنني أجد القبعات دائماً.

- ولكنك اشتريت أربعين قبعة على الأقل، وكلّها تتشابه.

- الأمر كذلك مع القبعات دائماً، فلا تختلف الواحدة عن الأخرى إلا في نقاط خفيفة، وقد رأيت صباح اليوم قبعة جميلة بمحلّ فيوليت.

- إذا لم يكُن لديك ما تفعلينه غير شراء القبعات فلا حاجة بك إلى...

- تماماً، ليس لديّ ما أفعل غير ذلك، ولكنني أتمنى أن أهتمّ بموضوعات أكثر جدّية. آه يا تومي، أتمنى جداً أن يقع شيء مثير، ولديّ إحساس بأن هذا سيكون مفيداً لنا نحن الاثنين. ليتنا نستطيع فقط أن نلتقي بحورية....

- عجباً! من الغريب أن تقولي ذلك.

ثم فتح دُرجاً بمكتبه وأخرج منه صورة أعطاها لها فقالت: آه، هل حمّضتها؟ أهذه هي الصورة التي التقطناها هنا؟ أهي الصورة التي التقطتها أنت أم التي التقطتها أنا؟

- أنا الذي التقطها لأن صورتك لم تظهر لأنك عرّضتها للضوء كما هي عادتك دائماً.

- لا ريب أنه يسرّك أن تجد شيئاً تتفوق عليّ فيه.

- هذه ملاحظة خطيرة، ولكنني سأنساها في الوقت الحاضر.

لقد أردت فقط أن أُريك هذا.

ثم أشار إلى نقطة بيضاء بإحدى زوايا الصورة فقالت: أهذا عيب في الفِلم؟

- لا يا توبنس، هذه حورية.

- لا تكُن سخيفاً.

- تحقّقي من ذلك بنفسك.

ثم ناولها عدسة مكبّرة فرأت المرأة الشابة النقطة وقد كبرت وبدت كمخلوقة صغيرة لها أجنحة، فصاحت قائلة: إن لها جناحين. هذا غريب، حورية حقيقية! هل يجب أن نخبر كونان دويل بذلك؟ آه يا تومي! هل تظن أنها ستلبّي أمانينا؟

وفي تلك اللحظة فُتح الباب ودخل فتى في نحو الخامسة عشرة من عمره كان يبدو أنه متردّد بين القيام بدور رئيس الخدم ودور الوصيف فقال بوقار شديد: هل سيدتي موجودة في البيت الآن؟ إن جرس الباب قد دق الآن.

فأجابت توبنس بأنها موجودة فانصرف الفتى، ثم تنهدت قائلة: كنت أتمنى أن لا يذهب ألبرت إلى دار العرض كثيراً؛ فهو يقلّد الآن رؤساء خدم القصور الكبيرة، وأحمد الله على أنني أقنعته بأن لا يطلب من الزوّار بطاقاتهم لإحضارها إليّ على طبق.

وفُتح الباب من جديد وقال ألبرت: سيد كارتر.

فتمتم تومي بدهشة قائلاً: الرئيس!

فهبّت توبنس واقفة وهي تصيح مسرورة، واستقبلت رجلاً طويل القامة أبيض الشعر تختلف نظرته الحادة عن ابتسامته التي

تدل على الإعياء ثم قالت: يسرّني أن أراك يا سيد كارتر.

- شكراً لك يا سيدة تومي. أخبريني، كيف تجدين الحياة الآن؟

فأجابت وهي تغمز بعينها: مريحة جداً، ولكنها رتيبة.

- حسناً، يسرّني أن أجدكما في حالة ذهنية مُرضية.

- إنك تجعلني أغلي من القلق.

وفي تلك اللحظة عاد ألبرت وهو يحمل صحفة الشاي كما يفعل رئيس الخدم المهذّب، وعندما فرغ من تقديمه دون أن يقع ما يسيء وأغلق الباب خلفه عادت توبنس تقول: إن برأسك شيئاً، أليس كذلك؟ هل ستبعث بنا في مهمة إلى أماكن موحشة؟

- ليس تماماً.

- ولكنّ لديك شيئاً لنا على كل حال.

- أجل، فأنتما لستما من النوع الذي يرتدّ أمام الخطر.

وومضت عينا توبنس ببريق الاهتمام ثم قال كارتر: يوجد عمل معيّن في قلم المخابرات، وقد خطر لي أنكما ربما... ربما وددتما أن تعرفاه.

- أرجو أن تتكلّم.

فقال كارتر وهو يأخذ الصحيفة من فوق المائدة: أرى أن لديكما جريدة الديلي ليدر.

ثم فتح الجريدة على صفحة الإعلانات وأشار إلى نبأ صغير قائلاً: اقرآ هذا.

فنظر تومي وتوبنس إلى الصحيفة فوجدا فيها إعلاناً نصّه: «مكتب تيودور بلانت الدولي، أبحاث خاصة، مخبرون أكفاء، كتمان تام، استشارات مجانية. ١١٨شارع هاليهام».

رفع تومي عينيه إلى رئيسه مستفهماً فهز الأخير رأسه وقال: هذا المكتب ساءت أحواله في المدة الأخيرة، وقد اشتراه أحد أصدقائي بثمن بخس وفكّرنا في إعادة تجهيزه وتجرِبته لمدة ستة شهور، ولكن نحتاج طبعاً إلى مدير لإدارته.

فسأله تومي قائلاً: ولِمَ لا تلجأ إلى السيد بلانت؟

- لأنني أعرف أنه كان له نشاط معادٍ، حيث رأت إدارة اسكتلنديارد أن تستضيفه على حساب حكومة جلالة الملك. تصوّر أنه رفض أن يذكر لنا أشياء كثيرة تهمّنا!

فقال تومي: نعم، أظن أنني فهمت.

- وأقترح أن تحصل على إجازة لمدة ستة شهور بدعوى الصحّة، وبالطبع إذا أردت أن تتكفل بمكتب خاص للأبحاث والتحرّيات تحت اسم تيودور بلانت فإن هذا لا يهمّ.

ولم يُبدِ تومي أية دهشة ثم قال: هل لديك تعليمات خاصة يا سيدي؟

- أظن أن السيد بلانت كانت له صلات عمل بالخارج، ويمكنك أن تترقب وصول خطابات زرقاء عليها طابع بريد روسيّ، تلك الخطابات تأتي من تاجر لحوم يهمّه أن يعثر على زوجته التي لجأت إلى إنكلترا منذ سنوات كثيرة. إذا نزعت هذا الطابع فستجد الرقم ١٦ مكتوباً تحته، وعليك أن تأخذ صورة من تلك الخطابات وأن ترسل إليّ الأصل، وإذا ما تقدم أحد إلى المكتب وأشار إلى

الرقم ١٦ فأخطرني على الفور.

- مفهوم يا سيدي. هل يوجد شيء آخر فيما عدا هذه التوصيات؟

فأخذ السيد كارتر قفازه وتأهّب للخروج قائلاً: يمكنك أن تدير المكتب كما يحلو لك.

ولمعت عيناه ببريق خفيف ثم استطرد قائلاً: وقد خطر لي أن السيدة تومي ربما راق لها أن تقوم بعمل المخبر السرّي.

* * *

-٢-

كوب شاي

بعد بضعة أيام تسلّم السيد والسيدة بيريسفورد مكتب بلانت الدولي، وهو يقع في الطابق الثاني من بيت قديم بحيّ بلومسبوري. وفي غرفة الاستقبال استبدل ألبرت دوره كرئيس خدم مهذّب إلى ساعٍ متعاظم أصابعه ملوّثة بالحبر دائماً وشعره أشعث ويلوك بين فكّيه قطعة من الحلوى بصفة مستمرّة، وكان يجلس أمام بابين على أحدهما لافتة مكتوب عليها «الموظفون» وعلى الآخر لافتة أخرى تحمل كلمة «خاص».

والغرفة المخصصة للمدير غرفة فسيحة بها مكتب كبير وبضعة رفوف فوقها ملفات فارغة ومقاعد مريحة من الجلد، وكان السيد بلانت المزعوم يجلس أمام المكتب وهو يحاول أن يوحي بأنه يدير مكتبه منذ وقت طويل وبجواره هاتف، وقد اتفق هو وتوبنس على ضغط الجرس بطُرق معيّنة، كما كانت لدى ألبرت تعليمات خاصة.

وكانت الغرفة المخصصة للموظفين تشغلها توبنس، وبها آلة كاتبة وبعض المعدّات الإضافية ولكنها أقل شأناً من تلك التي بمكتب الرئيس، إلا أنه يزيد عليها موقد غاز لعمل الشاي.

وخلاصة القول أنه لم يكُن ينقص المكتب أي شيء فيما عدا العملاء. وفي أول يوم جلست توبنس وهي تشتعل حماسة وفتحت قلبها لزوجها وحدّثته عن الآمال الكبار التي تجيش به فقالت: سيكون أمراً عظيماً. سنطارد القتَلة ونكتشف جواهر الأسرة الثمينة التي اختفت بطريقة غامضة، ونعثر على الأشخاص الغائبين، ونفاجئ اللصوص متلبّسين.

وعندئذ رأى تومي أن من واجبه أن يعيد زوجته إلى عالَم الواقع فقال: هدّئي من روعك يا عزيزتي وحاولي أن تنسَي الروايات الرخيصة التي اعتدت على قراءتها. إن عملائنا، هذا إذا جاءنا عملاء، سيكونون عبارة عن أزواج يريدون مراقبة زوجاتهم فحسب، أو العكس، وهذا هو عمل المخبر السرّي الحقيقي.

- أُفّ لك. إنني أرفض الاشتراك في قضايا الطلاق، وعلينا أن نرفع مستوى مهنتنا الجديدة.

- أجل.

* * *

في أصيل أحد الأيام بعد ذلك بأسبوع راح تومي وتوبنس يفحصان مذكراتهما بحزن، ثم تنهّد تومي وقال: ثلاث غبيّات هجرهن أزواجهن في أثناء عطلة نهاية الأسبوع. هل جاء أحد وأنا بالخارج؟

- رجل كهل ومعه زوجته، وهي امرأة طائشة. إنني أقرأ منذ سنوات عن كثرة الطلاق، ولكنني لم أتحقق من صحّة ذلك إلا في الأسبوع الأخير، وقد تعبت من ترديد عبارة «إننا لا نهتمّ بقضايا الطلاق».

- يجب أن لا نقلق من هذه الناحية بعد اليوم لأنني حدّدت ذلك في الإعلانات المبوّبة.

- ومع ذلك فإننا نقوم بدعاية كبيرة ومغرية، ولكنني لن أستسلم، وإذا لزم الأمر فسأرتكب أنا نفسي جريمة لتقومي أنت بالتحقيق فيها.

- وما الفائدة التي تجنيها من ذلك؟ فكّر في الشعور الذي سأحسّ به عندما أراني مضطرة إلى توديعك على باب السجن.

- يجب أن نجد حلاً.

- إن الموهبة لا تنقصنا، ولكن يجب أن تواتينا الفرصة لإظهارها.

- طالما أعجبني تفاؤلك يا توبنس. يبدو أنك لا تشكّين في موهبتك كمخبرة سرّية.

- ولماذا أشكّ؟

- لأنك لا تملكين أية خبرة في هذا المضمار.

- ولكنني قرأت كل الروايات البوليسية التي ظهرت منذ عشر سنوات.

- وأنا كذلك، وأشعر شعوراً مبهماً بأن هذا لن يفيدنا كثيراً.

- أنت متشائم حقاً يا تومي. يجب أن تثق في نفسك، وهذا هو المهم.

- أعترف أن هذه نقطة ضعف ليست فيك.

وقالت توبنس بتفكير: بالطبع هذا أسهل في القصص البوليسية لأنهم يعملون بالمقلوب، فهم يعرفون الحلّ منذ البداية ومن السهل عليهم تعقّب الآثار، وإنني أتساءل...

وفكرت لحظة وهي مقطبة الجبين ثم قالت: لقد خطرت ببالي فكرة لم تتضح كل الوضوح، ولكنها في طريقها إلى ذلك.

ثم نهضت بعزم قائلة: أظن أنني ذاهبة لأشتري القبعة التي كلّمتك عنها.

فتأوّه تومي ثم قال: يا إلهي! قبعة أخرى؟

- ولكن هذه القبعة جميلة جداً.

وخرجت بوقار كبير.

* * *

في خلال الأيام التالية ألقى تومي أسئلة حول الفكرة التي طرأت ولكن كل أسئلته ذهبت عبثاً؛ فقد كانت في كل مرة تقول له أن ينتظر. وفي ذات صباح طُرق الباب الخارجي، وكان ألبرت جالساً يمتصّ قطعة من الحلوى، فهبّ وهو دهِش وصاح بالطارق أن يدخل وقد بلغ من فرحته أن ابتلع قطعة الحلوى لأنه أحسّ بأن قضية هامة في الطريق.

وقف بعتبة الباب شاب وجيه أنيق الملبس بدا عليه التردّد، وكان يبدو أنه من علية القوم، وكان في نحو الرابعة والعشرين من عمره، وكان شعره ممشطاً إلى الخلف بعناية كبيرة. نظر ألبرت إلى الوافد الجديد كما لو كان ينظر إلى معجزة وقعت أمامه، ثم ضغط زراً مثبتاً تحت مكتبه، وعلى الفور ارتفع دويّ الآلة الكاتبة في الغرفة المجاورة وهي غرفة الموظفين، وكان لهذا الدويّ تأثيره، فقد ازداد ارتباك الشاب وقال: هل هذا هو مكتب بلانت الدولي للأبحاث؟

- هذا هو شعارنا يا سيدي.

ثم أردف يقول كما لو كان يرى استحالة ذلك: هل تريد أن تتحدث إلى السيد بلانت نفسه يا سيدي؟

- نعم، إذا أمكن ذلك.

- أظن أنك لست على موعد مسبق.

- أجل.

- إننا نوصي عملاءنا دائماً بأن يتصلوا بنا هاتفياً أولاً يا سيدي لأن السيد بلانت مشغول جداً. أرجو أن تنتظر قليلاً؛ فهو يتحدث مع اسكتلنديارد.

وبدا أن هذا القول أحدث التأثير المطلوب على الشاب، ثم عاد ألبرت يقول: لقد اختفت سندات هامة من مكتب أحد الوزراء، واسكتلنديارد تريد أن تعهد بالقضية إلى السيد بلانت بالذات.

- لا ريب أنه بارع جداً.

- إن الرئيس بطل لا مثيل له.

وجلس الشاب في مقعد مريح وهو لا يدري أنه يتعرض لفحص دقيق من خلال ثقوب مدبّرة بمهارة في الجدار من جانب تومي وتوبنس، ولم يلبث أن رنّ جرس مكتب ألبرت فقال هذا الأخير: لقد فرغ الرئيس من حديثه الآن. سأرى إن كان يستطيع أن يستقبلك أم لا.

واختفى خلف الباب المكتوب عليه كلمة «خاص» ثم عاد بعد لحظات وقال: تفضّل يا سيدي.

دخل الشاب غرفة مجاورة بها شاب وسيم حادّ العينين استقبله قائلاً: تفضّل. هل تريد استشارتي؟ أنا السيد بلانت.

- أحقاً؟ ولكن يبدو لي أنك صغير السنّ جداً.

فأجاب تومي وهو يأتي بحركة غامضة من يده: إن عهد الشيوخ قد انقضى، فمن الذي تسبّب في الحرب؟ إنهم الشيوخ. ومن السبب في البطالة الحالية؟ إنهم الشيوخ. ومَن خلف كل حركة فاسدة تقع وراء ظهورنا؟ إنهم الشيوخ.

- لا ريب أنك على حق. إنني أعرف شاعراً، هكذا يقول عن نفسه على الأقل، وهو يتكلّم مثلك تماماً.

- دعني أصارحك بشيء يا سيدي. إن كل المخبرين الذين يعملون معي لهم خبرة كبيرة، ومع ذلك فلم يتجاوز أيّ منهم الخامسة والعشرين من عمره.

ولم يكُن قوله هذا كذباً، فلم يكُن معه غير توبنس وألبرت، ثم عاد السيد بلانت المزعوم يقول: والآن إلى العمل.

فقال الزائر فجأة: أريد أن تعثر لي عن شخص اختفى.

- اتفقنا. اذكر لي كل التفصيلات التي يمكنك أن تقدّمها إليّ.

- حسناً، ولكن الأمر جدّ عسير، أعني أنها مسألة شائكة ومن الجائز أن لا يروقها ذلك. إنها مسألة حساسة جداً.

ونظر الشاب إلى تومي بارتباك فبدأ المدير المزعوم يفقد أعصابه؛ فقد حانت ساعة الغداء ورأى أن الحصول على معلومات من هذا العميل المتردّد سيقتضي وقتاً طويلاً، فسأله بصوت جافّ: هل اختفت طواعية أم إنك تشتبه في أن أحداً قد اختطفها؟

- لا أدري، وكي أكون صريحاً معك فإنني أقول إنني لا

أعرف شيئاً على الإطلاق.

فأخذ تومي دفتراً ثم قال: اذكر لي اسمك قبل أيّ شيء آخر. إن موظف الاستقبال اعتاد على عدم إلقاء أي سؤال، وبهذه الطريقة تبقى الاستشارات طيّ الكتمان تماماً.

- هذه فكرة رائعة. اسمي... اسمي سميث.

- اسمك الحقيقي من فضلك.

فأُخذ الشاب على غرة فأجاب قائلاً: سان فنسانت، لورنس سان فنسانت.

- من الغريب أن نلاحظ أن أشخاصاً قلائل يُدعون سميث، وأنا شخصياً لا أعرف أحداً بهذا الاسم، ومع ذلك فإن تسعة أشخاص من عشرة يلجؤون إليه. إنني أكتب الآن دراسة عن هذا الموضوع.

وفي تلك اللحظة رنّ جرس خافت على مكتبه، وكان هذا يعني أن توبنس تريد أن تحلّ محلّه، وكان تومي جائعاً وبدأ يشعر بكراهية شديدة نحو السيد سان فنسانت فسرّه أن يتخلّى لها عن مكانه، ثم تناول سماعة الهاتف وهو يعتذر، ولم يلبث أن ارتسمت على ملامحه الدهشة والاستياء ثم الانفعال الشديد وصاح قائلاً: ماذا؟ رئيس الوزراء بنفسه؟! طبعاً، ما دام الأمر كذلك فسآتي حالاً.

ثم أعاد السماعة إلى مكانها والتفت إلى زائره قائلاً: أعتذر إليك يا صديقي العزيز، فقد استُدعيت الآن على عجل. إذا أردت أن تعهد بمشكلتك إلى سكرتيرتي الخاصة فسوف تكون هي مكاني.

واتجه إلى الباب المتاخم ثم صاح قائلاً: آنسة روبنسون.

فأقبلت توبنس وهي تقوم بدور السكرتيرة القديرة، وقام تومي بالتعريفات الضرورية ثم انصرف. قالت توبنس وهي وتفحص مذكّرات تومي: شخص يهمّك أمره اختفى. أهي شابة؟

- نعم، وجميلة جداً.

فبدت الخطورة على وجه توبنس ثم قالت: يا إلهي! أرجو...

- لعلك لا تريدين أن تقولي إن شيئاً قد حدث لها.

فأجابت قائلة بصوت لا يشجّع كان من أثره أن انهار الفتى كل الانهيار: نرجو ذلك.

- اسمعي يا آنسة روبنسون، لا بدّ أن تقومي بالمحاولة ولا تهتمّي بالنفقات، فإنني لا أستطيع أن أحتمل أن يصيبها أقل سوء. يبدو لي أنك ظريفة جداً، ولهذا لا يضايقني أبداً أن أقول لك إنني أعشق الأرض التي تطؤها قدماها. إنها فتاة رائعة، رائعة جداً.

- ما اسمها؟ وما الذي تعرفه عنها؟

- اسمها جانيت، ولا أعرف لقبها، وهي تعمل في محلّ لبيع القبعات يُعرف باسم محلّ فيوليت بشارع بروك، ولكنها شريفة جداً وقد ردّت عروضي كلّها. وبالاستفسارات علمت أنها لم تذهب إلى المحلّ في ذلك اليوم ولم ترسل كلمة اعتذار، وكانت صاحبة المحلّ العجوز غاضبة، فسألت عن عنوانها فأخبرتني صاحبة البيت أنها لم تعُد في الليلة الماضية ولا يعرف أحد أين ذهبت، فتملّكني الخوف وفكرت أن ألجأ إلى الشرطة، ولكنني تحققت أن جانيت لن تغفر لي مثل هذا العمل أبداً إذا كانت قد قرّرت أن

تقضي يوماً أو يومين في مكان ما. ولم ألبث أن تذكرت أنها لفتت نظري إلى إعلانكم في الجريدة وقالت إن إحدى عميلات السيدة فيوليت تقدّركم جداً وتشهد بكفاءتكم وكتمانكم، ولهذا السبب لجأت إليكم مباشرة.

- وما هو عنوانها؟

وذكر لها العنوان فقالت: أظن أن هذا يكفي يا سيد سان فنسانت، ولكن هل أفهم من هذا أنك خطبت الفتاة؟

واصطبغ وجه الشاب وقال: لا، ليس تماماً. إنني لم أطرق هذا الموضوع قطّ، ولكنني أستطيع أن أؤكد لك أنني سأفعل بمجرّد أن أراها، هذا إذا رأيتها.

أقصت توبنس دفتر مذكّراتها وقالت: هل تريد أن تلجأ إلى خدمتنا الخاصة خلال أربع وعشرين ساعة؟

- وما هي؟

- النفقات مزدوجة ولكننا نعهد بالقضية إلى كل موظفينا الاحتياطيين، وإذا كانت تلك الفتاة على قيد الحياة يا سيد سان فنسانت فإنني أستطيع أن أقول لك أين هي غداً في نفس الساعة.

- هذا أمر مدهش.

- إننا لا نستخدم إلا ذوي الخبرة في هذا الأمر.

ثم أردفت توبنس بلهجة عملية قائلة: ونحن نضمن نتيجة أبحاثنا.

- مدهش! لا ريب أن لديكم موظفين ممتازين.

- بالطبع. بالمناسبة، أنت لم تذكر لي أوصاف الفتاة.

- إن لها شعراً رائعاً بلون الذهب، أشبه بلون الشمس عند الغروب. نعم، هو كذلك، لون الشمس عند الغروب.

فكتبت توبنس ببرود: شعر أشقر. وقامتها؟

- إنها معتدلة القامة، ولها عينان غريبتان لونهما أزرق داكن على ما أعتقد. وهي قوية العزيمة لا تخشى أن تردع رجلاً بعنف إذا لم يكُن لديها بدّ من ذلك.

وأخذت توبنس بضع معلومات أخرى ثم أطبقت دفترها ونهضت قائلة: إذا أتيت في الساعة الثانية غداً فإنني أظن أنه ستكون لديّ أنباء لك. طاب يومك يا سيد سان فنسانت.

وعندما عاد تومي وجد توبنس منهمكة في تقليب تقويم النبلاء ثم قالت: إن لديّ كل التفصيلات. إن لورنس سان فنسانت هو ابن عم الكونت دي شيرتون ووارثه الوحيد، وإذا نجحنا في هذه القضية فسيكون ذلك خير دعاية لنا في الأوساط الراقية.

قرأ تومي أوصاف الفتاة المختفية ثم قال: ماذا تظنين قد حدث لها يا توبنس؟

- من رأيي أن قلبها هو الذي أملى عليها الهرب لأن الحبّ الذي تكنّه لهذا الشاب قد كدّر هدوءها.

مطّ تومي شفتيه بازدراء ثم قال: أعرف أن هذا يحدث في الروايات، ولكنني لم ألتقِ بفتاة تقدِم على مثل هذا التصرف.

- لعلك على حق يا تومي، ولكنني أستطيع أن أؤكد أن سان فنسانت سوف يقبل هذا التفسير بسهولة لأن ذهنه محشوّ بالأفكار الخيالية في الوقت الحالي. على فكرة، لقد ضمنت له نتيجة إيجابية خلال أربع وعشرين ساعة بفضل خدمتنا الخاصة.

- توبنس، يا لك من غبية! ما الذي دفعك إلى مثل هذا التصرف؟

- مجرّد دافع، فقد ظننت أن لهذا القول وقعاً أفضل، ولكن لا تقلق، دعني أعمل. إن توبنس تعرف كل شيء خيراً من أيّ شخص آخر.

وخرجت تاركة زوجها فريسة للحيرة والقلق، ثم لم يلبث أن تنهّد وخرج هو أيضاً كي يبذل المستحيل وهو يلعن خيال زوجته الخصيب. وعندما عاد بعد ساعتين وجدها تُخرج علبة من البسكويت من داخل ملفّ تستعمله كمخبأ لهذا الغرض ثم قالت له: أراك شديد اليأس. ماذا فعلت؟

فزمجر قائلاً: لقد طفت بالمستشفيات ومعي وصف الفتاة.

- ألم أقُل لك أن تدَعني أهتمّ أنا بذلك؟

- لن يمكنك أن تعثري عليها وحدك حتى الثانية غداً.

- حقاً؟ حسناً، إذن فهل تتصوّر أنني قد وجدتها بالفعل؟

- مستحيل!

- إنها مشكلة سهلة جداً يا سيد واطسون، من أسهل ما يكون.

- وأين هي الآن؟

فأشارت توبنس إلى الغرفة المجاورة وقالت: في مكتبي.

- وماذا تفعل فيه؟

فراحت توبنس تضحك ثم قالت: إن تجرِبتها الأخيرة تحملني على استنتاج أنه من السهل معرفة النتيجة إذا وضعنا تحت يديها

برّاداً وموقداً غازياً ونصف رطل من الشاي.

ثم استطردت تقول برفق: أرأيت يا تومي؟ إنني أشتري قبعاتي من محلّ فيوليت، وفي المرة الأخيرة رأيت بين الموظفات صديقة قديمة كانت زميلة لي في المستشفى الذي كنت أعمل فيه، وبعد أن وضعت الحرب أوزارها هجرت المستشفى وفتحت محلاً لبيع القبعات، ولكنها لم تلبث أن أفلست والتحقت بالعمل لدى السيدة فيوليت. وقد دبّرنا هذه القصة معاً، وكان عليها أن تلفت نظر السيد سان فنسانت إلى إعلاننا ثم تختفي بعد ذلك كي نتمكّن من التدليل على فعالية مكتب بلانت الدولي، وهذه دعاية لنا ودافع لا بدّ منه كي يقدِم الشاب على طلبها للزواج، وكانت جانيت قد بدأت تيأس من ذلك.

– توبنس، إنك تدهشينني. كل هذه القصة تدبير غير لائق لم أسمع له مثيلاً! إنك تجبرين رجلاً على الزواج بفتاة ليست من طبقته.

– رويدك. إن جانيت فتاة مدهشة، والأغرب من ذلك أنها تعشق ذلك الشاب الأحمق، ويمكنك أن تلاحظ من أول وهلة أن أسرة سان فنسانت بحاجة إلى دم قويّ، وستدفع جانيت زوجها إلى النجاح، سترعاه كما ترعى الدجاجة أولادها، وستضع حداً للهو وتجعله يحيا حياة سليمة. تعالَ كي تراها.

ثم فتحت الباب الذي يفصل بين الغرفتين، فتركت فتاة طويلة القامة ذات شعر أشقر جميل ووجه صبوح الإبريق الذي في يدها والذي يتصاعد منه الدخان والتفتت إلى الوافدين وعلى شفتيها ابتسامة تنمّ عن صفّين من الأسنان الجميلة البيضاء وقالت: أرجو أن لا تحقدي عليّ أيتها الممرّضة كولي، أعني يا سيدة بيريسفورد،

ولكنني رأيت أنك قد تتناولين أنت أيضاً كوباً من الشاي، فطالما قدّمت لي الشاي أنت نفسك ونحن في المستشفى في منتصف الليل.

فقالت توبنس: تومي، أقدّم لك صديقة لي، الممرضة سميث.

- سميث؟ هل قلت سميث؟ ما أغرب هذا!

وضغط على يدها وهو يقول: معذرة، لا يوجد شيء. إنني أعدّ دراسة حول هذا الاسم.

فقالت توبنس ساخرة: هدّئ من روعك. لنشرب الآن نخب نجاح مكتب بلانت الدولي الذي لا يعرف الفشل.

* * *

-٣-

اللؤلؤة الوردية

- ماذا تفعل هناك بالله عليك؟

هتفت توبنس بذلك وهي تدخل غرفة المدير بمكتب بلانت الدولي وترى سيدها غارقاً بين تلال من الكتب، فنهض تومي بتثاقل قائلاً: كنت أحاول أن أضع هذه الكتب فوق الرفّ العلوي فوقع بي هذا الكرسي اللعين.

- ومن أين أتيت بكل هذه الكتب؟

والتقطت توبنس كتاباً كيفما اتفق فإذا به رواية «الكلب الجهنّمي»، فقالت: يسرّني أن أقرأ هذه القصة من جديد.

فقال تومي وهو ينفض الغبار عن ثيابه بعناية: لقد سبقتني، يجب علينا أن نخصّص نصف ساعة من وقت إلى آخر لكبار كُتاب القصة البوليسية لأنني مضطرّ إلى الاعتراف بأننا لسنا إلا من الهواة في هذا المضمار، وليست لنا حيلة في ذلك طبعاً، ولكن من الخير أن نكتسب خبرة في هذا الفن. وهذه القصص مثل «الكلب الجهنمي» مثلاً كتبها أشهر الكُتاب الذين تخصصوا في هذا النوع، وفي نيتي أن أقرأ لكُتاب كثيرين وأن أقارن بين الوسائل المستخدمة لحل

المعضلات البوليسية.

- طالما تساءلت يا تومي كيف يتصرف المخبرون الوهميون لو أنهم وجدوا أنفسهم في عالَم الواقع.

وأخذت توبنس كتاباً آخر فقرأت عنوانه ثم استطردت قائلة: فمثلاً سيتعذّر عليك أن تتقمّص شخصية ثورنديك، فليست لك أية خبرة طبّية ولا أية دراية في الشؤون القضائية.

- ربما، غير أن لي ميزة، وهي أنني أملك آلة تصوير من نوع جيّد وأنوي أن ألتقط صوراً لكل أنواع البصمات كي أدرسها على مهل. والآن شغّلي خلايا مخّك يا صديقتي. بماذا يوحي إليك هذا؟

وأشار إلى معطف دي شامبر داخل خزانة ثياب بجوارها حذاء وكمان، فقالت: هذا واضح تماماً يا عزيزي واطسون.

- بالضبط، طابع شيرلوك هولمز.

ثم أخذ الكمان ومرّ بالقوس على أوتاره بشرود، وما كاد يفعل حتى أطلقت توبنس صرخة ألم، وفي تلك اللحظة رن الجرس الذي فوق المكتب بصوت خافت إشارة إلى قدوم عميل أرغمه ألبرت على الانتظار، فأسرع تومي فأعاد الكمان إلى خزانة الثياب ووضع الكتب فوق الرفّ وقال: لا داعي إلى العجلة، فلا ريب أن ألبرت استخدم دوره العادي، فقال إنني أتكلّم في مكتب الهاتف مع اسكتلنديارد، ولكن أسرعي إلى مكتبك يا توبنس واضربي على الآلة الكاتبة لأن ذلك يخلق الجوّ المناسب. لا، بل ابقَي هنا واكتبي ما أُمليه عليك. لنُلقِ نظرة أولاً على ضحيّتنا قبل أن يرسلها ألبرت إلينا.

واقتربا من الكوّة فرأيا فتاة في سنّ توبنس تقريباً، طويلة القامة سمراء متوترة القسمات متعالية النظرة، فقالت توبنس: إنها ترتدي ثياباً رخيصة ولكنها جديدة. أدخلها يا تومي.

وبعد لحظات كانت الفتاة الغريبة تتبادل التحية مع السيد بلانت المشهور في حين بقيت توبنس جالسة وقد خفضت عينيها إلى دفتر مذكّراتها بتواضع. قال السيد بلانت وهو يشير إليها بيده: هذه سكرتيرتي الخاصة، يمكنك أن تتحدثي أمامها دون خوف.

واضطجع في مقعده إلى الخلف وقد أطبق عينيه نصف إطباقة وقال بصوت عاديّ: لا ريب أن ركوب حافلات النقل في هذه الساعة من النهار أمر بغيض.

- ولكنني أتيت في سيارة أجرة.

- حقاً؟

ثم نظر بعتاب إلى تذكرة حافلة النقل التي تبرز من قفاز الفتاة فابتسمت هذه الأخيرة وقالت: لقد التقطتُها من الشارع لأن ابن الجيران يروقه أن يجمعها.

وسعلت توبنس باحتشام فألقى زوجها إليها نظرة استياء ثم قال فجأة: لنتكلّم عن السبب الذي أتى بك. هل أنت بحاجة إلى خدمتنا يا آنسة...

- كنغستون بروس. إنني أقيم مع أهلي في ويمبلدون، ومساء أمس فقدت ضيفة لدينا لؤلؤة ذات قيمة كبيرة، وكان السيد سان فنسانت موجوداً فأشاد بمكتبكم، وتودّ أمي أن تعهد إليكم بهذه المسألة.

قالت كل هذا بصوت يشوبه الأسف وهي عابسة الأسارير،

وكان يبدو واضحاً أنها لا تشارك أمها رأيها وأنها جاءت كارهة، فقال بلانت: ألم تتصلوا بالشرطة؟

- نعم، لم نتصل لأنها ستكون حماقة كبيرة لو ظهر فيما بعد أن اللؤلؤة تدحرجت تحت إحدى قطع الأثاث.

- ألأنه من الجائز أن يكون الحلّ بمثل هذه البساطة؟

- إننا نضخّم أموراً في منتهى البساطة أحياناً.

فقال تومي بصوت عمليّ: طبعاً. إنني مشغول الآن و...

- فهمت.

ونهضت الفتاة وهي تتنهد بارتياح لاحظته توبنس، ثم قال تومي: ومع ذلك أظن أنني أستطيع أن أدبّر أمري وأذهب إلى ويمبلدون. ما هو العنوان من فضلك؟

- قصر الأمجاد، بادغووث رود.

- دوّني العنوان من فضلك يا آنسة روبنسون.

وترددت الزائرة لحظة ثم قالت: سننتظر قدومك إذن.

وما إن انصرفت حتى قال تومي: يا لها من فتاة غريبة الأطوار ليس من اليسير فهمها!

- إنني أتساءل، هل هي التي سرقت اللؤلؤة؟ هلمّ بنا نعيد هذه الكتب إلى مكانها يا تومي ثم نذهب لزيارة إلى كنغستون بروس. بالمناسبة من تنوي أن تكون؟ شيرلوك هولمز؟

- أظن أنني بحاجة إلى تجارِب كثيرة كي أقوم بدوره، فقد أغرتني تلك التذكرة بسهولة.

– هذا صحيح. لو أنني كنت مكانك لما خذلت تلك الفتاة الرقيقة رقة العنبر. إن المسكينة تعِسة.

فقال الزوج بسخرية: أظن أنك عرفت كل شيء عنها بمجرّد النظر إلى أرنبة أنفها.

فقالت توبنس متجاهلة ملاحظة لهجة زوجها الساخرة: إليك ما أعتقد أننا سنجده تقريباً في الأمجاد. إن صاحب البيت من ذوي النفخة الكاذبة الذين يحاولون الانتماء إلى أحسن الطبقات، وإذا كان لا يزال على قيد الحياة فمما لا شك فيه أنه حاصل على رتبة عسكرية، والابنة تحاول أن تعيش على طريقة أسرتها، وإن كانت تتألم من ذلك.

فألقى تومي نظرة أخيرة إلى الكتب المصفوفة بعناية ثم قال بعد تفكير: أظن أنني سأكون اليوم ثورنديك.

– ومع ذلك فلا يبدو أن هذه القضية تقع في نطاق الطبّ الجنائي.

– هذا جائز، ولكن الوقت مناسب كي أستخدم آلة التصوير الجديدة، والمفروض أنها تحتوي على عدسة جيدة.

– إنني أعرف هذا النوع من آلات التصوير، فعندما تفرغ من ضبطها حسب الزاوية والمسافة وحجم الصورة المطلوبة تكون قد أجهدت عقلك بحيث تحنّ إلى آلة التصوير العادية.

– إن الشخص الذي لا أطماع له هو الذي يقنع بصندوق بروني العادي.

– حسناً، أراهنك على أنني أستطيع الحصول على نتيجة أحسن منك، وسأكون بولتون.

- أنت؟ إنك لا تستطيعين أن تقومي بأقل عمل من أعماله.

- بل أستطيع أن أدَعك تبدي دليلاً على الارتياح، وهذا كافٍ جداً في البداية، وأرجو أن تقوم من ناحيتك بأخذ قوالب لبصمات الأقدام.

وهكذا اضطرّ تومي إلى أن يخلد إلى الصمت. وبعد ذلك استقلاّ سيارتهما وانطلقا في طريقهما إلى ويمبلدون، وكان قصر الأمجاد قصراً كبيراً مبنياً بطريقة هندسية معقدة، وكان حديث الطلاء تحيط به أفاريز فوقها صفوف من زهور الجيرانيوم القرمزية. وقبل أن تفرغ توبنس من ضغط الجرس فُتح الباب وظهر من خلفه رجل طويل القامة له شارب صغير أبيض يحاول أن يظهر بمظهر عسكريّ مبالغ فيه ثم قال: كنت أترقّب قدومكما. أنت السيد بلانت إذا لم أخطئ. أنا الكولونيل كنغستون بروس. هلمّا بنا إلى مكتبي.

وقادهما إلى غرفة خلفية صغيرة ثم قال: إن السيد سان فنسانت الشاب يشيد بمكتبكم، ثم إنني قرأت إعلانكم في الجريدة، وإن ضمان النتيجة خلال أربع وعشرين ساعة لفكرة رائعة، وهذا ما أنا بحاجة إليه حقاً.

فقال تومي وهو يلعن توبنس في قرارة نفسه: حسناً جداً يا سيدي الكولونيل.

- إنها مسألة مزعجة يا سيد بلانت، مزعجة جداً.

قال تومي: لعلك تستطيع أن تذكر لي الحقائق.

- طبعاً. إننا نستضيف لبضعة أيام صديقة حميمة وعزيزة علينا هي لورا بارتون ابنة الفقيد الكونت كارودای، وقد ألقى أخوها،

وهو الكونت الحالي، محاضرة رائعة في مجلس النواب أخيراً، وكما قلت لك فإن السيدة بارتون صديقة قديمة وعزيزة علينا. وقد قدم إلى إنكلترا زوجان أمريكيان ورغبا في التعرف بها، فقلت لهما: "لا يوجد أسهل من ذلك؛ فهي تقيم عندي حالياً، فهل لكما أن تقضيا عطلة نهاية الأسبوع عندنا؟". وأنت تعرف يا سيد بلانت اهتمام الأمريكان بأصحاب الألقاب.

- ليسوا وحدهم في ذلك.

- هذا صحيح للأسف يا سيد بلانت. إنني لا أبغض شيئاً أكثر من ذوي النفخة الكاذبة. لقد قبِل السيد والسيدة بيتس قضاء عطلة نهاية الأسبوع عندنا، ومساء أمس في أثناء لعبة البريدج كُسر قفل القلادة التي تلبسها السيدة هامتلون بيتس، فوضعتها على منضدة صغيرة وفي نيّتها أن تستعيدها بعد أن تفرغ من اللعب، ولكنها نسيتها لسوء الحظ. ويجب أن أقول لك يا سيد بلانت إن القلادة بها جناحان من الماسات الصغيرة في وسطها لؤلؤة كبيرة، وقد وجدنا القلادة مكانها صباح اليوم ولكن اللؤلؤة انتُزعت منها واختفت، وهي تساوي ثروة كبيرة.

- مَن الذي وجد القلادة؟

- الخادمة المشرفة على المائدة، غلاديس هيل.

- ألديك من الأسباب ما يجعلك تشتبه فيها؟

- إنها أمينة جداً، ولكن الإنسان لا يدري حقاً.

- أجل. هل يمكنك أن تذكر لي أسماء الخدم والأشخاص الذين كانوا موجودين في أثناء الطعام أمس؟

- لدينا خادمة التحقت بخدمتنا منذ شهرين فقط، ولكن

الفرصة لم تُتح لها للاقتراب من المائدة مساء أمس، وهكذا الحال أيضاً مع الطاهية أَليس كومنجز، وهي في خدمتنا منذ فترة طويلة. وتوجد أيضاً الخادمة التي ترافق السيدة لورا، وهي فتاة فرنسية.

نطق الكولونيل بالكلمتين الأخيرتين بتفخيم كبير، ولكن محدثه قال بغير اهتمام: حسناً، وماذا عن المدعوين؟

- السيد والسيدة بيتس، وأنا وزوجتي وابنتي، والسيدة لورا، والسيد سان فنسانت الشاب، ولقد أقبل السيد ريني بعد العشاء ولكنه لم يبقَ كثيراً.

- ومن هو السيد ريني؟

- شاب مريب جداً. إنه اشتراكيّ، وهو وسيم حقاً ويتمتع بموهبة كبيرة في الجدل والمناقشات الخاصة، ولكنني لا أخشى أن أقول إنني لا أوليه أقلّ ثقة. الخلاصة أنه رجل شديد الخطر.

وتدخلت توبنس فقالت بحدة: إذن هو الذي تشتبه فيه؟

- سيد بلانت، إنني واثق أن رجلاً له تلك الآراء الغريبة التي يدافع عنها لا يتورّع عن أي شيء، وليس أسهل بالنسبة إليه من اختيار لحظة ينهمك فيها الجميع في اللعب ليأخذ اللؤلؤة. لقد كانت توجد أوقات مناسبة للسارق في أثناء اللعب، خصوصاً عندما أخطأت زوجتي ولم تؤيد زميلها في لعبته.

- وماذا فعلت السيدة بيتس عندما تحققت من السرقة؟

فأجاب الكولونيل على مضض قائلاً: أرادت أن أستدعي الشرطة، وهذا طبعاً بعد أن فتشنا الغرفة تفتيشاً دقيقاً في حالة ما إذا تدحرجت اللؤلؤة تحت إحدى قطع الأثاث.

- أأنت من صرف السيدة بيتس عن اللجوء إلى الشرطة؟

- لقد اعترضت على هذه الدعاية البغيضة وأيدتني زوجتي وابنتي في ذلك، وعندئذ تذكرت زوجتي مديح السيد سان فنسانت لمكتبك وأشارت إلى النتيجة المضمونة في خلال أربع وعشرين ساعة.

فهزّ تومي رأسه وقد تسارعت دقات قلبه، ثم استطرد الكولونيل قائلاً: مهما يكُن من أمر فلن تكون للفشل عواقب خطيرة لأننا إذا اضطررنا إلى اللجوء إلى الشرطة فعندئذ يمكننا أن نقول إننا اعتقدنا أن اللؤلؤة تدحرجت وإننا بحثنا عنها وقتاً طويلاً. بالمناسبة أقول لك إن أحداً لم يبرح البيت.

وعندئذ قالت توبنس: فيما عدا ابنتك.

- فيما عدا ابنتي التي اقترحت أن نكلّفكم بالقضية.

فنهض تومي قائلاً: سنبذل قصارى جهدنا لإرضائك، ولكنني أريد أن أرى غرفة الاستقبال والمنضدة التي كانت القلادة فوقها، وبعد ذلك أُلقي بضعة أسئلة على السيدة بيتس قبل أن أستجوِب الخدم، أو بمعنى أصحّ ستهتمّ سكرتيرتي بذلك.

نهض الكولونيل كنغستون بروس وسار بهما خلال البهو، ومن الباب الموارب الذي هم في طريقهم إليه جاءهم صوت كنغستون بروس وكانت تقول: ولكنك تعرفين يا أماه أنها جاءت ذات يوم ومعها ملعقة صغيرة في فراء كُمّها.

وبعد لحظة قدّمها الكولونيل واستقبلتهما ابنتها بإيماءة خفيفة من رأسها، وكانت أشدّ عبوساً عن ذي قبل. والتفتت السيدة كنغستون بروس إلى ابنتها لتنهي الحديث الذي بينهما قائلة: أظن

أنني أعرف من الذي أخذها، إنه ذلك الشاب الاشتراكي البغيض؛ فهو يعشق الروس والألمان ويمقت الإنكليز، فماذا تنتظرين من شاب مثله غير ذلك؟

فأجابت الفتاة بكبرياء قائلة: إنه لم يلمسها قطّ، فقد ظللت أراقبه مساء أمس، ولو أنه أخذها لرأيته بكل تأكيد.

ثم نظرت إلى الموجودين بتحدٍّ عالية الجبين، فحوّل تومي الاهتمام فطلب أن يتحدث إلى السيدة بيتس، وعندما خرج آل كنغستون بحثاً عن الأمريكية تمتم يقول: إنني أتساءل، من تلك التي أخذت ملعقة في فراء كُمّها؟

فقالت توبنس: وأنا كذلك.

وأقبلت امرأة ضخمة ذات صوت جهوري يتبعها زوجها وهو بادي الإذعان فقالت: هل صحيح أنك مخبر خاص وأنك تضمن النتيجة في وقت سريع يا سيد بلانت؟

- نعم يا سيدتي. اسمحي لي أن ألقي عليك بضعة أسئلة.

* * *

ترابطت الأحداث التي تلت ذلك سريعاً، فقد فحص تومي القلادة المكسورة والمنضدة التي وضعتها السيدة بيتس عليها، وخرجت هذه الأخيرة وهي تشير إلى قيمة الجوهرة بالدولار.

- أظن أن هذا يكفي. آنسة روبنسون، هل لك أن تأتيني بآلة التصوير الخاصة؟

فأسرعت الآنسة روبنسون لتأتيه بها، ثم قال يخاطب الموجودين: هذا اختراع صغير شخصيّ، ولا شيء يميزه في الظاهر عن آلة التصوير العادية.

وتأكد المخبر الهاوي على الفور أنه لن يصل إلى نتيجة، فالتقط عدة صور للقلادة ثم طلب من الآنسة روبنسون أن تذهب لاستجواب الخدم. وأمام شغف الكولونيل والسيدة بيتس وزوجته رأى تومي أن يقدم بعض الإيضاحات فقال: هذا هو الموقف، إما أن تكون اللؤلؤة ما زالت في البيت، وإما أنها لم تعُد موجودة فيه.

أسرع الكولونيل يقول بحماسة تزيد عن اللازم: هذا صحيح.

- وإذا لم تكُن في البيت فمن الجائز أن تكون في أي مكان، أما إذا كانت لا تزال في البيت فإن مجال البحث محدود و...

فقاطعه الكولونيل قائلاً: ولا بدّ أن نقوم بتفتيش دقيق. إنني أفهم، وأعطيك تفويضاً تاماً بأن تفعل ما تريد يا سيد بلانت، فتّش البيت من القبو إلى السطح.

وتمتمت السيدة كنغستون شاكية: آه يا شارل! هل تظن أن هذا معقول؟ قد يغضب الخدم ويتركوننا.

فقال المخبر السرّي: سنفتش غرفهم في النهاية. لا ريب أن السارق أخفى الجوهرة حيث لا يخطر لنا أن نبحث عنها، والمخبأ الوحيد الذي لا يمكن أن يخطر لنا هو غرفة السيدة بيتس.

- غرفتي أنا؟! هذا غريب.

وأسرعت فقادته إلى غرفتها، وهناك استخدم آلته مرة أخرى، ولم تلبث توبنس أن انضمت إليه فقال: أرجو أن لا تعترضي على أن تلقي سكرتيرتي نظرة على خزانة ثيابك يا سيدة بيتس.

- مطلقاً. أما زلت بحاجة إليّ؟

فأكّد لها تومي أنه ليس لديه أي سبب لاحتجازها أكثر من ذلك فانصرفت مسرعة، ثم قال تومي: من الأفضل أن نتظاهر بالاستمرار في هذه اللعبة، ولكنني شخصياً لا أعتقد أنه توجد أقل فرصة في أن نعثر على الجوهرة. لعنة الله على فكرتك المبتكرة بضمان النتيجة خلال أربع وعشرين ساعة!

- اسمع، إنني واثقة أن الخدم لا يعرفون شيئاً، ولكنني أفلحت في استدراج الخادمة الفرنسية. يبدو أنه في آخر مرة كانت لورا فيها هنا -وكان ذلك منذ سنة- كانت قد عادت من بيت أصدقاء للسيد كنغستون بروس، وكانت قد تناولت الشاي معهم ووقعت ملعقة صغيرة من فراء كُمّها فحسب الجميع أن الملعقة تعلّقت بفراء الكُمّ دون أن تلحظ لورا ذلك، ولكن لم تكُن تلك هي المرة الوحيدة التي يقع فيها مثل هذا الحادث. يبدو أنها معدمة، ولكن لقبها يفتح لها بعض الأبواب. ومن وقت إلى آخر كانت السيدة لورا تذهب إلى بعض الأماكن، وسواء كانت مصادفة أم لا فقد وقعت سرقات في بعض الأماكن التي ذهبت إليها سرقات تبدأ من أشياء تافهة إلى حليّ ذات قيمة.

- هذا غريب! هل تعرفين أين غرفتها؟

- الغرفة التي أمامنا.

- أرى أنه يجب أن نلقي نظرة.

وكان الباب مواربا فدفعاه ودخلا إلى غرفة كبيرة مفروشة بأثاث من اللاكيه الأبيض وستائر وردية اللون طويلة وبها باب يفضي إلى غرفة حمام خرجت منها فتاة نحيلة سمراء محتشمة الثياب أطلقت صيحة مكتومة عندما رأت الزائرين، فأسرعت توبنس تقول: هذه هي إليز يا سيد بلانت، خادمة السيدة لورا.

دخل تومي غرفة الحمام، وكانت مجهزة بأفخم التركيبات وأحدثها، وكي يبدّد الشك في عينَي الفتاة الفرنسية أسرع يقول بمرح: أرى أنك كنت منهمكة في مزاولة عملك يا آنسة إليز.

- أجل يا سيدي، لقد كنت أقوم بتنظيف حوض الاستحمام.

- هل يضايقك أن تتركي هذه المهمة لحظة كي تساعديني في التقاط بعض الصور؟ إن معي آلة تصوير ألتقط بها ما أريد.

وفي تلك اللحظة صُفق باب الاستحمام خلفه، فجفلت إليز وقالت: من أغلق هذا الباب؟

فقالت توبنس: لا ريب أنها الريح.

وقال تومي: لنعُد إلى الغرفة الأخرى.

وأرادت إليز أن تفتح الباب ولكن المقبض لم يدُر، فسألها تومي على الفور: ما الخبر؟

- يبدو أن بعضهم قد أغلق الباب من الخارج بالمفتاح.

ثم أخذت منشفة وحاولت من جديد، وفي تلك المرة انفتح الباب دون صعوبة فقالت: هذا غريب؛ لا ريب أنه كان محشوراً.

كانت غرفة النوم خالية، فأخذ تومي آلته وعملت المرأتان تحت أوامره، ولكنّ عينَي المخبر الشاب كانت تعود من وقت إلى آخر إلى باب غرفة الاستحمام، ثم تمتم قائلاً: إنني أتساءل، لماذا رفض هذا الباب أن يُفتح؟

وذهب ففحصه بعناية وفتحه ثم أغلقه مرات عديدة وكان

المقبض يدور في كل مرة، فقال وهو يتنهد: سألتقط صورة أخيرة. هل لك أن ترفعي هذه الستارة قليلاً يا آنسة إليز؟ شكراً لك، أمسكيها هكذا لحظة.

والتقط تومي الصورة وأغلق آلته بعناية كبيرة، ثم أبدى عذراً كي يتخلص من الخادمة، ثم أخذ توبنس من ذراعها وهمس يقول: أصغي إليّ، لقد خطرت لي فكرة. هل يمكنك البقاء هنا؟ فتّشي المكان، وسيقتضي هذا بعض الوقت. حاولي أن تتحدثي إلى السيدة العجوز ولكن لا تُفزعيها، قولي لها إنك تشتبهين في الخادمة التي تشرف على المائدة في قاعة الطعام، ولكن مهما يقع لا تدَعيها تخرج من البيت. سأستقل السيارة وسأعود بأسرع ما يمكن.

نظرت توبنس إلى السيارة وهي تبتعد مشغولة الذهن، وكان تومي يبدو واثقاً من نفسه جداً، أما هي فكانت مترددة حيث إنه كان يوجد شيء أو شيئان لا تفهمهما تماماً.

ومن النافذة التي تشرف على الباب رأت رجلاً يخرج من باب مجاور ويتقدم نحو البيت، ولم يلبث أن دقّ جرس الباب، فتركت توبنس مكانها وأسرعت هابطة الدرَج، ثم أشارت إلى غلاديس هيل التي أقبلت لتفتح الباب أن تعود أدراجها وفتحت هي للزائر. كان شاباً نحيفاً غير أنيق الثياب عابس الوجه قال بعد تردّد يسير: هل الآنسة كنغستون موجودة؟

فأفسحت توبنس له الطريق كي يدخل ثم قالت وهي تبتسم: أنت السيد ريني، إذا لم أخطئ.

فنظر الشاب إليها نظرة سريعة ثم أجاب قائلاً: هذا صحيح.

- تفضل بالدخول.

وتبعته إلى غرفة المكتب التي لم يكُن بها أحد وأغلقت الباب، فالتفت ريني إليها وقال متجهّماً: أريد أن أرى الآنسة كنغستون بروس.

فأجابته دون ارتباك قائلة: أظن أن هذا غير ممكن.

فسألها بفظاظة قائلاً: من أنت؟

- مكتب بلانت الدولي للأبحاث.

جفل الشاب بشكل ملحوظ، فعادت توبنس تقول: أرجو أن تجلس يا سيد ريني، وأبدأ فأقول إننا على علم بزيارة الآنسة كنغستون بروس لك صباح اليوم.

كانت نظرة جريئة ولكنها أتت ثمارها، وعندما رأت توبنس استياء الشاب أردفت تقول: إن العثور على اللؤلؤة هو الذي يهمّنا أكثر من أيّ شيء آخر يا سيد ريني، ولا أعتقد أن أحداً في هذا البيت يتمنّى الدعاية. ألا يمكن أن نصل إلى اتفاق؟

فحدق إليها قائلاً: ماذا تعرفين؟ دعيني أفكر لحظة. هل صحيح أن السيد سان فنسانت سيتزوّج؟

- طبعاً، وإنني أعرف خطيبته.

فقال ريني فجأة بلهجة خاصة وكأنه يذيع شيئاً: لقد كانت الأيام الأخيرة عصيبة، فلم يكفّوا عن إزعاج بياتريس من الصباح إلى المساء، وكانوا يريدون تزويجها بذلك الشاب، لا لشيء إلا لأنه سيرث لقباً ذات يوم. لو أنني كنت السيد...

فأسرعت توبنس وقاطعته قائلة: لنترك السياسة جانباً. هل يمكنك أن تقول لي لماذا تعتقد أن الآنسة كنغستون بروس هي

التي سرقت اللؤلؤة؟

- إنني... إنني لم أعتقد هذا قط.

فأجابته بهدوء: أجل. لقد فاجأتك وأنت تترقب انصراف المخبر، وعندما خُيل إليك أن الجوّ أصبح خالياً أسرعت كي تقابل الفتاة، هذا واضح. إذن فلماذا أبديت مثل هذا القلق؟

- لقد بدا سلوكها غريباً. لقد زارتني صباح اليوم لتخبرني بالسرقة، ثم قالت إنها ذاهبة إلى مكتب شرطة سرّي، وبدت كأنها تريد أن تُسرّ إليّ بشيء دون أن تستطيع الإفصاح به.

- فيما يتعلق بي أنا لا يهمّني إلا اللؤلؤة، ومن الأفضل أن تذهب كي تتفاهم مع الآنسة كنغستون بروس.

وفي تلك اللحظة دخل الكولونيل كنغستون بروس الغرفة فقال: الغداء جاهز يا آنسة روبنسون، فتفضلي بالانضمام إلينا.

وأمسك كي يرمي الشاب بنظرة غاضبة فقال هذا الأخير: واضح أنه ليس في نيتك أن تدعوني، سأنصرف.

وتبعت المرأة الشابة صاحب البيت الذي راح يدمدم منتقداً وقاحة بعض الشبان، وبلغا قاعة الطعام حيث اجتمعت الأسرة، فكان بينهم شخص واحد غير معروف لتوبنس.

- سيدة لورا، أقدّم إليك الآنسة روبنسون التي جاءت لمساعدتنا.

حنت السيدة العجوز رأسها وراحت تنظر إلى المرأة الشابة من خلال نظارتها. كانت امرأة نحيلة حزينة الابتسامة هادئة الصوت حادة البصر. قابلت توبنس نظرتها بنظرة فاحصة، فأسرعت السيدة

لورا فخفضت عينيها، وبعد أن فرغوا من الطعام خاطبت المرأة الأرستقراطية توبنس وسألتها عن سير التحقيق بغير اهتمام ظاهر، فألمحت توبنس ببراعة إلى الشك الذي يحوم حول غلاديس هيل، ولكن اهتمامها بالسيدة بدأ يخبو، فقد داخلها الاعتقاد بأن السيدة العجوز يمكن أن تختلس الملاعق الصغيرة والأشياء التافهة عند الحاجة، ولكنها لا تقدم أبداً على سرقة لؤلؤة ثمينة.

ولم تلبث المرأة الشابة أن استأنفت عملها، وانقضى الوقت ولم يأتِ أيّ خبر عن تومي ولا عن الرجل الآخر الذي يهمّها أكثر وهو السيد ريني. وبينما هي تخرج من إحدى الغرف اصطدمت فجأة ببياتريس كنغستون بروس وكانت تتجه نحو الدرَج وهي بثياب الخروج، فقالت لها: لا يمكن أن تخرجي في الوقت الحاضر.

فنظرت الفتاة إليها شزراً ثم قالت: سواء خرجت أم لا فإن هذا ليس من اختصاصك.

- هذا صحيح، ولكن إبلاغ الشرطة يدخل ضمن اختصاصاتي.

وما إن سمعت الفتاة هذه الكلمات حتى اصفرّ لونها وقالت: لا، لا يجب أن أخرج، ولكن لا تفعلي شيئاً، أرجوك.

وأمسكت بذراع السكرتيرة متوسلة فقالت توبنس بهدوء: عزيزتي الآنسة كنغستون بروس، إن المسألة كانت بالنسبة لي في غاية الوضوح منذ البداية. إنني...

وفي غمرة الحديث لم تسمع توبنس جرس الباب، وقد دهشت عندما رأت تومي يصعد وثباً في حين وقف بالبهو رجل ضخم عريض الكتفين قال وهو يرفع قبعته باحترام: المفتش

ماريوت من اسكتلنديارد.

فأطلقت بياتريس كنغستون صرخة وانتزعت نفسها من توبنس، ثم هبطت الدرَج مسرعة في نفس اللحظة التي فُتح فيها الباب وظهر ريني، فصاحت توبنس قائلة بغضب: لقد أفسدت كل شيء.

وقال تومي وهو يمرّ بها: حقاً؟

وأسرع إلى غرفة السيدة لورا ومنها إلى غرفة الحمّام، ثم لم يلبث أن عاد ومعه قطعة كبيرة من الصابون. وصعد المفتش الدرَج لملاقاته وهو يقول: لقد استسلمت دون عناء، ولم تكُن هذه أول تجرِبة لها. ولكن أين الجوهرة؟

فأجاب تومي وهو يعطيه قطعة الصابون: أظن أنك ستجدها داخل هذه القطعة.

تألقت عينا المفتش ارتياحاً ثم قال: خدعة قديمة ما زالت تُستخدم حتى الآن، يقطع السارق قطعة الصابون قطعتين ويحفر تجويفاً للجوهرة ثم يعيد قطعة الصابون إلى حالتها الأولى بواسطة الماء الساخن. إنه عمل جيّد يا سيدي.

وقبِل تومي الإطراء بارتياح وهبط إلى الطابق الأرضي وبرفقته توبنس، وهناك استقبلهما الكولونيل الذي شدّ على يد تومي بحرارة قائلاً: أيها السيد العزيز، لا أستطيع أن أفيَك حقك من الشكر. إن السيدة لورا تريد أن تعبّر لك عن امتنانها.

فأجابه المخبر السرّي قائلاً: يسرّني أننا أرضيناك، ولكن أخشى أنني لا أستطيع الانتظار، فلديّ موعد مع أحد الوزراء.

ثم خرج مسرعاً ووثب إلى سيارته وجلست توبنس بجواره

وصاحت قائلة: ولكنهم لم يلقوا القبض على السيدة لورا يا تومي!

– هذا صحيح. إنني لم أقُل لك، فهُم لم يلقوا القبض على السيدة لورا وإنما على إليز.

ثم أردف يقول عندما رأى دهشة زوجته: هل تفهمين؟ أنا أيضاً حاولت أن أفتح باباً عندما كنت أغسل يدي فوجدت أن هذا مستحيل، وقد تساءلت بعد ظهر اليوم ماذا كانت إليز تفعل بقطعة الصابون بحيث تشبّعت يداها به. ولعلك تذكرين أنها أخذت المنشفة بعد ذلك ومسحت الآثار التي تغطي المقبض، وتذكرت فجأة أن اللصّ المحترف يجدها فكرة رائعة إذا هو التحق بخدمة سيدة أرستقراطية يُشتبه أنها مصابة بداء السرقة، خصوصاً إذا كانت الدعوات تنهال على تلك السيدة. فدبّرت أمري بحيث التقطت صورة لإليز وأنا أتظاهر بأنني ألتقط صورة لغرفة سيّدتها، ثم أسرعت إلى اسكتلنديارد حيث قاموا بتحميض الصورة على الفور، واتضح أن إليز معروفة لهم وأنهم فقدوا أثرها منذ فترة وجيزة.

فقالت توبنس: وكان كل من هذين الشابين يشكّ في الآخر. ولكن لماذا لم تطلعني على نواياك قبل أن تنصرف؟

– إن صديقتي التي تعرف كل شيء نسيت أن ثورنديك لا ينطق بحرف قبل النهاية، ومن ناحية أخرى فإنك أنت وصديقتك جانيت سميث خدعتماني في المرة السابقة، أليس كذلك؟ لقد أصبحنا الآن متساويَين.

* * *

- ٤ -

الرسالة الزرقاء

قال تومي وهو يتثاءب بقوة: إنه يوم مملّ جداً.

وقالت توبنس وهي تتثاءب هي أيضاً: لقد حان وقت الشاي تقريباً.

كانت الأعمال غير رائجة تماماً بالنسبة إلى مكتب بلانت الدولي، ورسالة تاجر اللحوم التي طال انتظارها لم تأتِ بعد، والقضايا الجديدة لا تأتي سريعاً. ثم دخل ألبرت ومعه طرد مختوم وضعه فوق المكتب فقال تومي بتفخيم: سرّ الطرد المختوم. هل يحتوي على لآلئ أسطورية لدوقة روسية؟ أم على قنبلة لنسف مكتب بلانت الدولي؟

فقالت توبنس وهي تمزق ورق التغليف: الحقيقة أنها هدية لفرنسيس هافيلاند بمناسبة زواجه. إنها هدية ظريفة جداً، أليس كذلك؟

فأخذ تومي علبة لفافات التبغ الرقيقة التي ناولتها له وقرأ العبارة المحفورة عليها: «إلى فرنسيس، من توبنس». وفتحها ثم أغلقها وهو يهزّ رأسه بتقدير ثم قال: إنك تُلقين بنقودك من النافذة

يا عزيزتي. إن عيد ميلادي في الشهر المقبل وأريد علبة مماثلة ولكن من الذهب. إنها لفكرة سخيفة أن تقدّمي هذه التحفة الرائعة لفرنسيس هافيلاند المعروف أنه أغبي غبيّ في العالَم كلّه.

- أنسيت أنني كنت أعمل سائقة له في أثناء الحرب حين كان جنرالاً؟ آه كم كانت أياماً جميلة!

- هذا صحيح، وأنا أيضاً أذكر حسناوات كثيرات كنّ يأتين إليّ في المستشفى، ومع ذلك فليس هذا سبباً كافياً كي أُرسل لأي واحدة منهن هدية زواج لأنني أظن العروس لن تقدّر هديتك كثيراً.

فقالت توبنس دون أن تهتم بقول زوجها: إنها جميلة وخفيفة، أليس كذلك؟

فدسّ تومي العلبة في جيبه وقال: حسناً، ها هو ألبرت قادم ومعه بريد اليوم، ومن المحتمل جداً أن تكلّفنا الدوقة برتشاير بالبحث عن كلبها المدلل.

وأخذا يفحصان الرسائل معاً، وفجأة أفلتت صرخة دهشة من تومي وهتف وهو يلقي برسالة في يده قائلاً: ظرف أزرق عليه طابع روسي؟

وصاحت توبنس قائلة: أخيراً؟ هذا حدث مثير! لنفتحه حالاً فقد نجد ما نتوقع. بالتأكيد هو مرسَل من تاجر اللحوم. دقيقة واحدة يا تومي، لا يوجد لبن من أجل الشاي وقد نسي اللبّان أن يأتينا به، وسأبعث ألبرت ليشتري لنا قليلاً منه.

وبعد لحظات قلائل عادت بعدما أرسلت ألبرت فوجدت تومي لا يزال ممسكاً بالرسالة في يده، فلما رآها قال لها: كما

نظن تماماً يا توبنس، إن الرسالة تكاد تكون كما ذكر لنا الرئيس بالضبط.

وقرأتها توبنس هي أيضاً. لقد كانت مكتوبة بأسلوب منسّق وكاتبها يُدعى غريغوري فيودورسكي، ويقول إنه يبحث عن زوجته ويرجو من مكتب بلانت الدولي أن لا يهتمّ بالنفقات في سبيل العثور عليها لأنه لا يستطيع مغادرة روسيا في الوقت الحالي بسبب أزمة بيع الماشية.

قالت توبنس بتفكير وهي تبسط الرسالة أمامها: إنني أتساءل عن معنى كل هذا حقاً.

- هي شفرة خاصة على ما أعتقد، ولكن ليس هذا شأننا، يجب أن يقتصر دورنا على نقلها إلى الرئيس بأسرع ما يمكن. لننزع طابع البريد أولاً كي نتأكد إذا كان الرقم ١٦ مكتوباً تحته أم لا.

- اتفقنا.

وسكتت فجأة فأدهش صمتها تومي، ثم رفع رأسه فرأى رجلاً غريباً يسدّ الباب بقامته الضخمة. لقد كان طويل القامة مهيب الطلعة له وجه مستدير ينتهي بفكّ قويّ، وكان في نحو الخامسة والأربعين من عمره، فقال وهو يتقدم وقبعته في يده: أرجو المعذرة، ولكنني وجدت الباب الخارجي مفتوحاً، وكذلك هذا الباب، فخطر لي أن أدخل لإزعاجكما. هل أنا في مكتب بلانت الدولي للأبحاث والتحريات البوليسية؟

- نعم.

- أظن أنك أنت السيد بلانت، السيد تيودور بلانت.

- أجل. أتريد استشارتي؟ هذه سكرتيرتي الآنسة روبنسون.

حنت توبنس رأسها برقة ولكنها لم تكفّ عن مراقبة الغريب مراقبة دقيقة من خلال أهدابها المسدلة وهي تتساءل منذ متى وهو واقف بالباب وماذا عساه قد سمع. ولم يفُتها أن تلاحظ أن عينيه لا تغيبان عن الورقة الزرقاء التي تمسكها في يدها في أثناء حديثه مع تومي.

أعادها صوت تومي الحادّ إلى العمل وهو يقول: آنسة روبنسون، اكتبي من فضلك. والآن أيها السيد تفضل وأطلعني على سبب زيارتك.

فأخذت توبنس دفترها وقلمها وبدأ الرجل الضخم يقول بصوت خشن: اسمي بوير، الدكتور شارل بوير، أقيم في عيادتي بهامبستيد، وقد أتيتك الآن لأن أحداثاً غريبة وقعت مؤخراً.

- كلّي آذان مصغية يا سيدي.

- لقد طُلبت في الأسبوع الماضي مرتين لحالتين عاجلتين ثم اتضح أنهما حالتان كاذبتان، وقد خطر لي في البداية أن شخصاً سمجاً أراد أن يمزح معي، ولكن عند عودتي في المرة الثانية لاحظت أن يداً قد عبثت بأوراقي الخاصة وأعادتها إلى مكانها دون ترتيب، ومع إمعان التفكير بدا لي أن نفس الشيء قد حدث في المرة الأولى. وقد فحصت جميع أوراقي عن قرب وتأكدت أن مكتبي خضع لتفتيش تام وعاجل.

ثم أمسك السيد بوير وهو يحدق إلى محدثه باستفهام، فقال المخبر وهو يبتسم: وماذا بعد؟

- ما رأيك؟

- الواقع أنني أريد أن أعرف الحقائق أولاً. بماذا تحتفظ

في مكتبك؟

- بأوراقي الخاصة.

- وما نوعها؟ وما قيمتها بالنسبة إلى اللصّ العادي أو أي شخص آخر؟

- لا أظن أن لها أية قيمة بالنسبة إلى اللصّ العادي، ولكن بينها مذكّراتي الخاصة عن بعض السموم، وهي مذكرات يمكن أن تهمّ شخصاً له دراية فنية خاصة. إنني أقوم بدراسة تلك السموم منذ بضع سنوات، وبعضها فتاك سريع المفعول ولا يظهر له أثر.

- وهل لهذه المذكرات قيمة فنية؟

- نعم، لبعض معدومي الضمير.

- وفيمن تشتبه؟

فهزّ الطبيب كتفيه العريضتين ثم قال: الواضح أن اللصّ لم يفتح أيّ باب في البيت بالقوة، وهذا يدل على أنه يعيش تحت سقف البيت بالذات، ومع ذلك فلا أستطيع أن أصدّق...

وأمسك لحظة ثم استطرد بلهجة خطيرة قائلاً: إنني أضع الأمر كله بين يديك يا سيد بلانت لأنني لا أجد الجرأة كي أعهد بهذه القضية إلى الشرطة. أنا واثق من خدمي الثلاثة لأنهم يخدمونني بكل أمانة وإخلاص منذ سنوات عديدة، ومع ذلك فمن يدري؟ ثم يوجد ابنا أخي برترام وهنري، وهنري شاب صالح جداً لم يتسبب في أية متاعب. إنه شاب ممتاز يعمل بكلّ جدّ، أما برترام فعلى النقيض منه للأسف، فهو متمرّد مسرف خامل جداً.

- هل أفهم من هذا أنك تشتبه في أن ابن أخيك برترام مشترك

في هذه المسألة؟ أنا لست من هذا الرأي، وإنني أشتبه في هنري، الشاب الصالح جداً.

- ولكن لماذا؟

- كي ألتزم بالتقاليد طبقاً لخبرتي يا سيدي العزيز، فإن الأشخاص المريبين أبرياء دائماً، والعكس بالعكس، والحقيقة أنني أميل إلى اتهام هنري الصالح.

تدخّلت توبنس بصوت مختلف قائلة: معذرة، ولكنني أظن أنني فهمت أن الدكتور بوير قد اعتاد الاحتفاظ بمذكراته عن السموم المذكورة في مكتبه مع أوراقه الأخرى.

- في نفس المكتب يا آنسة، ولكن في دُرج سرّي لا يعرف مكانه أحد غيري، وهذا هو السبب في أنها لم تقع حتى الآن في يد اللصّ.

فسأله تومي: وبأي شيء أستطيع أن أفيدك؟ هل تتوقع منّي تفتيشاً ثالثاً؟

- سيد بلانت، لديّ ما يحملني على الاعتقاد بذلك؛ فقد جاءتني بعد ظهر اليوم برقية من مريض أُشرف على علاجه، وكنت قد أرسلته منذ أسابيع إلى بورنموث للاستجمام. إنه يقول في تلك البرقية بأن حالته تدهورت ويرجوني أن أذهب لرؤيته بكل سرعة. لكن الأحداث التي حدثتك عنها جعلتني متشككاً، فأرسلت برقية خالصة الردّ إلى بورنموث، وقد رد عليّ مريضي فقال إنه في حالة طيّبة وإنه لم يحاول الاتصال بي قطّ، وعندئذ خطرت لي فكرة، وهي أنني إذا تظاهرت بأنني وقعت في الفخّ وأنني سافرت إلى بورنموث فربما فاجأنا اللصّ أو اللصوص في أثناء عملهم، ولا

ريب أنهم سينتظرون أن يأوي الجميع إلى فُرشهم قبل أن يبدؤوا العمل. وأقترح أن تقابلني أمام بيتي في الساعة العاشرة من مساء اليوم لنفاجئهم جميعاً.

فقال تومي وهو يدق على المكتب بقاطعة الورق: أتعني أننا نستطيع أن نلقي القبض عليهم متلبسين؟ إن خطتك سليمة ولا أجد فيها أيّ عيب. ما عنوانك؟

- فيلاّ الأرز بهامبستيد، وهي في مكان منعزل تقريباً ولكنها تُشرف على هامبستيد هيث.

- حسناً.

ونهض الزائر قائلاً: سأنتظرك أمام الفيلاّ إذن، وليكُن ذلك في الساعة العاشرة إلا خمس دقائق بدافع الحرص.

- حسناً، طاب يومك يا دكتور بوير.

ونهض تومي وضغط على الجرس الموضوع فوق مكتبه فأقبل ألبرت ليرافق العميل، وكان الطبيب يمشي وهو يعرج عرجاً خفيفاً يكاد لا يؤثر على مظهره الضخم. وتمتم تومي بصوت خافت: غريم شديد البأس. حسناً، يا عزيزتي توبنس، ما رأيك؟

- سأذكره لك في عبارة واحدة، الجاسوس الأعرج.

- ماذا تعنين؟

- الجاسوس الأعرج. إنني لم أدرس القصص البوليسية عبثاً، إن هذه القصة يا تومي تبدو كما لو كانت مؤامرة مدبرة، سموم غير معروفة، وماذا غير ذلك؟ لم أسمع بقصة كهذه قطّ.

- يجب أن أعترف أنني وجدت قصة الدكتور بوير غير مقنعة

على الإطلاق.

- هل لاحظت عينيه اللتين لم تفارقا الرسالة؟ إنني واثقة أنه ينتمي إلى العصابة، ولا ريب أنها اكتشفت أنك لست السيد بلانت الحقيقيّ وتريد هلاكنا الآن.

فقال تومي وهو يفتح صوان الكتب ويتأمل صفّ الكتب بعين الودّ: إذا كان الأمر كذلك فمن السهل أن نختار دورنا، نحن الآن الأخوان أوكوود.

ثم أردف قائلاً بصوت لا يقبل الجدل: وسأكون أنا دسموند.

فهزت توبنس كتفيها ثم قالت: كما تشاء. لا بأس أن أكون أنا فرنسيس لأنه أذكى الأخوين، فإن دسموند يقع دائماً في المآزق ثم يظهر فرنسيس في اللحظة الحرجة متنكراً في هيئة بستانيّ أو أية هيئة أخرى لإنقاذ الموقف.

- ولكنني سأكون فوق العادة هذه المرة عندما أصل إلى الفيلاّ و...

فقاطعته توبنس بلا رفق قائلة: ولكنك لن تذهب إلى الفيلاّ الليلة.

- ولِمَ لا؟

- كي لا تقع في الفخ الذي اكتشفناه.

- بل كي أقع في فخ ليس فخاً ما دمنا قد فضحنا أمره، وهذا شيء آخر. إنني أشعر أن ذلك الطبيب سيفاجأ مفاجأة لا يتوقعها.

- كل هذا لا يروقني. هل تذكر ماذا كان يقع لدسموند

عندما يعصى أوامر رئيسه ويتصرف كما يحلو له؟ إن التعليمات صريحة، يجب أن ترسل الخطابات وأن نبعث بتقرير عن كل حدث مشبوه.

- لقد أخطأت خطأً بسيطاً، يجب أن نبعث بتقرير عن أيّ زائر يذكر الرقم ١٦ أمامنا، وليس هذا ما حدث الآن كما أعلم.

- هذا عذر قبيح.

- لا داعي إلى الإلحاح. إن في نيّتي أن أتصرف وحدي يا عزيزتي توبنس، ولن يحدث لي شيء. سأذهب إلى الفيلاّ مدججاً بالسلاح، والمهم أن أتوخى الحذر وأن لا يفطنوا إلى ذلك. إن الرئيس سيهنئني على ذكائي وحسن تصرفي.

- كل هذا لا يروقني، فالرجل قويّ كالثور.

- اطمئني يا عزيزتي، فمعي مسدسي، وهو مسدس لا يرحم.

وفي تلك اللحظة ظهر ألبرت فدخل وأغلق الباب خلفه ثم تقدّم وفي يده ظرف وقال: يوجد سيد يريد أن يراك، وعندما ذكرت له عبارتي المأثورة بأنك تتحدث مع اسكتلنديارد قاطعني قائلاً إنه يعلم ذلك وإنه آتٍ من اسكتلنديارد بالذات، وكتب كلمة وضعها في هذا الظرف.

فألقى تومي نظرة على البطاقة ثم تلألأت أساريره وقال: إن الرجل نطق بالحقيقة، وهو يسخر منك. أدخله يا ألبرت.

ثم ناول البطاقة لتوبنس وكانت تحمل اسم المفتش ديمتشرس، وقد خطّ بجوار الاسم بالقلم الرصاص هاتين الكلمتين: «صديق لماريوت». وما هي إلا لحظة حتى دخل رجل

اسكتلنديارد المكتب، وقد كان قصير القامة سميناً ذا نظرة فاحصة ويشبه المفتش ماريوت. وقال: صباح الخير. لقد اضطُرّ ماريوت إلى أن يذهب إلى الجنوب، ولكنه أوصاني قبل رحيله بأن أهتم بكما، وبهذه القضية على العموم.

ثم أردف قائلاً على الفور وهو يرى تومي موشكاً على سؤاله: لا تخَف يا سيدي، فنحن على علم تام بالموقف، وليس هذا من اختصاصنا ولا نريد أن نتطفل، ولكن بعضهم أدرك منذ قليل أن كل شيء هنا لا يطابق الظواهر. وقد زاركم بعد ظهر اليوم سيد لا أدري بأيّ اسم تقدّم ولا أعرف اسمه الحقيقي، ولكنني أعرف بضعة أشياء تكفي كي أحاول معرفة المزيد، وأظن أنني على صواب إذا قلت لكما إنه ضرب لك موعداً في مكان معيّن الليلة.

- هذا صحيح.

- هكذا ظننت. لقد ضرب لك موعداً في ١٦ وسترهام رود بفينسبوري بارك، أليس كذلك؟

قال تومي مصحّحاً: إنك مخطئ، فإن الموعد في فيلاّ الأرز بهامبستيد.

فارتسمت الدهشة على وجه ديمتشرس وقال: إنني لا أفهم. بالتأكيد هو ينتمي إلى عصابة أخرى. هل تقول فيلاّ الأرز بهامبستيد؟

- نعم، ويجب أن ألحق به في تمام الساعة الحادية عشرة.

- لا تذهب يا سيدي.

فانفجرت توبنس قائلة: هل سمعت؟

احمرّ وجه تومي وقال بحدّة: إذا كنت تظن أيها المفتش...

ولكن المفتش هدأ من روعه قائلاً: سأخبركما بما أظن يا سيد بلانت. إن المكان الذي يجب أن تذهب إليه الليلة الساعة الحادية عشرة هو هذا المكتب بالذات.

فصاح الزوجان معاً: ماذا؟!

- هذا المكتب بالذات. لا يهمّكما كيف عرفت ذلك، ولكن يكفي أن أقول لكما إنه يحدث أحياناً أن يتعدى قسم على اختصاص قسم آخر، وقد أتتك اليوم بالذات إحدى هذه الرسائل الزرقاء المشهورة، ورئيس العصابة يريدها، وهذا يريد منك أن تذهب إلى هامبستيد كي يتأكد أن المكان سيكون خالياً، وبينما تنتظر أنت في هامبستيد يفتش مكتبك وهو آمن مطمئنّ.

- ولكن ما الذي يحمله على الاعتقاد بأن الرسالة ستكون هنا؟ المفروض أن يظن أنها معي أو أنني أرسلتها.

- أرجو المعذرة يا سيدي. هذا ما لا يعرفه هو بالذات، ولا ريب أنه لاحظ أنك لست بلانت الحقيقي، ولكن لا يوجد ما يحمله على الاعتقاد بأنك أكثر من شخص بريء اشترى المكتب لحسابه الخاص، وفي هذه الحالة سيكون مصير الرسالة كمصير غيرها فتوضع في ملفّ خاص بها.

فصاحت توبنس قائلة: ولكن هذا صحيح.

- وسنتركه على اعتقاده هذا لنلقي القبض عليه الليلة متلبساً.

- أهذه خطتك إذن؟

- نعم، وهي فرصة لا تسنح غير مرة واحدة في العمر. إن الساعة الآن السادسة، ففي أية ساعة تغادر مكتبك عادة؟

- في الساعة السادسة.

- عليك أن تتصرف كما هي العادة إذن، وسنعود خلسة بعد ذلك بقليل، وإن كان من غير المعقول أن يأتوا قبل الحادية عشرة، ولكن لا يجب أن نخاطر بأن ندَعهم يفلتون منا. وألتمس المعذرة كي أُلقي نظرة حول المكان لأرى إن كان يوجد من يراقبه أم لا.

وخرج ديمتشرس وبدأ حديث حادّ بين تومي وتوبنس لبضع دقائق، وعندما بدأ الحديث يتحول إلى شجار تراجعت توبنس فجأة قائلة: اتفقنا، سأنصرف، سأعود إلى البيت وألزم الهدوء كطفلة صغيرة عاقلة في حين تلقي أنت القبض على اللصوص وتتناول الشراب مع رجال الشرطة. ولكن انتظر يا صديقي، فسوف أجازيك بالمثل لإبعادي هكذا.

وفي تلك اللحظة عاد ديمتشرس فقال: يبدو أن الجوّ خالٍ، ولكن الأفضل أن نتصرف طبيعياً، فسيتخلّون عن مراقبة البيت بمجرّد أن تغادر المكتب.

استدعت توبنس ألبرت وأمرته أن يغلق المكتب، ثم مضى الأربعة إلى مكان انتظار السيارات حيث يضع تومي سيارته، وجلست توبنس أمام عجلة القيادة وألبرت بجوارها، أما الرجلان الآخران فجلسا في المؤخرة. ولم تلبث أن وقفت السيارة أمام إشارة المرور، فنظرت توبنس من فوق كتفها ثم هزّت رأسها، فأسرع الرجلان بالهبوط واختلطا بالمارّة في حين انطلقت توبنس من جديد.

قال ديمتشرس مخاطباً تومي وهما يمشيان بخطوات واسعة في شارع هاليهام: من الفطنة أن ننتظر قليلاً قبل أن نعود. إن معك المفتاح طبعاً.

وعندما هزّ تومي رأسه بالإيجاب استطرد المفتش قائلاً: ما رأيك إذن في أن نتناول وجبة خفيفة؟ فما زال الوقت مبكراً ويوجد مطعم أمام البيت. سنجلس أمام النافذة كي نتمكّن من مراقبة المكتب.

* * *

أكلا بشهية كبيرة وهما يراقبان الشارع، واكتشف تومي أن المفتش ديمتشرس رقيق ظريف قضى الجزء الأكبر من حياته في اصطياد الجواسيس الدوليين، وفي هذا الصدد روى له قصصاً أثارت دهشته وإعجابه. وفي الساعة الثامنة قال ديمتشرس إن ساعة العمل قد حانت، ثم أردف قائلاً: يكاد الليل أن يدلهمّ، ويمكننا أن نعود إلى البيت الآن دون أن يرانا أحد.

وعبرا الشارع وأجالا البصر حولهما بحرص كبير ثم دلفا إلى البهو وصعدا الدرَج، ووضع تومي مفتاحه في القفل عندما سمع صفيراً خلفه، فقال يسأل ديمتشرس: لماذا تصْفِر؟

فأجابه المفتّش بدهشة: أنا لم أصْفِر، ظننت أنك أنت الذي صَفَرت.

- الواقع أن شخصاً...

ولكن تومي لم يزِد؛ فقد أمسكته قبضة حديدية من الخلف، وقبل أن يتمكّن من الصياح أحسّ بخرقة مبللة بالكلوروفورم توضع فوق أنفه، فحاول أن يتخلّص ولكن محاولته ضاعت سدى وبدأ يحس بالدوار واهتزت الأرض تحت قدميه وفقد وعيه.

عاد إلى صوابه وهو يشعر بالألم، ولكنه كان متمالكاً لكامل قواه العقلية، ولم يكُن تأثير المخدر إلا عابراً، ولكنه طال بحيث

تمكّن مهاجموه من تكميم فمه حتى لا يتمكن من الصياح. لقد وجد نفسه ملقى في ركن من مكتبه، وكان بالمكتب رجلان منهمكان في العمل حوله، وقد فتحا خزانات المكتب وراحا يبعثران ما فيها وهما يسبّان ويلعنان. قال أكبرهما بصوت أجش: أخشى أن نكون قد قلبنا المكتب أيها الرئيس دون فائدة.

فأجاب الآخر بغضب: يجب أن تكون في مكان ما، وما دامت ليست معه فلا بدّ أن تكون هنا.

والتفت إلى تومي وهو يتكلّم، وقد دهش تومي حين عرف فيه المفتش ديمتشرس، وأثارت دهشته دهشة المفتش المزعوم الذي قال: إذن فقد استردّ صاحبنا وعيه وأراه دهشاً بعض الشيء، ومع ذلك فقد كان الأمر سهلاً جداً. لقد اشتبهنا في أن شيئاً مريباً يحدث في مكتب بلانت الدولي، وأردت أن أتحقق إذا كان السيد بلانت الجديد جاسوساً أم لا، فأرسلت صديقي العزيز كارل بوير للاستكشاف، وكانت المعلومات التي صدرت إليه أن يبدو مريباً بأن يذكر قصة غريبة يختفي بعدها كي أظهر أنا على المسرح، وقد أكسبتني إشارتي إلى المفتش ماريوت ثقتك، أما الباقي فكان سهلاً.

ثم ضحك بارتياح ظاهر، وأراد تومي أن يعبّر عن رأيه ولكن الكمامة منعته من ذلك، وأراد كذلك أن يستخدم يديه وقدميه ولكنه رأى أنهم لم يهملوا هذه النقطة وأنهم أوثقوه وثاقاً محكماً. أذهله التغيير المفاجئ للرجل المنحني فوقه، فقد كان في شخصيته كمفتش من مفتشي اسكتلنديارد موحياً بالثقة، وكان يمكن أن يكون شخصاً إنكليزياً، ولكنه في تلك اللحظة بدا واضحاً على الرغم من تمكّنه من اللغة الإنكليزية أنه رجل أجنبيّ.

قال المفتش المزعوم يخاطب زميله: صديقي العزيز كومنجز، أخرج مطرقتك واقترب من السجين، فأنا سأرفع عنه كمامته. أما أنت يا سيد بلانت فاعلم أنه من الجنون أن تصيح طلباً للنجدة، ولكنني واثق أنك مقتنع تماماً بأنه لا فائدة من ذلك، فعلى الرغم من أنك لا تزال في عنفوان الشباب إلا أنك تتمتع بذكاء كبير بحيث تؤثر البقاء على قيد الحياة.

وبحركة مفاجئة فكّ الكمامة وارتدّ إلى الخلف، فحرّك تومي فكّيه اللذين يؤلمانه وأدار لسانه في فمه وابتلع ريقه من غير أن ينطق بكلمة. وقال ديمتشرس: أهنئك على حسن إدراكك. لا ريب أنك تدرك موقفك جيداً. أين الخطاب يا سيد بلانت؟

فأجاب تومي برفق: لا أدري يا صاحبي؛ فهو ليس معي. إنك تعرف ذلك على كل حال، ولو أنني كنت مكانك لظللت أبحث لأنه يسرّني أن أراك تلعب أنت وزميلك لعبة الاستخفاء.

فتجهّم وجه الغريب وقال: لا تكُن وقحاً يا سيد بلانت. هل ترى هذه الحقيبة المريعة؟ إن بها عدة كوجنز ومن بينها سائل الفيتربول. نعم، سائل الفيتربول وقضبان من الحديد إذا ما وُضعت فوق النار وحميت...

فهز تومي رأسه بأسى ثم قال: هذا خطأ في التشخيص. إننا لم نقدّر، أنا وتوبنس، هذه المغامرة حق قدرها، فهي ليست جديرة بالجاسوس الأعرج وإنما ببلدوغ دراموند، وأنت بالذات كارل بيترسون.

زمجر الآخر قائلاً: عمّ تتكلم؟

فتنهد تومي قائلاً: أرى أنك تجهل أشهر القصص البوليسية.

- أيها الغبي، هل تريد أن تردّ أم تفضّل أن أطلب من كوجنز إخراج أدواته؟

- لا تكُن متعجلاً هكذا. إنني مستعدّ لكل ما تريد، ولكن يجب أن أعرف ماذا تريد أولاً، فلا أظنك تعتقد أنني أرضى بالضرب أو الكيّ بالنار. إنني أكره التعذيب.

فرماه ديمتشرس بنظرة ازدراء ثم قال: يا إلهي! ما أشدّ جبن هؤلاء الإنكليز.

- بل قل إنهم يتميزون بالعقل والحكمة يا عزيزي. دع الفيتربول جانباً وقل لي ماذا تريد.

- أريد الخطاب.

- قلت لك إنه ليس معي.

- إننا نعرف ذلك ونعرف مع من هو. إنه مع الفتاة.

- لا ريب أنك على حق، ولا ريب أنها دسّته في حقيبتها عندما فاجأنا زميلك كارل.

- إذن فأنت لا تنكر، أنت عاقل جداً. إذن اكتب إلى تلك التوبنس (كما تدعوها) واطلب منها أن تأتي بالخطاب فوراً.

فبدأ تومي يقول: لا أستطيع أن...

قاطعه قائلاً بحنق: لا تستطيع؟ سنرى ذلك. كوجنز...

- رويدك، فإنك لم تتركني أتمّ قولي. لقد كنت أهمّ بأن أقول إنني لا أستطيع الكتابة إلا إذا حللت وثاقي، فأنا لست من هؤلاء الأفذاذ الذين يكتبون بأنوفهم أو بأقدامهم.

- إذن أنت مستعدّ لأن تكتب؟

- طبعاً. ألم أقُل لك ذلك؟ إنني أريد إرضاءك، ولا أشك أنك في مقابل هذا لن تؤذي توبنس، فإنها فتاة ظريفة جداً.

فأجاب ديمتشرس بصوت غير مقنع: كل ما أريده هو الخطاب.

وبإشارة منه فكّ كوجنز وثاق تومي، فقام هذا الأخير ببعض الحركات كي يسري الدم في عروقه ثم قال: هذا أفضل. هل يتكرم كوجنز الظريف فيعطيني قلمي؟ إنه فوق المائدة ضمن ما كان في جيوبي.

وأعطاه كوجنز القلم وورقة على مضض، ثم قال ديمتشرس: حذارِ وأنت تكتب. إننا سنتركك تختار كلماتك، ولكن تذكر أن الفشل معناه الموت، والموت البطيء.

- ما دام الأمر كذلك فسأبذل جهدي.

وفكر لحظة ثم كتب ما يلي: «عزيزتي توبنس، هل يمكنك الحضور إلى مكتبي فوراً ومعك الخطاب؟ يجب أن نفكّ رموزه حالاً. أسرعي بالحضور. فرنسيس».

ورفع المفتش المزعوم حاجبيه وقال: فرنسيس؟ أهكذا كانت تدعوك منذ لحظة؟

- طبعاً، وعلبة لفافات التبغ التي أخذتها من جيبي أصدق دليل على ذلك.

فأخذ الرجل علبة لفافات التبغ من فوق المكتب وقرأ الكلمات المحفورة عليها وابتسم ثم قال: يسرّني أن أراك تتصرف

بعين العقل. كوجنز، سلّم هذه الرسالة لفاسيلي الذي يقف أمام الباب لحراسته وليمضِ بها فوراً.

مضت الدقائق العشرون التي تلت ببطء والعشر التي تلتها بعد ذلك ببطء أشدّ، وكان ديمتشرس يمشي جيئة وذهاباً وقد تغيرت أساريره، ثم التفت إلى تومي وقال متوعداً: إذا كنت قد جُننت وخدعتنا...

ولكن تومي قاطعه قائلاً بتؤدة: لو أن لدينا أوراق لعب لانقضى الوقت سريعاً. أرجو أن لا تؤذي توبنس الصغيرة عندما تأتي.

- سندبر الأمر كي ترحلا معاً.

- أيها الوغد!

وفجأة صدرت حركة في غرفة الاستقبال، فأطلّ رجل برأسه ونطق ببضع كلمات باللغة الروسية، فقال ديمتشرس: حسناً، إنها قادمة وحدها.

فأحسّ الأسير بشيء من القلق، وما هي إلا لحظة حتى سمع توبنس تقول: أهذا أنت أيها المفتش؟ لقد أحضرت الخطاب، فأين فرنسيس؟

ودلفت إلى الغرفة وهي تنطق بالكلمات الأخيرة، فهجم فاسيلي عليها وأطبق بيده على فمها في حين انتزع ديمتشرس حقيبتها من يدها وقلب محتوياتها بانفعال، ثم لم يلبث أن أطلق صيحة فرح ولاح بمظروف أزرق عليه طابع روسي، وأبدى كوجنز ارتياحه بصرخة خشنة. وفجأة وفي وسط ذلك الانتصار فُتح الباب الآخر الذي يفضي إلى غرفة توبنس ودخل منه المفتش ماريوت

وبرفقته رجلان من رجاله شاهرين مسدساتهم، وصاح ماريوت قائلاً: ارفعوا أيديكم.

ولم تقع معركة؛ فقد أُخذ اللصوص على غرّة فلم يُبدِ أي منهم أية مقاومة، وكان مسدس ديمتشرس على المكتب وزميلاه لا يحملان سلاحاً. وقال المفتش ماريوت وهو يغلق آخر زوج من الأصفاد: صيد جميل، وأظن أننا سنحظى فيما بعد بصيد أجمل.

فنظر ديمتشرس إلى توبنس وهو يغلي من الغضب ثم قال: أيتها الحقيرة! أنت التي جئتِ بهم.

فقهقهت الفتاة ثم قالت: الفضل في هذا ليس لي وحدي، وأعترف أنه كان يجب أن أشكّ في أمرك قبل ذلك عندما نطقت بالرقم ١٦ بعد ظهر اليوم، ولكن رسالة تومي هي التي حملتني على العمل لأنني اتصلت بالمفتش ماريوت على الفور ثم بألبرت، ومع هذا الأخير مفاتيح المكتب، وأتيت أنا أولاً ومعي المظروف الأزرق، أما الرسالة نفسها فقد بعثت بها إلى المسؤولين بعد أن أنزلتكما -أنت وتومي- في شارع أُكسفورد.

كلمة واحدة هي التي جذبت اهتمام المفتش المزعوم فصاح قائلاً بدهشة: تومي؟!

وكان هذا الأخير قد تخلّص من قيوده، فاقترب من الجماعة وشدّ على يد توبنس قائلاً: عمل طيّب يا فرنسيس.

ثم تحوّل إلى المفتش المزعوم وقال: قلت لك يا صديقي إنه كان يجب أن تقرأ أشهر الروايات البوليسية.

* * *

-٥-

لغز الآس البستوني

في أصيل يوم رطب ألقت توبنس جريدة الديلي ليدر من يدها وقالت وهي تفكر: هل تعرف في أي شيء أفكر يا تومي؟

فأجاب زوجها مزمجراً: لا أستطيع أن أخمن لأنك تفكرين في أشياء كثيرة في وقت واحد.

- كنت أفكر أن الوقت قد حان لكي نذهب في سهرة.

فالتقط تومي الجريدة على الفور وقال وهو يهزّ رأسه: إن لإعلانك تأثيراً طيّباً. هل تدركين يا توبنس أنك أنت وحدك التي تقومين بالبحث والتحرّي في مكتب بلانت الدولي؟ إن المجد يرجع إليك أنت.

- ولكنني كنت أتحدث عن السهرات.

- لقد لاحظت شيئاً غريباً في الجرائد، ولست أدري إن كنتِ قد لاحظته أنت أيضاً. خذي هذه النسخ الثلاث لجريدة الديلي ليدر وقولي لي ما الذي يختلف فيها.

قارنت توبنس بين العناوين الثلاثة بفضول، وأخيراً قالت بشيء من الازدراء: إن الأمر سهل جداً، فإن إحداها نسخة اليوم

والثانية نسخة أمس والثالثة نسخة أول أمس.

- هذا يدل على ذكاء كبير يا عزيزتي، ولكنني لم أعنِ هذا. انظري إلى العناوين عن قرب وقارني بينها جيداً. ماذا تلاحظين؟

- أنا واثقة أنه لا يوجد أي اختلاف.

فتنهّد تومي وضمّ يديه على طريقة شيرلوك هولمز المعروفة ثم قال: ربما، ومع ذلك فأنت تقرئين الجرائد مثلي، غير أنني ألاحظ ولا أكتفي بالقراءة مثلك. إذا أردت أن تنظري إلى عنوان نسخة اليوم فستجدين داخل حرف الدال نقطة بيضاء وكذلك في حرف اللام من كلمة الديلي، ولكن في نسخة أمس توجد هاتان النقطتان في حرف الدال واللام من كلمة ليدر، وفي عدد أمس الأول توجد النقطتان معاً في حرف الدال من كلمة الديلي، وبهذا نرى أن هذه العلامات تُطبَع بطريقة مختلفة كل يوم.

- ولماذا؟

- هذا سرّ صحفيّ.

- أتعني أنك لا تعرف لماذا ولا تستطيع أن تعرف؟

- كل ما أعرفه أن هذا عمل مشترَك بين كل الجرائد.

- ما أذكاك، خصوصاً عندما تريد تغيير الحديث! لنعُد إلى ما كنا نتحدث عنه.

- وعمّ كنا نتحدث؟

- عن السهرات.

فقال تومي محتجاً: لا يا توبنس، أرجوك. لا وقت لدينا.

فتمتمت قائلة: عندما كنت فتاة صغيرة بريئة كانوا يقولون لي

إن الرجال، وعلى الخصوص الأزواج، يحبّون السهر ولا يأوون إلى فُرشهم إلا في وقت متأخر من الليل، وإنه لا يمكن إلا لامرأة جميلة جداً وذكية جداً أن تحملهم على البقاء في البيت. ولكن هذا وهم؛ فإن كل النساء اللاتي أعرفهن يحلمن بالخروج ويتحسّرن لأن أزواجهن يفضّلون البقاء في البيت والنوم مبكّرين!

- إذن انت تريدين أن نذهب إلى سهرة خارجية هذه الليلة؟

- الحق أنني لا أريد الذهاب إلى هذا الحفل حباً في السهرة فحسب، ولكن لأن هذا الإعلان يثير دهشتي.

ثم أخذت الجريدة فقرأت: «أريد أن ألعب في ٣ كوبة واثنَي عشر دوراً. الآس البستوني وأورّط الملك إذا كان لا بدّ من ذلك».

- إنها طريقة باهظة كي يتعلّم المرء لعبة البريدج.

- لا تكُن غبياً. ليس لهذا دخل بالبريدج، والواقع أنه حدث أنني تناولت الغداء أمس مع صديقة لي في «الآس البستوني»، وهو مكان غريب في شلسي، وقد أخبرتني صديقتي بأن رجال المسرح يذهبون إلى ذلك المطعم ليلاً لتناول طبق من العجّة وفطيرة بالجبن، وفي ذلك المطعم غُرف صغيرة خاصة، ومن رأيي أنه مكان غير لائق.

- وماذا تعتقدين أيضاً؟

- «٣ كوبة» معناها الرقصات الثلاث غداً مساءً، و«اثنَي عشر دوراً» أي الساعة الثانية، و«الآس البستوني» معناه مطعم الآس البستوني.

- وما معنى توريط الملك؟

- الواقع أن هذا هو ما أريد اكتشافه.

- لا يدهشني أن تكوني على حق، ولكنني لا أرى سبب إصرارك على التدخل في غراميات الغير.

- لن أتدخل، ولكنني أفكر فقط في القيام بتجرِبة هامة بصفتي مخبرة، فنحن بحاجة إلى تمرين.

- الواقع أن القضايا قليلة في هذه الأيام، ولكن هذا لا يمنع أن غرضنا الحقيقي هو الذهاب إلى الحفل الراقص.

- طبعاً، ولك أن تعتمد عليّ؛ فإن لديّ فكرة رائعة.

* * *

عندما عاد تومي إلى البيت في مساء اليوم التالي اندفعت توبنس خارجة من غرفتها وابتدرته قائلة: لقد جاءت.

- من هي؟

- ثياب التنكّر. تعالَ معي.

ومضى تومي معها فرأى فوق الفراش ثوباً كاملاً مما يلبسه رجال المطافئ وبجواره خوذة لامعة، فقال: يا إلهي! هل تطوّعت في فرقة المطافئ دون أن أعلم؟

- ألم تفهم بعد؟ حرّك خلايا مخّك يا صديقي، استعمل ذكاءك يا واطسون.

- انتظري. لقد بدأت أفهم، فإن كل هذا يخفي دافعاً مبهماً. وماذا تلبسين أنت يا توبنس؟

- إحدى ثيابك القديمة وقبعة أمريكية ونظارة كبيرة.

– الوصف غير كامل تماماً ولكنني أفهم. أنتِ ماك كارتي متنكّراً وأنا ريوردان.

– تماماً. لقد رأيت أنه يجب أن نمارس الأسلوب الأمريكي كما مارسنا الأسلوب الإنكليزي، وقد خطر لي أن أقوم بدور البطل مرة وأن تكون أنت مساعدي المتواضع.

– ولكن لا تنسَي أن ملاحظة بريئة من ريوردان هي التي تهدي ماك كارتي إلى الأثر الحقيقي.

ولكن توبنس لم تردّ واكتفت بأن ضحكت، فقد كانت في حالة ذهنية تشعرها بالسعادة.

* * *

كانت الليلة ناجحة، فالحاضرون والموسيقى والأزياء العجيبة، كل شيء تآمر على افتتان الزوجين إلى حدّ أن تومي نسي دوره كزوج خرج رغماً عنه ونسي ضجره. وقبل منتصف الليل بعشر دقائق استقلا عربة ذهبت بهما إلى مطعم الآس البستوني السيئ السمعة، وكما قالت توبنس كان مكاناً غير لائق تحت الأرض غريب المظهر يغصّ بالراقصين وتصطفّ بجانبَي الصالة غرف صغيرة احتلّ الزوجان غرفة منها وتركا بابها مواراباً لمراقبة ما يدور في الصالة.

قالت توبنس: إنني أتساءل، من هما الراقصان اللذان يهمّنا أمرهما؟ ما رأيك في الحمامة الزرقاء التي يرافقها هذا الشيطان الأحمر؟

– إنني أفضّل ذلك القرصان وتلك السيدة التي تحاول أن تبدو كالبارجة.

- ما أظرفه! ولكن مَن تلك السيدة المتنكّرة في صورة البنت الكوبية؟ إنه ثوب مدهش.

ودخلت السيدة المذكورة في الغرفة المجاورة لغرفتهما يتبعها زميلها وهو متنكّر في ثياب من ورق الجرائد كتلك الثياب التي جاء ذكرها في قصة «أليس في بلاد العجائب»، وكان كل منهما يضع على وجهه ذلك القناع المألوف الذي يستعمله روّاد مطعم الآس البستوني.

صدرت من الغرفة المجاورة صرخة باهتة غطت عليها ضحكة رجل عالية، وكان الجميع يضحكون ويغنون وأصوات النساء العالية تختلف عن أصوات زملائهن من الرجال، ثم صاحت توبنس قائلة: أرأيت هذه الراعية؟ تلك التي ترافق الفرنسي المضحك. لعلهما هما اللذان يهمّنا أمرهما.

- ولعلهما وجهان آخران. مهما يكُن فليس في نيّتي أن أزعج نفسي بهذا الأمر، فالمهم هو أن نقضي وقتاً طيباً.

فقالت توبنس متذمرة: كان يمكن أن أقضي وقتاً أطيب بثياب أخرى، فإنني أضيق بهذه الثياب في هذا الجوّ الخانق.

- تشجّعي، إنك جميلة.

- شكراً، وأنت أظرف رجل رأيته في حياتي. إن السيد الذي يرتدي الجرائد يهجر صاحبته، فإلى أين تظن أنه ذاهب؟

- لعله ذاهب إلى المشرب ليعجّل بالطلبات. إنني أفكر في أن أحذو حذوه.

وقالت توبنس بعد بضع دقائق: لقد أبطأ. هل تظنني غبية يا تومي إذا أنا... وفجأة جفلت ثم استطردت قائلة: صفني بالغباء إذا

أردت، ولكنني ذاهبة إلى الغرفة المجاورة.

- ولكنك لا تستطيعين أن...

- أشعر بأنه يوجد شيء غريب. إنني واثقة من ذلك، فلا تحاول احتجازي.

وأسرعت خارجة فتبعها زوجها.

* * *

كان باب الغرفة المجاورة مغلقاً، ففتحته توبنس ووقفت جامدة الحركة على عتبته. كانت المرأة جالسة في ركن مستندة بظهرها إلى الحائط في صورة طبيعية، ولكن عينيها كانتا تحدقان من تحت القناع في الوافدَين الجديدَين دون أن تتحرك، وبدا أن الرسم الذي بجنبها الأيسر من ثوبها الأحمر والأبيض قد نضح وأن الأحمر سال فوق الأبيض.

صرخت توبنس ومدّت عنقها إلى الأمام، وفي نفس اللحظة رأى تومي ما رأته توبنس، رأى قبضة خنجر استقرّ تحت القلب مباشرة.

جثت توبنس على ركبتيها بجوار المرأة وقالت: أسرع يا تومي، فهي ما زالت تتنفس. ابحث عن المدير وقل له أن يأتي بطبيب.

- حسناً، ولكن حذارِ من أن تلمسي مقبض هذا الخنجر.

- لا تخَف، أسرع.

وخرج بيريسفورد وأغلق الباب خلفه، وأحاطت توبنس كتفَي المجهولة بذراعيها فأتت المرأة بحركة واهنة، وأدركت توبنس أنها

تريد أن تتخلّص من قناعها فنزعته عنها بحذر، فرأت وجهاً غضاً كبرعم زهرة به عينان جاحظتان يرتسم فيهما الرعب والألم ونوع من الذهول الشديد، فقالت توبنس برفق: هل تستطيعين أن تتكلمي يا صديقتي؟ هل يمكنك أن تقولي مَن فعل هذا؟

أحسّت توبنس بعينَي المصابة تحدقان إليها، وتنفست المرأة وكان نفَساً طويلاً لقلب ينتهي من جولته الأخيرة، ومع ذلك فقد استمرّت تحدق إلى توبنس ثم همست بمشقّة قائلة: إنه بنغو.

ثم ارتخت يدها وتكوّمت عند كتف جارتها، وفي تلك اللحظة أقبل تومي ومعه رجلان، ثم تقدم أكبرهما بصرامة وكان واضحاً أنه طبيب، فتخلّت توبنس عن حملها وقالت بارتباك: أظن أنها ماتت.

فقام الطبيب بفحص سريع ثم اعتدل وقال: لا فائدة. من الأفضل أن نترك كل شيء كما هو إلى أن يأتي رجال الشرطة. كيف حدث هذا؟

روَت له توبنس ما حدث بصوت متقطع، وأغفلت عن ذكر الأسباب التي حملتها على دخول الغرفة، فقال الطبيب: هذه قصة غريبة. ألم تسمعي شيئاً؟

- سمعتها تصرخ، ولكن الرجل ضحك في نفس الوقت، ولم يخطر لي بالطبع...

فقال الطبيب مشجّعاً: بالطبع. أتقولين إن الرجل كان يلبس قناعاً؟ هل تعرفينه إذا رأيته؟

- لا أظن ذلك.

- ولا أنت يا تومي؟

- لا، ولكننا نعرف الثوب الذي تنكّر فيه.

فعاد الطبيب يقول: إن أول شيء يجب أن نفعله هو معرفة شخصية تلك المرأة المسكينة، وبعد ذلك... حسناً، أظن أن الشرطة سيكشفون الحقيقة سريعاً، فهذه قضية يبدو لي أنه لن يتعذر حلّها. ها هم قادمون.

* * *

كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة صباحاً عندما عاد الزوجان إلى بيتهما في حالة قصوى من التعب والأسى، ولم تجد توبنس سبيلاً إلى النوم إلا بعد وقت طويل، فقد كانت لا تنفكّ ترى الوجه الغض ذا العينين الحافلتين بالرعب والفزع.

تسللت تباشير الفجر من خلال النافذة عندما أغمضت عينيها أخيراً وراحت في نوم عميق لا تتخلله الأحلام، وعندما استيقظت كان النهار قد طلع منذ مدة طويلة، وكان تومي منحنياً فوقها يهزّها برفق وهو يقول: استيقظي يا حبيبتي. إن المفتش ماريوت هنا ومعه رجل يريد أن يراك.

- كم الساعة الآن؟

- تقترب من الحادية عشرة. سأطلب من أليِس أن تعدّ لك كوباً من الشاي.

- شكراً لك. قل للمفتش إنني سأهبط بعد عشر دقائق.

وبعد ربع ساعة دخلت توبنس غرفة الاستقبال بوقار وخيلاء، فنهض ماريوت لتحيتها قائلاً: صباح الخير يا سيدة بيريسفورد. اسمحي لي أن أقدّم لك السير آرثر مريفال.

صافحت المرأة الشابة الرجل، وكان طويل القامة نحيل الجسم ساهم العينين وقد وخط المشيب شعر صدغيه، ثم قال ماريوت: لقد أتينا بسبب تلك الحادثة التي وقع الليلة الماضية، وأريد أن تعيدي على سمع السير آرثر الكلمات التي نطقت بها تلك المرأة المسكينة قبل أن تموت، فمن العسير إقناعه.

فقال آرثر: لا أستطيع أن أصدّق أن بنغو هيل قد خطر له أن يمسّ شعرة واحدة من رأس فيرا.

وقال ماريوت: لقد استطعنا أن نجلو بعض النقاط بسرعة. أول كل شيء هو أننا عرفنا شخصية المرأة القتيلة، فهي السيدة مريفال، وبعد ذلك اتصلنا بالسير آرثر الذي عرف زوجته وصعقه النبأ تقريباً، ثم سألناه إذا كان اسم بنغو مألوفاً لديه.

وواصل السير مريفال الحديث فقال: يجب أن تعرفي يا سيدة بيريسفورد أن الكابتن هيل معروف لكل أصدقائه باسم بنغو وأنه صديق حميم لي، بل إنه يعيش معنا تقريباً، وكان موجوداً في بيتي عندما أقبل رجال الشرطة وألقوا القبض عليه صباح اليوم، ولا يسعني إلا أن أفكر أنك أخطأت بكل تأكيد وأن زوجتي لم تنطق باسمه.

وقالت توبنس برفق: لا يوجد أيّ خطأ، فقد قالت إنه بنغو الذي فعل ذلك.

فصاح ماريوت قائلاً: أسمعت؟

فتهالك الرجل المسكين فوق أحد المقاعد ودفن وجهه بين يديه وهو يئنّ قائلاً: هذا غير معقول. ما الذي دفعه إلى ذلك؟ إنني أعرف أنكم تحسبون أن هيل كان عشيقاً لزوجتي، ولكن حتى إذا

صحّ هذا، وهو ما أستبعده، فلا أرى سبباً يدعوه إلى قتلها.

وتنحنح المفتش ثم قال: إن النظرية التي سأذكرها لك ليست سارّة، فأرجو أن تغفر لي مسبقاً. إن الكابتن هيل اهتم كثيراً في الأيام الأخيرة بفتاة أمريكية تملك ثروة طائلة، ولا ريب أن السيدة مريفال ساءها ذلك فأرادت أن تحول بينهما.

- هذه إهانة أيها المفتش.

وهبّ مريفال غاضباً ولكن المفتّش أسكته قائلاً: أرجو أن تغفر لي. لقد ذكرت لي أنه كان في نيتكما أنت والكابتن حضور ذلك الحفل الراقص، وأنك كنت تعتقد أن زوجتك ذاهبة لزيارة إحدى صديقاتها، ولم تشكّ قط أنها كانت موجودة في هذا الحفل هي الأخرى.

- بالفعل.

- أرينا هذا الإعلان الذي أشرت إليه يا سيدة بيريسفورد.

فناولته توبنس الإعلان ثم استطرد ماريوت قائلاً: إن الأمر واضح، فقد نشر الكابتن هذا الإعلان ليجذب اهتمام زوجتك، وكانا قد اتفقا قبل ذلك على اللقاء في هذا الحفل، ومن ناحيتك أنت قرّرت حضور الحفل أمس فقط وعندئذ رأت زوجتك أن تحترس، وهذا هو معنى عبارة «توريط الملك إذا كان لا بدّ من ذلك». وقد استعرت أنت ثياباً تنكّرية من شركة مسرحية في حين كان أمام الكابتن الوقت الكافي لتصميم ثيابه، وهي عبارة عن جرائد حِيك بعضها ببعض، وقد عثرنا في يد المرأة القتيلة على ورق الجرائد، فأصدرت تعليماتي إلى رجالي ليبحثوا عن ثياب الكابتن التي تركتها عندك، وسأجدها عن عودتي إلى اسكتلنديارد، وإذا

رأيت أنه ينقصها قطعة وتطابقت تلك القطعة مع القطعة الناقصة فسيكون في هذا نهاية القضية.

- لن تجدوا شيئاً من هذا القبيل، فإنني أعرف بنغو هيل.

وانصرف الرجلان بعد أن اعتذرا لتوبنس عن إزعاجها.

* * *

في وقت متأخر من تلك الليلة دهش الزوجان عندما زارهما المفتش ماريوت، وقال هذا الأخير: لقد خطر لي أن مخبري مكتب بلانت الدولي يهمهما معرفة آخر تطورات القضية.

فقال تومي: طبعاً، ولكن هل تتناول شيئاً؟

وناول كأساً من العصير للمفتش الذي قال: باختصار هي قضية سهلة جداً. لقد كان الخنجر ملكاً للقتيلة، وقد عمل القاتل على أن تبدو الجريمة كما لو كانت انتحاراً، ولكن خطته قد فشلت بفضلكما. لقد عثرنا على مجموعة كبيرة من الرسائل، ولا يوجد أدنى شك في أن السيدة مريفال وهيل كانت تربطهما علاقة آثمة منذ مدة طويلة، ولم يكُن السير آرثر يشكّ في ذلك، ثم إننا اكتشفنا الحلقة الأخيرة.

قالت توبنس بحدّة: الحلقة الأخيرة؟ ماذا تعني؟

- أعني قصاصة الديلي ليدر التي عثرنا عليها في يد السيدة مريفال. لقد تطابقت تماماً مع القطعة الناقصة من الثياب التي كان هيل يرتديها. نعم، إن هذه القضية سهلة جداً، وقد أتيتكما بصورة لدليلَي الإثبات، فقد خطر لي أنه قد يهمّكما أن تُلقيا نظرة عليها. من النادر أن نجد قضية بمثل هذه السهولة.

* * *

قالت توبنس عندما عاد تومي بعد أن شيّع المفتش إلى الخارج: تومي، لماذا راح المفتش يكرّر دون انقطاع أن هذه القضية سهلة جداً؟

- لا أدري، لعله ارتياح شخصيّ.

- لا، لقد كان يحاول إثارة اهتمامنا. انظر إلى الجزّارين مثلاً، فهم يعرفون كل شيء عن اللحم.

- أظن ذلك، ولكن...

- وبائعو الفاكهة أيضاً يعرفون كل شيء عن الفواكه، وكذلك السمّاكون يعرفون كل شيء عن السمك، والمخبرون، أعني رجال الشرطة الرسميين، يجب أن يعرفوا كل شيء عن المجرمين. إنهم يستبينون المشبوه ويشتبهون في القاتل الحقيقي، وتجربة ماريوت توحي إليه بأن الكابتن هيل ليس مجرماً على الرغم من أن كل شيء يدينه، وعليه فإن المفتش يزعجنا على أمل أن تعود إلى أذهاننا نقطة ربما كنا قد غفلنا عنها، نقطة قد تسمح له بأن يجري وراء أثر آخر. ولكن لماذا لا تكون السيدة مريفال قد انتحرت يا تومي؟

- تذكّري الكلمات التي نطقت بها قبل أن تموت.

- أعرف، ولكن حاول أن تنظر إلى الأمور من ناحية أخرى. إن بنغو سبب كل شيء، أو بقول أدقّ إن مسلك بنغو هو السبب في كل شيء، وعندما تملّكها اليأس انتحرت. إن هذا جائز.

- أجل، ولكن الانتحار لا ينثر قصاصة الورق التي كانت في يدها.

- لنرَ الصورتين اللتين تركهما المفتش ماريوت. لقد نسيت أن أسأله عن أقوال هيل دفاعاً عن نفسه.

- لقد سألته وأنا أشيّعه حتى الباب وعرفت أن هيل يؤكد أنه لم يخاطب السيدة مريفال بأية كلمة في ذلك الحفل، ويدّعي أن شخصاً ما دسّ في يده ورقة كُتِب فيها: «لا تحاول أن تكلّمني الليلة لأن آرثر يشتبه في الأمر». ولكنه لم يستطع إظهار تلك الورقة، وهذا ما يجعل قصته تبدو غير معقولة. ومهما يكُن فإننا نعلم، أنا وأنت، أنه كان معها لأننا رأيناه.

فهزّت توبنس رأسها وانحنت فوق الصورتين. كانت إحداهما تمثل قصاصة من جريدة الديلي ليدر والأخرى أول صفحة من الجريدة المذكورة وبها جزء مقطوع من عنوانها، وكان واضحاً أن القطعتين تتطابقان تماماً.

وقال تومي: ما هذه العلامات التي في هذا الجانب؟

- ثقوب إبرة، حيث تمت الحياكة.

- لقد حسبتها طريقة أخرى.

ثم أردف يقول مرتجفاً: عندما أفكر يا توبنس أننا كنا ندرس هذه النقاط بالذات ونحاول أن نخمّن معنى هذا الإعلان...

وأدهشه صمت زميلته فالتفت إليها، فازدادت دهشته عندما رأى نظرتها الثابتة وقال: توبنس!

وهزّها من ذراعها قائلاً: ما الأمر؟ هل ستصابين بسكتة أم ماذا؟

فقالت توبنس بصوت كأنه آتٍ من بعيد ومن غير أن تتحرّك: دنيس ريوردان.

- حسناً، وما شأن دنيس ريوردان؟

– تماماً كما قلت أنت يا تومي، إشارة بريئة بسيطة ويترابط كل شيء. ابحث لي عن نُسخ هذا الأسبوع من جريدة الديلي ليدر.

– ماذا تدبّرين؟

– لقد قدحت زناد فكري، وقد خطرت لي فكرة بفضلك أنت. إن الصورة التي أعطاها لنا ماريوت تمثل عنوان الجريدة الخاص بيوم الثلاثاء، وأذكر أن عدد ذلك اليوم كان به نقطتان في حرف اللام من كلمة ليدر. أحضر لي الجرائد كي نتأكد من ذلك.

وانهمكا في العمل بحماسة كبيرة، وظهر أن توبنس كانت على حق فقالت: أرأيت؟ إن هذه القصاصة لم تُنتزع من جريدة يوم الثلاثاء.

– ولكن لا يمكن أن نتأكد من ذلك يا توبنس، فمن الجائز أنها طبعة أخرى.

– هذا جائز طبعاً، ولكن لو أنني على حق فإن النتيجة تتضح لنا، أليس كذلك؟ تكلّم مع السير مريفال في الهاتف وقل له أن يأتي فوراً لأن لديّ نبأً هاماً أريد أن أخبره به، ثم اتصل بماريوت بعد ذلك، وإذا لم يكُن في اسكتلنديارد فسيعرفون أين يجدونه.

وبعد نصف ساعة أقبل السير مريفال بادي الحيرة، فتقدّمت توبنس لاستقباله قائلة: أرجو المعذرة لاستدعائنا لك بمثل هذه الصورة الإجبارية، ولكنني اكتشفت أنا وزوجي شيئاً يجب أن تعرفه حالاً، فإننا نعرف أنك تريد أن تبرئ صديقك.

هزّ السير آرثر رأسه بأسى وقال: أجل، ولكن يجب أن أقتنع بالأمر الواقع، ومع الأسف فهو يدينه.

- ماذا تقول إذا اعترفت لك أن المصادفة المحضة وضعت بين أيدينا الدليل على براءته؟

- سيسرّني ذلك جداً يا سيدة بيريسفورد.

- لنفرض أنني التقيت بفتاة كانت ترقص في منتصف الليل من الليلة الماضية مع الكابتن هيل في نفس الساعة التي يُقال فيها إنه كان فيها مع زوجتك...

- مدهش. كنت أعلم أن رجال الشرطة لا بدّ أن يكونوا قد أخطؤوا، ومعنى هذا أن فيرا المسكينة قد انتحرت.

- لا، لقد نسيت الرجل الآخر.

- أيّ رجل آخر؟

- ذلك الذي رأيته أنا وزوجي يغادر الحجرة. الواقع يا سير آرثر أنه لا بدّ من وجود رجل آخر متنكّر في ثياب من الجرائد. بالمناسبة، ماذا كنت ترتدي أنت؟

- أنا؟ لقد كنت أرتدي زيّ جلاد من جلادي القرن السابع عشر.

- تماماً، الزيّ المناسب.

- المناسب؟ ماذا تعنين؟

- المناسب للدور الذي قمت أنت به. هل تريد أن تعرف فيمَ أفكر يا سير آرثر؟ إن من السهل لبس ثياب من الورق فوق زيّ الجلاد، وقبل ذلك دسّ بعضهم ورقة في يد هيل تحذّره بأن لا يقترب من سيدة معيّنة، ولكن السيدة المذكورة كانت تجهل كل شيء عن تلك الورقة، وفي الوقت المحدّد ذهبَت إلى ملهى

الآس البستوني والتقت فيه بالرجل المتنكّر الذي تواعدت معه، ثم ذهبت معه إلى غرفة خاصة بالملهى. وعندئذ أتصور أنه أخذها بين ذراعيه وضمّها إليه وطعنها في نفس الوقت، وقد أطلقت صرخة قصيرة ردّ الرجل عليها بضحكة عالية، ثم هرب بعد ذلك تاركاً المحتضرة فريسة للرعب لأنها كانت مقتنعة بأن عشيقها هو الذي طعنها، ولكن من سوء حظه أن القتيلة انتزعت قطعة من الثياب الورقية، وقد أدرك القاتل ذلك لأنه يهتمّ بأدق التفصيلات ويعرف أنه لإدانة هيل لا بدّ أن ينتزع قطعة من ثياب هذا الأخير بحيث تبدو كالقطعة التي انتزعها من سترته هو، وهي خطة من الصعب تحقيقها ما لم يكُن الرجلان يقيمان في مكان واحد، أليس كذلك؟ ولهذا وجد القاتل كل الوقت الكافي ليقطع قطعة مماثلة من ثياب غريمه ثم يحرق ثيابه هو بعد ذلك ويستعدّ كي يقوم بدور الصديق المخلص. ما رأيك في هذه القصة يا سير آرثر؟

انحنى مريفال برفق قائلاً: إن لك خيالاً خصباً يدلّ على أنك تقرئين روايات كثيرة يا سيدتي.

وعندئذ تدخّل تومي وقال: هل تعتقد ذلك؟

ونظر السير آرثر إليه طويلاً ثم قال: ولك زوج من السهل إقناعه، ولا أظن أنكما ستجدان أناساً من السذاجة بحيث يصدّقون قصتكما هذه.

ثم قهقه ضاحكاً فتوترت توبنس وقالت: هذه هي الضحكة، إنني أعرفها من بين ألفّ ضحكة؛ فقد سمعتها في الآس البستوني. اسمح لي أن أقول لك إن اسمنا قد التبس عليك. إننا نُدعى بيريسفورد حقاً، ولكن ليس هذا كل شيء.

ثم ناولته بطاقة قرأها بصوت مسموع قائلاً: مكتب بلانت

الدولي للأبحاث.

ثم هز كتفيه وقال: أهكذا؟ إنني أفهم الآن لماذا جاء بي ماريوت هنا صباح اليوم، هذا فخ. ثم دنا من النافذة وقال بشرود: إنكم تتمتعون بمنظر جميل.

فصاح تومي: أيها المفتش ماريوت!

واندفع المفتش خارجاً من غرفة مجاورة في حين ارتسمت ابتسامة صغيرة على شفتَي السير آرثر وقال: كنت أشك في ذلك، ولكنك لن تنالني أيها المفتش، فإنني أفضّل أن أخرج بطريقتي الخاصة.

واعتمد بيديه على حافة النافذة ووثب منها، فأطلقت توبنس صرخة حادة وأقفلت أذنيها بإصبعيها حتى لا تسمع صوت ارتطامه بالأرض، وأطلق ماريوت سبّة وقال: كان يجب أن نفكر في النافذة، وإن كنت أرى أنه لم يكُن من السهل إدانته بمثل هذا الدليل الواهي. يجب أن أهبط لأشرف على الإجراءات اللازمة.

وتمتم تومي قائلاً: يا للمسكين! لا ريب أنه كان يحبّ زوجته.

فزمجر ماريوت قائلاً: يحبّ زوجته؟ إنه لم يكُن يدري ماذا يفعل لكي يجد ما ينقصه من مال. لقد كانت السيدة مريفال تملك ثروة طائلة وكان يجب أن يرثها، ولكن إذا هجرته وهربت مع الكابتن هيل فإن الثروة تفلت من بين يديه.

- حقاً؟

- نعم. لقد شككت منذ البداية في مريفال واشتبهت في أنه وغد وأن هيل لا غبار عليه. إنك تعرف رجال اسكتلنديارد جيداً،

فهُم لا يزعجهم شيء مثلما تزعجهم الأدلة الدامغة. لو أنني كنت مكانك يا سيد بيريسفورد لأعطيت زوجتك كأساً من الليمون لأن هذه الأحداث قد أثرت عليها.

* * *

قالت توبنس يصوت أجش بعد أن انصرف المفتش الرزين: بائعو الفاكهة والجزارون والسمّاكون ورجال الشرطة. لقد كنت على حق، أليس كذلك؟ لقد كان يعرف.

وكان تومي منهمكاً في إعداد العصير، ثم اقترب منها وفي يده كأس كبير وقال: اشربي هذا.

- ما هذا؟ ليمون؟

- نعم. لقد كان ماريوت على حقّ على طول الخط، هكذا كان الموقف. لقد كان الملك في ورطة شديدة.

فهزّت توبنس رأسها موافقة ثم قالت: ولكنه أخطأ وحاول الخروج من ورطته بطريقة غير سليمة.

* * *

-٦-

لعبة الاستخفاء المميتة

قال تومي: اتفقنا.

ثم أعاد تومي السماعة مكانها والتفت إلى توبنس قائلاً: إن الرئيس خائف علينا، إذ يبدو أن العصابة التي يهمّنا أمرها اكتشفت أنني لست تيودور بلانت الحقيقي، ولهذا يجب أن نتوقع من لحظة إلى أخرى ضربة عنيفة. والرئيس يرجوك أن تعودي إلى البيت وأن لا تغادريه، فالظاهر أن الورطة التي وقعنا فيها أهمّ بكثير مما كان يعتقد.

- كل هذه التوصيات فيما يتعلق بي مضحكة، إذ من يهتمّ بك إذا لم أكُن معك؟ ثم إنني أحبّ الانفعالات، فإن القضايا لم تكُن مثيرة جداً في الأيام الأخيرة.

- ولكن لا يمكن أن تقع جرائم قتل أو أن تحدث سرقات كل يوم. كوني عاقلة يا توبنس، ومهما يكُن فقد سبق أن خطر لي أن نقوم ببعض التمرينات في البيت إذا ما اجتزنا أوقاتاً هادئة.

- كأن يتمدد كل منا على ظهره ويضرب الهواء بقدميه؟

- لا تفسّري كلماتي حرفياً. عندما قلت تمرينات إنما عنيت في

الفن البوليسي، كأن نعيد تمثيل شخصيات المؤلفين المشهورين، مثال ذلك...

وأخرج من دُرج مكتبه عصابة كبيرة خضراء ثبتها فوق عينيه بعناية كبيرة، ثم أخرج من جيبه ساعة وقال: لقد كسرت زجاجها اليوم تمهيداً لما أنا مقدِم عليه، فإن أصابعي من الحساسية بحيث يمكنني أن أعرف الوقت بمجرد اللمس.

- توخَّ الحذر، فإنك تكاد ترفع العقرب الصغير من مكانه.

- أعطيني يدك.

وأخذ معصمها وجسّ نبضها بإصبعه ثم استطرد قائلاً: النبضات عادية. إن هذه المرأة لا تشكو مرض القلب.

- أظن أنك تحاول أن تقلد تورنلي كولتون؟

- تماماً، إذن أنا المخبر وأنت شوز، السكرتيرة السمراء ذات الوجنتين اللتين بلون التفاح، وألبرت هو الفتى المشهور باسم جمبري، وترَين بجوار الحائط العصا المجوفة التي تخبر يدي الحساسة بأشياء كثيرة.

ثم نهض فتعثر في أحد المقاعد فصاح: آه، نسيت أن هذا المقعد موجود هنا.

- إن فقدان البصر شيء مخيف.

- طبعاً، وإنني أحزن من كل قلبي على هؤلاء المساكين الذين فقدوا حاسة البصر في أثناء الحرب، ولكن يبدو أن المعيشة في الظلام تنمّي بعض الحواس الأخرى، وهذه تجرِبة أنوي القيام بها، وإن المرء ليجد عزاءً كبيراً حقاً في أن يتعود على أن يكون

ذا نفع في الظلام. والآن يا توبنس قولي لي كم خطوة يجب أن أخطوها كي أصل إلى تلك العصا.

فأجابته توبنس بوقار قائلة: ثلاث خطوات إلى الأمام وخمس إلى اليسار.

فراح تومي يتقدّم بتردّد، وأوقفته زميلته بصرخة عندما رأت أن الخطوة الرابعة إلى اليسار ستجعله يصطدم بالحائط ثم قالت: لا يمكن أن يدري المرء إلى أيّ قدر يتعذر عليه تقدير المسافة.

- هذا أمر مهم جداً. استدعي ألبرت، وسأصافح كلاً منكما وأرى إن كنت أستطيع أن أتبيّن أيّ اختلاف أم لا.

- اتفقنا، ولكن يجب أن يغسل يديه أولاً لأنها لزجة جداً بسبب الحلوى التي يمتصها طَوال النهار.

اشترك ألبرت في اللعبة باهتمام كبير، وبعد أن فرغ تومي من تجرِبته ابتسم وقال: إن حاسّة اللمس لا يمكن أن تكذب. كان الأول هو ألبرت وأنت الثانية يا توبنس.

فصاحت زوجته تقول: حاسة اللمس لا تكذب؟ غير صحيح. لقد استرشدت بخاتم الزواج، وكنت قد خلعته ووضعته في إصبع ألبرت.

وتمت تجارِب أخرى مختلفة لم يكلّلها النجاح كثيراً، ثم قال تومي: إنني أتقدّم على كل حال، فلا يمكن أن ينجح المرء من أول وهلة، ولديّ فكرة. إننا الآن في ساعة الغداء، فما رأيك يا توبنس إذا نحن ذهبنا إلى مطعم بليتز؟ الأعمى وملاكه الحارس، وسوف أجد فرصاً كثيرة للقيام بما أريد من تجارِب.

- ولكننا سنلقى بعض المتاعب يا تومي.

- لا، سأتصرّف بكلّ حكمة، وأراهنك أننا لن نفرغ من الطعام حتى أكون قد أثرت دهشتك.

وبعد ربع ساعة كان الزوجان يجلسان بارتياح أمام مائدة منعزلة بالغرفة الذهبية بمطعم بليتز، ثم أقبل النادل فطلب تومي أن يأتيه بطبق من الأرز ومعه سمك مقلي، ثم تنهد قائلاً وهو يسمع النادل يبتعد: كل شيء على ما يرام حتى الآن.

وأكلا في صمت، ولكن لم يلبث تومي أن قال: إن الرجل الذي يجلس بعدنا بمائدتين رجل أكول، أليس كذلك؟

- نعم، ولا أدري كيف عرفت!

- لن أكشف لك طريقتي لأن هذا يفسد العرض. إن رئيس الخدم يقدم الشراب على بُعد ثلاث موائد منا إلى اليمين، وستمرّ أمامنا الآن امرأة بدينة ترتدي ثياباً سوداء.

- تومي! كيف تستطيع...؟

- هل بدأت تدركين قوّتي؟ إن فتاة جميلة ترتدي ثياباً بنّية اللون تنهض خلفنا تماماً.

- لقد أخطأت هذه المرة؛ إنه شابّ يرتدي ثياباً رمادية.

فبدت الحيرة على تومي، وفي تلك اللحظة بالذات نهض رجلان كانا يجلسان أمام مائدة لا تبعد عنهما كثيراً يراقبانهما منذ مدة طويلة فتقدّما نحوهما. كان أكبرهما سناً طويل القامة أنيق الثياب يلبس عدسة مفردة وله شارب صغير وخطه المشيب، وعندما اقترب منهما قال: معذرة، لقد قِيل لنا إنك أنت السيد تيودور بلانت، فهل هذا صحيح؟

فتردّد تومي وقد أحسّ بضعف مركزه، ثم هزّ رأسه أخيراً وقال: نعم، أنا السيد بلانت.

- يا للحظ العجيب! لقد كنت ذاهباً لتوّي إلى مكتبك. إنني أواجه متاعب، متاعب كبيرة، ولكن معذرة، هل أصبت بشيء ما في عينيك؟

قال تومي بأسى: إنني ضرير يا سيدي العزيز، ضرير تماماً.

- ماذا؟

- هل دهشت؟ ولكن لا ريب أنك سمعت أنه يوجد مخبرون سرّيون غير مبصرين.

- في الروايات فقط، ثم إنني لم أسمع أنك مصاب بهذه العاهة قط.

- يوجد أناس كثيرون لا يعلمون ذلك. إنني أضع اليوم قناعاً كي أقي عينَيّ من النور الصناعي، ولكن عينَيّ لا يمكن أن تؤثرا في آرائي. ولكن كفانا حديثاً عن مصائبي، هل تريد أن تذهب إلى مكتبي أم تؤثر أن تعرض عليّ قضيتك هنا؟ قد يكون الرأي الأخير هو الأفضل.

أحضر النادل مقعدين إضافيين فجلس الرجلان، وكان الرجل الذي لم ينطق بكلمة حتى تلك اللحظة قصيراً مربع القوام أسمر اللون. وقال زميله وهو يخفت من صوته: إن الأمر يتعلق بمسألة حساسة جداً.

وألقى نظرة متشككة إلى توبنس، وبدا كأن السيد بلانت فهم سبب تردّده لأنه قال: اسمح لي أن أقدم لك سكرتيرتي الآنسة

جانج. إنها بمثابة عينَيّ وتلازمني في كل مكان.

ألقى الرجل الغريب إلى الفتاة تحية رقيقة ثم قال: أستطيع إذن أن أتكلّم بحرّية. لقد اختُطفت ابنتي، وقد بلغت السادسة عشرة من عمرها، وأنا لم أكتشف اختطافها إلا منذ نصف ساعة فقط، والظروف التي اختُطفت فيها من الغرابة بحيث إنني لا أستطيع أن ألجأ إلى رجال الشرطة. لقد اتصلت بمكتبك فقيل لي إنك خرجت لتناول الغداء وإنك لن تعود قبل ساعتين ونصف، فأقبلت إلى هنا أنا وصديقي الكابتن هاركر.

ودمدم ذلك الصديق ببعض كلمات غير مفهومة ثم قال: ومن غريب المصادفات أننا نتناول الغداء في نفس المطعم! ويهمّنا الآن أن لا نضيع دقيقة واحدة. أرجو أن تتكرم بمرافقتي إلى بيتي حالاً.

فقال تومي: يمكن أن ألحق بك بعد نصف ساعة لأنه لا بدّ لي من المرور بمكتبي أولاً.

وفي تلك اللحظة التفت الكابتن هاركر وألقى نظرة إلى توبنس، وكانت قد ارتسمت على شفتَي هذه الأخيرة ابتسامة خفيفة لو أنه أدرك معناها لأثارت دهشته، وقال زميله: هذا مستحيل؛ فإننا لا نستطيع أن نضيع دقيقة واحدة.

ثم أخرج بطاقة من جيبه ناولها إلى تومي قائلاً: إليك بطاقتي.

فلمس هذا الأخير البطاقة بإصبعه وهو يقول: إن أصابعي ليست من الحساسية بحيث تستطيع القراءة.

ثم ناول البطاقة إلى توبنس فقرأت: «الدوق بليرغووري».

ثم رفعت عينيها إلى عميلها باهتمام؛ فقد كان الدوق بليرغووري شخصية مرموقة، وقد تزوج ابنة تاجر ماشية بشيكاغو، وكانت زوجته أصغر منه بكثير وحادة الطباع ويشاع أنهما على وشك الانفصال. عاد الدوق يقول وفي صوته رنة من القلق: هل ستأتي يا سيد بلانت؟

واضطُر تومي إلى أن يخضع للأمر الواقع فقال: سآتي معك أنا والآنسة جانج، ولكنني أحب أولاً أن أحتسي فنجاناً كبيراً من القهوة بلا سكّر؛ فإنني عرضة للصداع دائماً والقهوة هي الشيء الوحيد الذي يهدئ أعصابي، ولن يتطلب هذا منا وقتاً طويلاً.

ثم استدعى النادل فطلب منه أن يعدّ له فنجاناً كبيراً من القهوة، ثم تحوّل إلى زميلته قائلاً: آنسة جانج، إنني أساعد الشرطة الفرنسية في قضية هامة، وسأتناول الغداء في هذا المطعم غداً مع رئيس إدارة الأمن الفرنسية، وأرجو أن تتفاهمي مع رئيس الخدم بخصوص أصناف الطعام التي يجب أن يقدّمها لنا، ثم اطلبي منه أن يحتفظ لنا بمائدتنا المعهودة، واحرصي يا آنسة جانج على أن يكون الجمبري من بين أصناف الطعام؛ فإن رئيس إدارة الأمن يحبه كثيراً.

فنهضت توبنس وقالت: حسناً يا سيدي.

- قولي له أن يبدأ بتقديم الجمبري، ثم تولّي أنت بقية الأصناف.

وفكر لحظة ثم قال مخاطباً الدوق: أرجو أن تلتمس لي عذراً. وليكن بين الأصناف فطير بالبيض يا آنسة جانج. إن هذا الموظف الفرنسي رجل مهم جداً. لا ريب أنك تعرفه يا سيدي.

فأجاب الدوق بالنفي في حين مضت توبنس كي تصدر تعليماتها لرئيس الخدم، ثم جاء النادل بالقهوة في نفس الوقت الذي عادت فيه إلى مكانها. أخذ تومي يحتسي القهوة بجرعات صغيرة، وأخيراً نهض واقفاً وهو يقول: آنسة جانج، عصاي، أرشديني من فضلك.

ومرة أخرى أحسّت توبنس بقلق شديد وهي تقول: خطوة واحدة إلى اليمين وثماني عشرة خطوة إلى الأمام، وهناك عند الخطوة الخامسة نادل يقوم بخدمة مائدة على يسارك.

فهزّ تومي عصاه بغير اكتراث واتجه نحو الباب وتوبنس على عقبَيه تتأهب للتدخل كي ترشده عند اللزوم، ولكن كل شيء سار على ما يرام حتى بلغ تومي الباب، وقبل أن تتمكن توبنس من التدخل أقبل رجل مندفع من الخارج فاصطدم به، وصدرت الاستفسارات وعبارات الاعتذار.

كانت تقف أمام الرصيف عربة كبيرة فارهة، وتولى الدوق بنفسه مساعدة الضرير على الجلوس ثم قال من فوق كتفه: هل سيارتك معك يا هاركر؟

- نعم، في آخر الرصيف.

- خُذ الآنسة جانج معك إذن.

ثم جلس في مقعده أمام عجلة القيادة بجوار تومي، ولم تلبث العربة أن انطلقت بصمت، وبعد فترة قال: قضية حساسة جداً، يمكنني أن أعرض عليك كل التفصيلات في أثناء الطريق.

فأشار تومي إلى العصابة التي تغطي عينيه ثم قال: يمكنني الآن أن أرفع هذه، فلم أعُد تحت أضواء المطعم الشديدة.

ولكن ذراعه أُنزلت بقسوة وأحس بشيء يضغط جنبه في نفس الوقت، ثم قال الدوق وقد تغيّرت نبرات صوته فجأة: لا يا عزيزي بلانت، ستبقى هادئاً وعليك أن لا تتحرك. هل تفهم؟ لا أريد أن أستخدم مسدسي. أنا لست الدوق بليرغووري على الإطلاق، وإنما استعرت اسمه لهذه المناسبة فقط لأنني أعرف أنك لن ترفض مرافقة عميل رفيع المقام مثله. أنا رجل عاديّ، تاجر لحوم بسيط يبحث عن زوجته.

ثم أردف يقول وهو يرى فزع جاره: ألهذه الكلمات معنى لك؟ ثم ضحك وهو يستطرد قائلاً: لقد كنتَ متهوّراً جداً يا صديقي العزيز، وأخشى أن أقول لك إن نشاطك لا بدّ أن يتوقف في المستقبل القريب.

نطق بتلك الكلمات الأخيرة بسخرية مشؤومة، ولم يردّ تومي. ولم تلبث السيارة أن أبطأت ثم توقفت وقال: لحظة واحدة.

ووضع الرجل منديلاً في فم تومي وربط فوقه وشاحاً وهو يقول: هذا احتياط حتى لا يتملّكك الجنون وتحاول أن تصرخ طلباً للنجدة.

وفُتح الباب وكان السائق ينتظر، فساعد سيّده في إرشاد الأسير كي يصعد بعض درجات ثم انصفق باب خلفهم. واستقبلت الوافد الجديد رائحة عطر شرقيّ نفاذة وغاصت قدماه في سجادة سميكة، ثم أرغموه على صعود درجات أخرى، وبعد ذلك أُدخل إلى غرفة أدرك أنها تقع خلف البيت، ثم أوثقوا معصمَيه وانصرف السائق بعد ذلك. رفع الدوق المزعوم الكمامة عن فمه قائلاً: يمكنك أن تتكلّم الآن كما تريد. ماذا لديك من أنباء يا صاحبي؟

فتنحنح تومي وقام ببضع حركات بفكّه السفلي الذي كان

يؤلمه ثم قال: أرجو أن لا تكون قد أضعت عصاي المجوّفة. لقد صنعتها بطريقة خاصة كلّفتني مبلغاً جسيماً.

- يا لك من وقح، هذا إذا لم تكُن غبياً تماماً. ألا تفهم أنك في قبضة يدي وأنك تحت رحمتي تماماً وما من أحد سيجد أية فرصة في أن يراك بعد ذلك؟

- ألا يمكنك أن تتجنّب الأساليب المأساوية؟ هل يجب أن أصيح قائلاً: "أيها الشقي، إن باستطاعتي أن أخذلك"؟ إن مثل هذا الموقف قد عفا عليه الزمن.

- والفتاة، ألا يقلقك مصيرها؟

- إنني في أثناء الصمت الذي أجبرتني عليه وصلت إلى النتيجة الحتمية بأن هاركر الثرثار هو ضلع في المؤامرة، وأن سكرتيرتي المسكينة سوف تنضمّ إلينا قريباً.

- إنك على حق جزئياً، فإن السيدة بيريسفورد، وها أنت ترى أنني أعرف حقيقتك، لن يؤتى بها إلى هنا، وهذا احتياط بسيط اتخذته لأنه من المحتمل جداً أن أصدقاءك الذين يشغلون مناصب عالية يحمونكما، وإذا صحّ هذا فسوف يتعذر عليهم أن يتبعوا عربتين في وقت واحد، وبهذه الطريقة سأظلّ محتفظاً بواحد منكما، وأنا أنتظر الآن.

وفي تلك اللحظة فُتح الباب وقال السائق: لم يتبعك أحد يا سيدي، إن الطريق آمن.

- حسناً، يمكنك أن تنصرف يا غريغوري.

وأُغلق الباب ثم قال الرجل: كل شيء على ما يرام، والآن ماذا نفعل بك يا سيد بيريسفورد بلانت؟

- أريد أن ترفع هذا القناع اللعين عن عينَيّ.

- أظن أنني لا أستطيع أن ألبّي طلبك هذا كي لا ترى شيئاً في حين أنك في الواقع مبصر مثلي تماماً، كما أن لديّ خطة. إنك تهوى الأحداث المثيرة يا سيد بلانت، واللعبة التي مارستها أنت وزوجتك اليوم تدلّ على ذلك، كما أنني قد دبرت لعبة صغيرة، وهي لعبة تدلّ العبقرية وسوف توافقني على ذلك عندما أشرحها لك. إن الأرض التي تقف عليها من المعدن ومنثور على سطحها كرات صغيرة، وإذا أنا أدرت هذا المفتاح هكذا فإن التيار الكهربائي يسري فيها، ومجرّد أن تضع قدميك على هذه الأسلاك فمعنى ذلك الموت، هل فهمت؟ إذا استطعت أن ترى... ولكنك لا ترى؛ فإنك في ظلام دامس مع هذه اللعبة، لعبة الاستخفاء المميتة. إذا أفلحت في الوصول إلى الباب سالماً آمناً فأنت حرّ، ولكنني أعتقد أنك قبل أن تصل إلى الباب ستطأ أحد هذه الأسلاك ذات التيار العالي، وسيكون هذا ظريفاً جداً بالنسبة إليّ.

وفكّ قيد تومي وأعطاه العصا وهو يحييه ساخراً ويقول: لنرَ الآن هل يفلح مخبرنا الضرير في حلّ هذه المعضلة أم لا. إنني أراقبك ومسدسي في يدي وعلى أتم الاستعداد للتدخل إذا بدرت منك أية حركة نحو القناع، مفهوم؟

- تماماً.

لم يفقد تومي جأشه، وإن كان لونه قد امتقع، ثم استطرد قائلاً: أظن أنه ليست لي أية فرصة.

- أجل.

- إن لك عقلية معقدة، ولكنك نسيت شيئاً. بالمناسبة، هل

أستطيع أن أشعل لفافة تبغ؟ إن قلبي المسكين يضطرب لفرط التأثر.

- لك هذا، ولكنك لن تقدم على أية خدعة، وتذكر أن مسدسي مصوّب إليك.

وأخرج تومي علبة لفافات التبغ وجسّ جيبه بحثاً عن الثقاب ثم قال: لا تقلق، أنا لا أحمل سلاحاً. على كل حال وكما قلت لك فإنك نسيت شيئاً.

- ما هو؟

فرفع تومي عود الثقاب كي يشعله ثم قال: أنا أعمى، أما أنت فترى، ولك بذلك ميزة عليّ، ولكن لنفرض أننا وجدنا أنفسنا في الظلام فجأة، فبمَ تفيدك ميزتك هذه؟

فضحك الدوق المزعوم بازدراء ثم قال: هل تأمل أن تطلق النار على العدّاد الكهربائي؟ إن هذا محال.

- هذا صحيح، لا أستطيع أن أغرقك في الظلام، ولكن ما رأيك إذا أعطيتك النور؟

وأدنى عود الثقاب من شيء يمسكه في يده لم يلبث أن ألقاه فوق المائدة، فارتفعت شعلة بيضاء كبيرة أعمت بصر الدوق لمجرّد لحظة خاطفة، فارتدّ إلى الخلف ومسدسه يهتزّ في يده، ثم فتح عينيه على شيء بصدره وتومي يقول له: ألقِ هذا المسدس من يدك فوراً. إن عصاي المجوفة قليلة الفائدة ولكنها إذا انقلبت إلى عصا في آخرها خنجر أصبحت مسألة أخرى. هل تفهم؟ ألقِ هذا المسدس.

اضطُرّ الرجل إلى الإذعان تحت تهديد النصل الحادّ الطويل، ولكنه زمجر وارتدّ خطوة إلى الوراء وهو يقول: ما زلت متميزاً عليك لأنني أرى في حين أنك لا ترى.

- أنت مخطئ يا عزيزي لأنني أرى مثلك تماماً. لقد كنت أنوي أن أهدي قناعاً آخر إلى توبنس لأن المرء إذا وضعه فوق عينيه لا يرى لأول وهلة ولكنه لا يلبث أن يتعود عليه ويرى كل شيء من جديد، وعندئذ في استطاعته أن يدّعي بأنه ينمّي حواسّ اللمس والشمّ والسمع. هل تعرف أنه كان في مقدوري أن أخرج من المطعم دون مساعدة متجنباً كل العقبات؟ ولكنني اشتبهت فيك بغريزتي لأنني شككت في أنك تضمر شرّاً وأنك لن تتركني أخرج من هنا على قيد الحياة. حذارِ.

احتقن وجه الرجل من الغضب واندفع إلى الأمام وقد نسي بسبب حدّة غضبه أين يضع قدميه، ثم ارتفع وميض أزرق ترنح الشقي على أثره ووقع فجأة، ثم انتشرت رائحة لحم محترق ممزوجة برائحة الأكسجين التي تملأ الغرفة.

جفف تومي جبينه وتقدم بحذر نحو الحائط فأدار المفتاح الذي عالجه حارسه، ثم اقترب من الباب ففتحه بسكون وألقى نظرة إلى الخارج، وعندما لم يرَ أحداً هبط الدرجات وخرج، وعندما أصبح في أمان في الشارع رفع عينيه إلى البيت وهو يرتجف فسجّل رقمه في ذهنه ثم أسرع إلى أقرب هاتف عمومي. وأصغى بقلق إلى رنين الجرس، وبعد لحظات ردّ عليه صوت معروف فهتف قائلاً: توبنس؟ الحمد لله.

- نعم، لم يقع لي شيء. لقد فهمت رسالتك التي قلت فيها بأن يأتي بالجمبري إلى فندق بليتز ويتبع الرجلين الغريبين، وقد

جاء ألبرت في اللحظة المناسبة، وعندما مضوا بنا في سيارتين مختلفتين تبعني في سيارة أجرة وعرف المكان الذي ذهبوا بي إليه واستدعى الشرطة.

- إن ألبرت فتى شجاع باسل، وكنت واثقاً من أنه سيتبعك أنت، ولكن هذا لم يمنع من أنني كنت شديد الجزع عليك. إن لديّ أشياء سأرويها لك، ولكن أول شيء سأفعله عند عودتي هو أنني سأرسل شيكاً بمبلغ كبير إلى جمعية سان دونستان لغير المبصرين؛ فإن من البشاعة أن يكون الإنسان أعمى.

* * *

-٧-

المزيِّف

اضطجع تومي في مقعده إلى الخلف وقال: توبنس، لا بدّ لنا أن نبحث عن مكتب أكبر.

- هل جُننت؟ لا يجب أن تخدعك الأوهام، لا لشيء إلا لأنك استطعت تسوية بعض القضايا التافهة بفضل حظ عجيب.

- إن ما يسمّيه البعض حظاً يا عزيزتي يسمّيه البعض الآخر موهبة، إن لم يكُن عبقرية.

- إذا كنت تعتبر نفسك مخبراً سرّياً على غرار شيرلوك هولمز أو ماك كارتي أو كوود فلم يعُد لديّ ما أقوله لك فيما عدا أن أنصحك بأن تعتني بنفسك.

- قولي ما تشائين يا توبنس، ولكن الواقع أننا بحاجة ماسّة إلى مكتب أكبر من هذا.

- لماذا؟

- كي أستطيع أن أجد مكاناً لرواياتي البوليسية. إن روايات إدغار والاس بحاجة إلى عدة رفوف.

فتنهّدت المرأة الشابة وقالت: إدغار والاس؟ إننا لم نعالج بعدُ قضية من تلك القضايا التي يحلّ طلاسمها.

- أخشى أن لا تسنح لنا هذه الفرصة أبداً، ولا أدري إذا كنت قد لاحظت ذلك أم لا، ولكن ذلك الكاتب المشهور لا يتيح الفرصة أبداً للمخبرين الهواة. إن كل مغامراته تدخل في نطاق اسكتلنديارد.

وعند هذا القول دخل ألبرت ليعلن أن المفتش ماريوت قدم لرؤيتهما، فرفع تومي إصبعاً نحو السماء وقال: أكثر رجال اسكتلنديارد غموضاً.

وأردفت توبنس قائلة: وأشدّهم خطراً.

دخل المفتش وعلى شفتيه ابتسامة رقيقة ثم قال: كيف الحال منذ أن فرغتما من المغامرة السابقة؟

فتظاهرت المرأة الشابة بأنها تموء كي تقول: "لقد كانت مغامرة مثيرة جداً، أليس كذلك؟" ولكن ماريوت لم يشاركها حماستها، وقال تومي: ما الذي جاء بك اليوم يا ماريوت؟ لا أتصوّر أنك تزعج نفسك كي تستقي أخبارنا بالذات.

- إن لديّ عملاً للسيد بلانت الحاذق ومساعديه.

- دع لي متسعاً من الوقت كي أتخذ السمة المناسبة التي تتفق مع هذا الموقف.

- ما رأيك في الحدّ من نشاط عصابة كبيرة؟

- وهل توجد عصابات كبيرة؟

- ماذا تعني؟

- كنت أعتقد دائماً أن العصابات الكبيرة لا وجود لها إلا في مخيّلة الكُتاب، وكذلك بالنسبة للمحتالين البارعين والمجرمين الموهوبين.

- لسوء الحظ إن العصابات موجودة بكثرة يا سيدي.

- لا أدري إن كنت جديراً بالمهمة التي تعرضها عليّ أم لا، فإن الهواة أمثالي لا حاجة بهم إلا إلى جرائم الهواة، أعني جرائم تدور في إطار الحياة العادية اليومية، وفي مثل هذه الظروف سأبذل جهدي بمساعدة توبنس على الخصوص، فلا مثيل لها لملاحظة مئات النقاط التي لا يهتم بها الإنسان عادة على الرغم من أنها على جانب كبير من الأهمية.

فرمته توبنس بالوسادة على رأسه كي يكفّ عن النطق بمثل تلك السخافات فيما يتعلق بها، وبدا كأن هذا العلاج راق المفتش لأنه قال: إذا سمحت لي بإبداء ملاحظة فإنه يسرّني أن أرى شابين يستمتعان بالحياة كما تفعلان.

فنظرت توبنس إليه بدهشة ثم قالت: نستمتع بالحياة؟! نحن؟ قد يكون ذلك صحيحاً على كل حال، إلا أنني ما كنت أظن ذلك.

فعاد تومي إلى الموضوع الذي يهمّه فقال: بمناسبة هذه العصابة التي جئت تحدّثني عنها فإنه من الجائز أن أتنازل وأهتمّ بها على الرغم من كثرة عملائي، وكلّهم من الدوقات والمليونيرات وخيرة نساء المجتمع، فإنني لا أحبّ أن أرى اسكتلنديارد تعاني ضيقاً ولا أريد أن تكون أضحوكة الجرائد ولومها.

- هلاّ تخلّيت عن هذا المزاح؟ تصوّر أنه توجد أوراق مالية

كثيرة زائفة متداولة في هذه اللحظة، أوراق مالية من الفئات الصغيرة مقلّدة تقليداً متقناً. لقد أحضرت لك واحدة منها.

ثم ناوله المفتش ورقة مالية من فئة الجنيه وقال: ألا يبدو هذا الجنيه حقيقياً؟

فحص تومي الجنيه بدقة ثم قال: ما كنت أظن أنه يوجد عيب في هذه الورقة.

– انظر إلى الجنيه الحقيقي إذن، سأريك الفرق ولن تلبث أن تميزه من أول نظرة. خُذ هذه العدسة.

وبعد بضع لحظات كان تومي وزوجته قد أصبحا خبيرَين تقريباً، فقالت توبنس: ماذا تنتظر منا أيها المفتش؟ أن نفحص الأوراق التي نتداولها؟

– بل أكثر من هذا يا سيدة بيريسفورد، إنني أعتمد عليكما في استقصاء هذه القضية. لقد اكتشفنا أن الأوراق المالية الزائفة تُعرض للتداول في حيّ وست إند، ويبدو أن الموزع يشغل منصباً لا بأس به في السلّم الاجتماعي، ونحن نعرف كذلك أن أكثر هذه الأوراق تُنقل إلى الناحية الأخرى من المانش، ونهتمّ بوجه خاص بالمفتش ليدكو. لعلكما سمعتما عنه على الأقل.

– أليس هو ذلك الرجل الأرستقراطي الذي يهتم بسباق الخيل؟

– هو نفسه، وهو معروف في جميع أوساط السباق، وليس لدينا أي شيء محدّد ضدّه فيما عدا إحساسنا بأنه أبدى مهارة أكثر من اللازم تقريباً في عقد صفقتين أو ثلاث صفقات مريبة، ورجال السباق يشعرون بالضيق عندما تأتي سيرته أمامهم. إننا لا نعرف

الشيء الكثير عن ماضيه، فلا يدري أحد بالتحديد من أين أتى. وإن له زوجة جميلة جداً تجرّ وراءها في كل مكان تذهب إليه مجموعة من المعجبين، وهما ينفقان مبالغ جسيمة، ونحن نريد أن نعرف مصدر هذا الثراء.

- ربما كان مصدره مجموعة المعجبين.

- هذا هو الإحساس المراد إعطاؤه، ولكنني أشكّ في هذا. لعل الأمر لا يعدو مجرّد مصادفة، ولكن مهما يكُن من أمر فإن أكثر هذه الأوراق تصدر من نادٍ خاص يقضي آل ليدكو وأصحابهما أوقاتهم فيه، والقمار إحدى الوسائل التي يستعملها المزيِّفون لتصريف أوراقهم.

- وما هو دورنا في هذه القضية؟

- إنني أعلم أن الشاب سان فنسانت وزوجته من أصدقائكما، وأعرف أنهما يختلطان بعصابة ليدكو، ومن السهل أن تصلا عن طريقهما إلى هذا النادي المغلق دون أن ترقى إليكما الشكوك.

- وماذا تتمنى أن نكشف على وجه التحديد؟

- أن تعرفا من أين تأتي الأوراق الزائفة وهل هو ليدكو الذي يروّجها أم غيره.

- خلاصة القول أنه عليّ أن أتعقب الميجور ليدكو وهو خارج من بيته ومعه حقيبة فارغة، ثم وهو عائد ومعه حقيبة مملوءة بالأوراق الزائفة، وعليّ أن أعرف طريقته في الحصول على هذه الأوراق، أليس كذلك؟

- تقريباً. ولا تهملا السيدة وأباها السيد إيروليد، وتذكرا أن هذه الأوراق المالية منتشرة في كل ناحية من ضفتَي المانش.

– عزيزي ماريوت، إن مكتب بلانت الدولي للأبحاث لا يعرف كلمة الإهمال.

نهض المفتش وانصرف وهو يرجو لهما التوفيق، وصاحت توبنس بمجرد أن أغلق الباب خلفه قائلة: أخيراً؟ قضية على نمط قضايا إدغار والاس! سوف نطارد ذلك المزيِّف إلى أن يقع في أيدينا. إنني أشعر أنني سأحبّ هذه القضية.

* * *

اتضح أن التعرّف بآل ليدكو كان من أسهل الأمور، فبفضل أناقتهما وثرائهما الظاهر استطاعا أن يفرضا نفسيهما على الجماعة التي يديرها آل ليدكو.

كان الميجور مثال الرجل الإنكليزي القحّ، فكان طويل القامة أشقر رياضيّ الجسم منبسط الأسارير على الرغم من تلك الثنايا القاسية التي تحيط بفمه، وعلى الرغم من نظرته المتهرّبة فهو مقامر شديد البأس لا يخاف المغامرات الكبيرة ويعرف كيف يدير أموره كما تبينت توبنس بعد قليل.

أما مارغريت ليدكو فكانت امرأة رشيقة ذات وجه جميل أشبه بوجه لوحة، ولم يلبث تومي أن أدرك لماذا يعجب بها الرجال. وقد اهتمت به على الفور وقام هو بدوره خير قيام فانضمّ إلى حاشيتها. وكان إيروليد، أبو مارغريت، يبدو لغزاً؛ فقد كان مهذباً أنيقاً وكانت له نظرة حادة تتسبّب في نوع من الضيق.

كانت توبنس أول من جاء بالصيد المطلوب، فناولت تومي عشر ورقات من فئة الجنيه قائلة: افحص هذه الأوراق يا تومي، أظن أنها زائفة.

- من أين لك بها؟

- من ذلك الشاب الواقف هناك ويُدعى جاك فولنكر، وقد أعطته مارغريت إياها كي يراهن بها على جواد في سباق الغد، فادّعيت أنني أحتاج إلى بعض العملات الصغيرة وأخذتها منه مقابل ورقة بعشرة جنيهات.

تأمل تومي إحدى الأوراق المالية ثم قال: هذه ورقة جديدة لم يكثر تداولها بعد، ومع ذلك فلا أظن أن فولنكر من العصابة.

* * *

كان من المعجبين بالسيدة ليدكو شاب فظّ ولكنه ثريّ جداً يُدعى هانك رايدر جاء من الولايات المتحدة، وقد اقترب من تومي وقال متنهداً وهو يتابع مارغريت بعينيه: امرأة رائعة!

هزّ تومي رأسه موافقاً فعاد رايدر يقول بافتتان: أليس من المحزن أن مخلوقة جميلة مثلها تعاني من متاعب مالية؟

- هل هذا صحيح؟

- طبعاً، إن ليدكو هذا رجل طيّب، وقد أسرّت إليّ بأنها تخشاه إلى حدّ أنها لا تستطيع أن تعترف له بديونها الصغيرة.

- وهل هي ديون صغيرة حقاً؟

- إن المرأة تحبّ طبعاً أن تلبس، والسيدة ليدكو بالذات لا يمكن أن تلبس إلا أغلى الثياب وأفخمها وطبقاً لآخر صيحة، ثم إن المسكينة العزيزة لا حظّ لها في اللعب، وقد ربحت منها أمس خمسين جنيهاً في لعب الأوراق، ولكنها ربحت مئتَي جنيه من فولنكر أول أمس.

- حقاً؟ يسرّني هذا. بالمناسبة، يبدو أن أوراقاً مالية زائفة يجري تداولها في بلادكم هذه الأيام، فقد أودعت مبلغاً في المصرف ولكن الموظف ردّ إليّ خمساً وعشرين ورقة منها قائلاً إنها لا تساوي شيئاً.

- وهل كانت أوراقاً جديدة؟

- كانت وكأنها قد خرجت لتوّها من المطبعة، وأتذكر الآن أن السيدة ليدكو هي التي أعطتني إياها. وإنني أتساءل ممن أخذتها؟

- بالتأكيد من أحد مجانين السباق.

- لا ريب في ذلك.

- لا أُخفي عليك يا سيد بيريسفورد أن هذه الحياة الاجتماعية شيء جديد جداً بالنسبة إليّ. هذه أول تجرِبة لي لأنني لم أنجح في الأعمال إلا منذ وقت قريب، وقد أتيت إلى أوروبا للاختلاط بالمجتمع الراقي.

رأى تومي أن رايدر لن يعرف الكثير عن المجتمع ومعه موجّه مثل السيد ليدكو وأن تلك التجربة ستكلّفه الكثير، ولكنه أصبح لديه الدليل استناداً إلى قصة الأمريكي على أن مصدر الأوراق المالية الزائفة أصبح قريباً وأن مارغريت ليدكو ليست غريبة عن ترويجها، وقد يتأكد من ذلك في الليلة التالية.

لقد حدث ذلك في نفس المكان المغلق الذي أشار إليه ماريوت، وهو مكان مُعَدّ للرقص، ولكن الملاهي الحقيقية كانت تختفي خلف أبواب سميكة ضخمة، ففي غرفتين متّصلتين أُقيمت موائد كبيرة للقمار تتبادل الأيدي فيها كل ليلة مبالغ جسيمة. وعندما همّ تومي أن يستأذن للانصراف وضعت مارغريت ليدكو في يده

حزمة كبيرة من الأوراق المالية من فئة الجنيه قائلة: إن حقيبتي تضيق بها، فكن ظريفاً واستبدلها لي يا تومي.

فأحضر لها الشاب ورقة بمئة جنيه كما طلبت، ثم انزوى في ركن وراح يفحص الأوراق المالية التي أعطتها له وتبيّن له أن ربعها من الأوراق الزائفة. من أين جاءت بها؟ لم يستطع بعدُ الردّ على هذا السؤال الحيوي؛ فمنذ بضعة أيام أمر ألبرت أن يتعقب ليدكو فاكتشف أن لا دخل له بعصابة المزيِّفين. والواقع أن بيريسفورد كان يشتبه شخصياً في صهر ليدكو، ذلك العَبوس إيروليد؛ فقد كان يذهب كثيراً إلى فرنسا ومن السهل عليه أن يضع الأوراق المالية في حقيبة ذات قاع مزدوج.

خرج تومي من النادي وهو غارق في أفكاره، وارتدّ إلى الواقع وهو يرى السيد هانك رايدر مخموراً جداً ويحاول أن يعلّق قبعته في حقيبة إحدى السيارات وهو يتأوه قائلاً: ليس في الولايات المتحدة علاّقات كهذه، فإن أحداً لا يستطيع أن يعلّق فيها قبعة واحدة.

وفي تلك اللحظة وقعت عيناه على تومي وكان واقفاً ينظر إليه فاستشهد به قائلاً: إنني عندما أدخل في كل ليلة إلى مقهى شارل كي أشرب كأساً أعلّق قبعتي دون مشقة، ولكن... ولكنك تضع قبعتين أيها السيد، وهذه أول مرة أرى فيها رجلاً يضع قبعتين! لا ريب أن هذا بسبب الطقس.

قال تومي بلهجة مهذبة: هذا ما لم يكُن لي رأسان.

- آه يا صديقي! لقد أعطوني شراباً عجيباً، ولكن هانك رايدر لا يتردد أمام شيء من أجل مارغريت الحسناء. إنني واثق أنها تحبّني، وهي على حق، وإن زوجها محظوظ ولكنه يزعجني.

وأقول... ولكن ماذا تقول؟

- أقول إنه يجب أن تأوي إلى فراشك.

فانفجر رايدر باكياً ثم قال: ليس لي بيت أذهب إليه. إنني وحيد، فأنا يتيم مسكين يا سيدي.

- في أيّ فندق تقيم؟

- لا حاجة بي إلى أيّ فندق يا سيدي. يجب أن أذهب كي أبحث عن كنز، كنز كبير. إنها بحثت عنه يا صديقي في وايتشايل.

وفجأة اعتدل وبدا عليه الوقار ثم قال: أيها الشاب، إنني أقول لك إن مارغريت أخذتني في سيارتها للبحث عن كنز، ويبدو أن كل الطبقة الأرستقراطية الإنكليزية تحذو حذوها. لقد قالت إنها وجدت خمسمئة جنيه تحت البلاط، وإنني أسرّ إليك بهذا لأنك كنت طيّباً معي. إنني أريد أن تغدو ثرياً، فإننا معشر الأمريكيين...

فقاطعه تومي قائلاً: أين ذهبت بك السيدة ليدكو في سيارتها؟

- وايتشايل.

- ووجدت هناك خمسمئة جنيه؟

فقال رايدر بارتباك: لقد تركتني في الخارج وهذا غير ظريف منها. لقد كنت أمام الباب وحدي، وقد طرقته مدة طويلة ولكن لم يرُدّ أحد. إن هذا محزن يا سيدي، خصوصاً من امرأة تحبّها.

- هل تعرف المكان إذا ذهبت إليه مرة أخرى؟

- إن هانك رايدر لا يضلّ أبداً.

فأمسكه بيريسفورد برفق وذهب به حتى سيارته حيث أجلسه بقدر ما استطاع، وما هي إلا لحظة حتى انطلقا نحو الشمال. وبدا كأن الهواء البارد أنعش رايدر، فقد بدأ يعود إلى وعيه فقال: قل لي يا صديقي العزيز، لا أريد أن أكون متطفلاً، ولكن أين نحن؟

- في وايتشايل. هل جئت هنا الليلة مع السيدة ليدكو؟

- الواقع أن المكان يبدو مألوفاً لي، ويخيل إليّ أنها انعطفت بالسيارة إلى اليسار من هنا، من هذا الشارع.

أطاع تومي وأخذ يتقدم مسترشداً به، ثم قال رايدر: والآن إلى اليمين. ألا ترى أن الرائحة كريهة؟ تجاوز هذه الحانة في آخر الشارع ثم انعطف إلى اليمين وتوقف في أول هذا الزقاق. ولكن ما الفائدة من كل هذا؟ هل تظن أنهم تركوا بعض المال وتريد أن تواجههم وتسلبهم إياه؟

- تماماً، على الرغم من أنني لا أفهم شيئاً كثيراً في هذه القصة.

كان تومي أول من خرج من السيارة، ثم ساعد زميله على الخروج ودخلا الزقاق، وقد امتدّ على يسارهما عدد من البيوت القديمة المتشابهة، ثم توقف رايدر أمام أحدها وقال: لقد دخلت هنا.

- هذه الأبواب تتشابه كلها، فكيف استطعت التأكد من أنه هذا البيت بالذات وليس بيتاً آخر؟ إن هذا يذكّرني بقصة الجنديّ والأميرة، ألا تذكرها؟ لقد رسما علامة على الباب كي يهتديا إليه فيما بعد، فماذا لو أننا حذونا حذوهما؟

ثم أخرج قطعة من الطباشير من جيبه وهو يضحك فرسم علامة غريبة على الباب، ثم ارتفعت صرخة بشعة في جوف الليل، فرفع تومي رأسه فرأى أشكالاً تندفع بعضها خلف بعض فقال: يبدو لي أن هذا الزقاق مأوى للقطط.

- إنه مكان منحوس. هل تدخل؟

- نعم، ولكن مع توخّي الحرص والحذر.

ثم ألقى نظرة سريعة حوله ودفع الباب برفق فانفتح على فِناء معتم، وسار رايدر خلفه ولكنه لم يلبث أن قال: حذارِ؛ يوجد قادم في الزقاق.

وخرج كي يتأكد وأرهف تومي أذنيه، وعندما لم يسمع شيئاً تقدم إلى الأمام وأخرج بطارية من جيبه وأضاءها لحظة كي يرى موضع قدميه، ثم لم يلبث أن بلغ باباً انفتح بمجرد أن دفعه هو الآخر، وبعد أن جمد في مكانه بضع لحظات أضاء مصباحه، ولكن في تلك المرة بدا له أنه توجد حركة، وأحاط به أربعة رجال ودوّى صوت يقول: النور.

ثم نشر مصباحٌ غازيّ ضوءه الباهت، واستطاع تومي أن يتبين الوجوه المتوعدة التي تحيط به فقال بلهجة مهذبة: أظن أن هذا البيت هو مركز المزيِّفين.

فصاح أحد الرجال: اخرس.

وانفتح الباب الذي خلفه ثم أُغلق، وبعد ذلك صاح صوت مرح يعرفه يقول: مرحى يا أولاد، لقد ظفرتم به. والآن اسمح لي أيها السيد المحترم أن أقول لك إنك في ورطة.

- السيد رايدر؟ يا لها من مفاجأة!

- إنني واثق أنها مفاجأة لك. أتعرف أنك أضحكتني طَوال الوقت يا صاحبي؟ فقد جازت عليك الخدعة وأتيت بك هنا كالطفل الوديع وأنت تزهو بحيلتك الصبيانية. والحق أنني كنت أراقبك منذ لقاءنا الأول، فأنت لم تنضمّ إلينا لمجرّد المتعة. لقد تركتك تنقّب قليلاً، وعندما بدأت تشتبه في مارغريت الحسناء قلت لنفسي إن الوقت قد حان لتضليلك، وعندي فكرة بأن أصدقاءك لن يسمعوا أنباءك لفترة من الوقت.

- هل أفهم من هذا أنكم تنوون التخلص منّي؟

- اطمئنّ، فليس في نيّتنا استعمال العنف، سنكتفي بأن نسجنك.

- يؤسفني هذا.

ومن الخارج تناهت إليهم أصوات مواء القطط، فابتسم رايدر وقال: لقد كنت تعتمد على هذه العلامة التي رسمتها على الباب يا صديقي. لو أنني مكانك لما اعتمدت على ذلك، فإنني أعرف القصة التي أشرت إليها، ولهذا خرجت ورسمت نفس العلامة على كل الأبواب.

فبدت أمارات الخيبة على وجه تومي واستطرد رايدر قائلاً: كنت تظن نفسك على قدر كبير من الذكاء، أليس كذلك؟

وفي تلك اللحظة سُمعت طرقة عنيفة على الباب من الخارج فصاح الأمريكي قائلاً: مَن بالخارج؟

وعندئذ بدأ الهجوم حيث انفتح الباب بعنف تحت ضغط رجال الشرطة، ودخل المفتش ماريوت واستقبله تومي قائلاً: مرحى يا ماريوت. لقد كنت على حق على طول الخط تقريباً.

أقدّم إليك السيد رايدر الذي يعرف قصص الأطفال معرفة جيدة. أرأيت يا سيد رايدر؟ لقد كنت أنا أيضاً اشتبه فيك، وقد أعطيت ألبرت، وهو هذا الفتى الذي تراه هناك، تعليمات بأن يتبعنا على درّاجته البخارية إذا اضطررنا إلى الرحيل بالسيارة معاً، وبينما كنت أرسم العلامة بالطباشير كي ألفت نظرك سكبت على الأرض زجاجة من عطر النارديين، وهو عطر له ميزة غريبة ورائحته تجذب القطط، وأظن أنه عندما وصل ألبرت ومعه الشرطة كانت كل قطط الحيّ مجتمعة أمام البيت.

* * *

-٨-

الجريمة الغامضة

- هل تعلمين أين سنتناول الغداء اليوم يا توبنس؟

- في الريتز؟

- لا.

- في ذلك المطعم الجميل بحيّ السوهو؟

- لا، وإنما في مطعم عاديّ، وفي هذا المطعم بالذات.

فدفعها برفق إلى المطعم الذي أمامها، وأرشدها إلى مائدة في أحد الأركان ثم قال وهو يجلس: نحن هنا على ما يرام، والواقع أننا لا نستطيع أن نجد أفضل منه.

- ولماذا هذا الحبّ الفجائي لحياة الناس البسطاء محدودي الدخل؟

رفع بيريسفورد إصبعه بغطرسة ثم قال بوقار مصطنع: إنك تنظر حولك يا واطسون، ولكنك لا تلاحظ أبداً.

ثم استطرد وقد غيّر من لهجته قائلاً: لا أدري متى تتنازل إحدى هؤلاء النساء المتعجرفات وتلاحظ وجودنا. ها هي ذي

واحدة تنزل من عليائها وتأتي إلينا. صحيح أنه يبدو عليها أنها تفكر في شيء آخر، ولا ريب أن عقلها الباطن لا يستطيع أن يتخلص من مشكلات الطعام، البيض والعجّة والسمك المقلي والشاي إلى غير ذلك. من فضلك يا آنسة، أريد طبقاً من اللحم والبطاطا المحمَّرة وفنجاناً كبيراً من القهوة لي، وطبقاً من اللسان البارد للسيدة.

فكرّرت النادلة كلامه بلهجة محايدة، ولكن توبنس قاطعتها فجأة قائلة: لا، لا لحم ولا بطاطا محمرة، سيتناول هذا السيد فطيرة بالجبن وكوباً من اللبن.

وكرّرت النادلة كلام السيدة بلهجة أكثر حياداً قائلة: فطيرة بالجبن وكوباً من اللبن.

وابتعدت ولا يزال ذهنها في مكان آخر، فقال تومي بجفاء: كان تدخّلك في غير محلّه حقاً.

- ولكن الحق معي، أليس كذلك؟ إنك تقوم اليوم بدور الرجل الكهل الجالس في ركن المطعم، بطل القصص البوليسية التي ألّفتها البارونة أوركزي، وإذا كان الأمر كذلك فأين قطعة الخيط؟

فأخرج تومي من جيبه قطعة من الخيط ثم قال: إنني لم أهمل شيئاً.

- ومع ذلك فقد ارتكبت غلطة صغيرة وأنت تطلب طعامك.

- إنكن معشر النساء تافهات. إذا كان يوجد ما أكرهه فهو شرب اللبن وأكل الفطائر المصنوعة من الجبن؛ فلونها أصفر وطعمها...

- كُن رياضياً يا تومي، وانظر إليّ وأنا أتعارك مع لساني البارد. إنه لذيذ جداً، وإنني الآن مستعدّة أن أقوم بدور الآنسة بوللي بولتون، وأنا مصغية إليك.

- أرجو أولاً أن تلاحظي أن القضايا نادرة جداً هذه الأيام، وإذا كانت لا تريد أن تأتي إلينا فعلينا أن نذهب نحن إليها. لنطبق الآن قدراتنا الاستنتاجية على أحد الأسرار الغامضة الموجودة حالياً، وهو الغرض من هذا البيان، وأعني به سرّ صننغ ديل.

- سرّ صننغ ديل؟

وأخرج تومي من جيبه قصاصة مقطوعة من جريدة ووضعها على المائدة وهو يقول: هذه هي صورة الكابتن سيسل كما ظهرت في جريدة الديلي ليدر.

ففحصت توبنس الصورة ثم تنهدت قائلة: إنني أتساءل في بعض الأحيان، لماذا لا يشكو الناس من الجرائد؟ إنك لا تتبين في هذه الصورة أكثر من أنها صورة رجل.

- عندما أقول سرّ صننغ ديل فإنني يجب أن أقول سرّ صننغ ديل المزعوم.

- لعله سرّ غامض بالنسبة لرجال الشرطة، ولكن ليس لذكاء خارق مثل ذكائك.

- إنني لا أدري ماذا تعرفين عن هذه القضية يا توبنس.

- أعرف عنها كل شيء، ولكنني لا أريد أبداً أن أحرمك من متعة سردها عليّ.

- حدث هذا الاكتشاف المحزن منذ أسبوع على أرض

الغولف المعروفة باسم صننغ ديل، فقد خرج عضوان من أعضاء النادي في الصباح الباكر للعب الغولف فعثرا على جثة رجل ملقى على صدره بجوار الحفرة السابعة، وقبل أن يقلباه على ظهره عرفا أنه الكابتن سيسل، وهو رجل معروف يلبس دائماً رداء غولف أزرق اللون. وكان من عادته أن يذهب إلى الغولف في وقت مبكر جداً كي يتمرن. وخطر لهما في البداية أنه مات بالسكتة القلبية ولكن الطبيب أعلن أنه قُتل بطريقة غير عادية، فقد غرز القاتل دبوساً من دبابيس القبعات في قلبه، وقال الطبيب إنه قد مات منذ اثنتَي عشرة ساعة حينئذ. وقام رجال الشرطة بتحرياتهم على الفور فعرفوا أن رجلاً آخر رأى الكابتن على قيد الحياة، وهذا الرجل هو صديقه وزميله هولابي بشركة بروكومين للتأمين، وكان قد فرغ هو وسيسل من اللعب في وقت مبكر من الأصيل، وبعد تناول الشاي عرض الكابتن أن يقوما بجولة أخيرة قبل أن يهبط الليل، فقبل هولابي وانطلقا في أرض الملعب، وكان سيسل يبدو معتدل المزاج وفي أتمّ نشاط.

ويوجد ممرّ يخترق الطريق، وبينما هما يلعبان عند الحفرة السادسة رأى هولابي امرأة تتقدّم في ذلك الممرّ، وكانت قامتها أطول قليلاً من المتوسط وترتدي ثياباً بنّية اللون، ولكنه لم يهتمّ بها في الواقع، أما سيسل فيبدو أنه لم يرَها. والممر المذكور يحاذي الركام السابع، وقد تجاوزته المرأة ولكنها وقفت في آخره وبدا عليها أنها تنتظر شيئاً أو شخصاً. وكان الكابتن أول من بلغ الركام في حين كان صديقه هولابي يضع العلَم في الحفرة، وعندما تقدّم أدهشه أن يرى الكابتن يتحدث مع المرأة المجهولة، وعندما اقترب سكتا فجأة، ثم صاح سيسل يقول من فوق كتفه: "لحظة واحدة يا هولابي، سأعود حالاً"، ثم ابتعد هو وزميلته وهما منهمكان

في حديث حادّ.

وفي ذلك المكان ينتهي الممرّ إلى أرض الغولف ويمتد بين سياجين يحيطان بحديقتين ليلحق بطريق وندلشام، وكان الكابتن سيسل عند كلمته، فقد عاد بعد دقيقتين من ذلك، وقد أحسّ بارتياح كبير لأن لاعبَين آخرَين كانا يتقدمان خلفهما والنهار يوشك أن ينصرم. ثم استأنفا اللعب، ولكن هولابي لاحظ على الفور أن شيئاً ما أزعج صديقه لأن هذا الأخير لم تفُته بعض الضربات فحسب ولكنه كان يوجد ما يشغله، ولم يردّ على ملاحظات صديقه إلا بكلمات مقتضبة، ولم يستطع أن يركّز تفكيره في اللعب.

لقد كان من الواضح أن حدثاً مفاجئاً وقع فأفسد متعته في اللعب. ومهما يكُن فقد لعبا دورين آخرين، ثم قال الكابتن إن الرؤية قد أصبحت متعذرة وإنه سيعود إلى بيته. وكان الرجلان قد بلغا ممراً يؤدي إلى ممر وندلشام فاتخذه الكابتن سيسل كي يختصر الطريق إلى بيته، وعندئذ أقبل اللاعبان الآخران، وهما المفتش برنارد والسيد ليكي. وعندئذ أشار هولابي إلى التغيير الذي طرأ على صديقه، فقال له الرجلان إنهما رأيا سيسل يتحدث إلى السيدة ولكنهما كان بعيدَين بحيث لم يستطيعا أن يتبيّنا وجهها. وراح الرجال الثلاثة يتساءلون عما عساها تكون قد روته لصديقهم كي ينزعج إلى هذا الحدّ، ثم عادوا معاً إلى بيت الغولف، وكانوا هم آخر من رأى سيسل على قيد الحياة.

لقد حدث ذلك يوم أربعاء، والمعروف أن شركة السكة الحديدية تخفض ثمن التذاكر في هذا اليوم، ولهذا السبب سافر الخادمان اللذان يقومان بخدمة سيسل إلى لندن ولم يعودا إلا مع آخر قطار، وعندما دخلا المنزل ولم يجدا سيدهما خطر لهما أنه

أوى إلى فراشه قبل قدومهما. وكانت السيدة سيسل من ناحيتها في زيارة لإحدى صديقاتها في مكان آخر بعيد.

لقد أثار مقتل الكابتن سيسل دهشة الجميع، فلم يستطع أحد أن يجد دافعاً لتلك الجريمة ولم يظهر أي أثر للمرأة المجهولة. وقد تحدثت الجرائد عن عجز الشرطة وعدم كفاءتهم، وبعد أسبوع أُلقي القبض على فتاة تُدعى دوريس إيفانس اتهمها رجال الشرطة بقتل الكابتن أنتوني سيسل مستندين إلى بضع قرائن انتهى إليها، وكانت عبارة عن حفنة من الشعر الأشقر وُجدت في يد القتيل وبضعة خيوط من الصوف الأحمر وجدوها معلقة في ردائه الأزرق.

وقد أسفر التحقيق الذي قام به رجال الشرطة في المحطة والأماكن المحيطة عن بعض الحقائق. لقد جاءت فتاة ترتدي معطفاً أحمر وتنورة حمراء في قطار المساء في نحو الساعة السابعة منذ ذلك اليوم وسألت عن الطريق المؤدي إلى بيت الكابتن سيسل، ثم عادت إلى المحطة بعد ذلك بساعتين فريسة انفعال شديد وقد تشعّث شعرها ولبست قبعتها بالمقلوب، وقد سألت عن مواعيد القطارات العائدة إلى لندن وهي لا تنفك تتلفّت خلفها كما لو كانت تخشى شيئاً.

وبهذه المعلومات وحدها تمكّن رجال الشرطة من الاهتداء إلى الفتاة، واتضح أنها تُدعى دوريس إيفانس، فاتهموها بجريمة القتل وهم ينذرونها بأن كل ما تنطق به قد ينقلب ضدّها، ومع ذلك فقد أصرّت على إلقاء بيان أعادته بعد ذلك دون اختلاف عند استجواباتها التالية، فقد قالت إنها تعمل كاتبة على الآلة الكاتبة وإنها تعرفت في إحدى دور العرض على رجل حسن المظهر

يُدعى أنتوني دعاها إلى زيارته في بيته في صننغ ديل، ولم تكُن تشكّ في تلك اللحظة ولا في أية لحظة تلت أنه متزوّج. وقد اتفقا في تلك الليلة على أن تأتي لزيارته في يوم الأربعاء التالي، وهو اليوم الذي سافر فيه الخادمان إلى لندن وخرجت فيه الزوجة لتقوم بزيارة صديقة لها، وأخيراً ذكر لها أن اسمه سيسل وأعطاها عنوان بيته، وبلغت البيت في المساء فاستقبلها سيسل، وكان قد عاد لتوّه من أرض الغولف. ومع أنه قال لها إنه مسرور برؤيتها فإن الفتاة لاحظت من أول وهلة أن سلوكه قد تغيّر وأنه اختلف عما كانت ترجو وتأمل، وتملّكها الخوف وبدأت تشعر بالندم لمجيئها.

وبعد أن تناولا عشاءً خفيفاً كان قد أُعدّ من قبل اقترح سيسل أن يقوما بنزهة في الخارج، وقبلت الفتاة فأخذها إلى أرض الغولف. وبينما كانا يجتازان أرض الركام السابع بدا وكأنه أصيب بمسّ من الجنون فأخرج مسدسه وقال إنه قد بلغ آخر المطاف وإنّ كل شيء يجب أن ينتهي لأنه أفلس، ثم أردف قائلاً: "وستتبعينني يا دوريس، سأقتلك أولاً ثم أنتحر بعد ذلك، وسيعثرون صباح الغد على جثتينا الواحدة بجوار الأخرى وقد وحّد الموت بينهما"، وأمسك الفتاة من يدها فحاولت أن تتخلص منه وأن تنزع المسدس، وراحا يناضلان بكل قوة. ومن المعقول أنه أمسكها من شعرها وتعلق بثوبها في أثناء ذلك، وأخيراً تمكّنت من أن تخلّص نفسها وأن تهرب بكل قواها متوقعة في كل لحظة أن تصيبها رصاصة في ظهرها، ووقعت مرتين وهي تجري، ولكنها أفلحت أخيراً في بلوغ الطريق العام والذهاب إلى المحطة.

تلك هي القصة التي روتها دوريس إيفانس وهي تنكر كل الإنكار أنها غرزت دبوساً في قلب الرجل حتى في حالة الدفاع عن النفس، ولعلها مخطئة في هذه النقطة، وتعزيزاً لقصتها عُثر بجوار

الجثة على مسدس لم تنطلق منه أية رصاصة. وقُدمت دوريس إيفانس إلى المحاكمة، ولكن كل ذلك لم يحلّ سرّ القضية. وإذا سلّمنا بصحّة أقوالها فمَن الذي قتل سيسل إذن؟ أهي المرأة الأخرى ذات الثياب البنّية التي أقلق ظهورها القتيل كل هذا القلق؟ حتى هذه اللحظة لم يستطع أحد أن يفسّر دورها في تلك القضية، فيبدو أنها تبخّرت بسرعة كما ظهرت بسرعة. فمن هي؟ أهي من أهالي المنطقة أم مجرّد عابرة؟ وإذا كانت غريبة عن القرية فهل جاءت بسيارة أم بالقطار؟ وفيما عدا قامتها يبدو أنه لا يوجد من يستطيع الإدلاء بأوصافها. ومهما يكُن من أمر فلا يمكن أن تكون دوريس إيفانس لأن تلك الأخيرة شقراء وقصيرة القامة، ثم إنها كانت في تلك اللحظة بالذات تهبط من القطار في المحطة.

قالت توبنس: والسيدة سيسل؟

- هي الأخرى امرأة قصيرة القامة لسوء الحظ، ثم إن هولابي يعرفها جيداً. وقد اتضح فعلاً أنها كانت في زيارة صديقة لها عند وقوع الجريمة. وبعدما مات سيسل اتضح أن شركة بروكومين للتأمين كانت تصفّي أعمالها، وقد كشفت الحسابات عن اختلاسات كبيرة، وإذا أخذنا هذا في الاعتبار فإن انفعال سيسل أمام دوريس يتخذ معنى واضحاً، فلا ريب أنه بدأ يختلس منذ سنوات دون أن يشكّ هولابي أو ابنه في الأمر وقد أفلسا هما الآخران تقريباً. خلاصة القول أن الكابتن سيسل كان على أبواب الإفلاس والفضيحة، وكان الانتحار يبدو حلاً معقولاً، ولكن طبيعة الإصابة تبعد هذه النظرية.

وسكت تومي أخيراً وجرع جرعة كبيرة من اللبن، كما عبس وقضم بحذر قطعة من الفطيرة ثم قال: وطبعاً عرفت على الفور

أين الخلل.

- حقاً؟

فهزّ تومي رأسه بمرارة ثم قال: الواقع أنه من السهل أن يقوم المرء بدور الرجل الكهل الجالس في ركنه، ولكن إلى نقطة معيّنة فحسب. ومن الخير أن أعترف لك الآن أنني لا أعرف الحلّ.

ثم أخرج بعض قصاصات الجرائد من جيبه وقال: إليك صوراً أخرى قد تهمّك. إنها صور المشتركين في المأساة.

ففحصت توبنس صورة دوريس إيفانس ثم قالت: إنها لم تقتله بدبوس قبعة على كل حال.

- ولمَ هذا اليقين؟

- أولاً لأن شعرها قصير، والنساء الآن لا يستخدمن دبابيس الشعر، فقد تغيرت صيحة الزينة ولم تعُد النساء في حاجة إلى استخدام مثل هذه الدبابيس.

- ولكن لم يكُن هذا ليمنع أن يكون معها دبوس.

- لا تظن يا عزيزي أننا نحتفظ بهذه الدبابيس العتيقة كما لو كانت من الجواهر والحليّ. ما السبب في تأخذ تلك الفتاة دبوساً معها إلى صننغ ديل؟

- لا ريب إذن أن المرأة الأخرى هي التي قتلته، أعني ذات الثياب البنّية.

- كنت أفضّل أن لا تكون طويلة القامة، ولو كان كذلك لكانت الزوجة هي القاتلة بلا ريب. إنني أشتبه دائماً في الزوجة الشرعية التي تغيب في اللحظة المناسبة، وبهذا يبدو أنه لا دخل

لها في المأساة التي كلّفت زوجها حياته. لو أنها اكتشفت أن زوجها يغازل دوريس إيفانس فمما لا ريب فيه أنها قتلته بالدبوس.

– هل أفهم من هذا أنني يجب أن أكون حذراً إذا حدث ونسيت أنني زوجك المحبوب؟

ولكن توبنس كانت مستغرقة في أفكارها فلم تجارِه في دعابته وقالت: وما هو الطابع العام المعروف عن سيسل وزوجته؟ ماذا يقولون عنهما؟

– الشائع عنهما أنهما كانا يحظيان باحترام الجميع وأنهما كانا متعلّقين أحدهما بالآخر، وهذا ما يجعل قصة دوريس إيفانس تبدو غريبة، فإن آخر شيء كان يمكن أن نسمعه عن سيسل هو مغازلته لتلك الفتاة، فهو ضابط سابق ويملك ثروة لا بأس بها استثمرها في التأمين، ولم يكُن من المعقول أن يغدو نصّاباً.

– هل ثبت حقاً أنه نصّاب؟ ألا يمكن أن يكون الاثنان الآخران هما اللذان اختلسا المال، أعني هولابي وابنه، ولكنهما أفلسا، أو هذا ما يدّعيانه على الأقل؟ لعلهما أودعا المال في مصرف آخر باسم زائف. أعترف بأن تفسيراتي غير واضحة جداً ولكنني واثقة أنك تفهمني. لنفرض أن آل هولابي يغامران منذ مدة طويلة وأنهما خسرا كل شيء، ولو صحّ هذا فإنه يكون من الضروري أن يختفي سيسل.

ربت تومي بأصابعه على صورة هولابي الشاب ثم قال: إذن أنت تتهمين هذا الرجل المحترم بأنه قتل شريكه وصديقه، وتنسَين أنه ترك سيسل على أرض الغولف أمام برنارد وليكي وأنه أتم السهرة في النادي، ومن ناحية أخرى ما زالت توجد قصة ذلك الدبوس الذي لا يجب أن ننساه.

- فليذهب دبوسك إلى الجحيم. إنك تعتبر أن الجريمة ارتكبتها امرأة إذن، أليس كذلك؟

- بالتأكيد، ألست معي في هذه النقطة؟

- نعم، أنا لست معك على الإطلاق.

- لماذا؟

- لأن الرجال في إنكلترا يتمسكون بالتقاليد القديمة أكثر منهم في أي مكان آخر، ولأنه لا بدّ لكم من وقت طويل كي تتخلصوا من هذه الآراء المتخلفة، ولهذا فأنت تربط الشعر بالجنس الضعيف وتعتبرها أسلحة نسائية. لعل هذا كان صحيحاً في الماضي ولكن في أيامنا هذه...

- إذن أنت تظنين...

- أظن أن الذي قتل سيسل رجل، ولم يستخدم الدبوس إلا لإقناع الشرطة بأن الجريمة ارتكبتها امرأة.

- يوجد شيء هام في قولك هذا يا توبنس، ومن الغريب أن الحقائق تنتظم وتتخذ سمة جديدة عند مناقشتها.

- إذا كان كل شيء يترابط منطقياً فمعنى ذلك أنك قرّرت أن تحلّ المشكلة بدراستها من أولها إلى آخرها. تذكّر تلك الملاحظة التي أبداها ماريوت ذات يوم بخصوص استعداد الهاوي لمهنتنا أن يضع نفسه دائماً مكان ذلك الذي يطارده، وهذا ما لا يستطيع رجل الشرطة الحقيقي أن يفعله لإحساسه بالضجر. ماذا تعرف عن الكابتن سيسل وزوجته؟

وابتسم تومي وسألها: هل يجب أن أفهم أنك تعتبرين نفسك

خبيرة في الأشياء التي تمتلكها النساء ذوات الشعر القصير، وفي المشاعر التي يمكن أن تحسّ بها الزوجات والطريقة التي يمكن أن يتصرفن بها؟

- هو ذلك تقريباً مهما كان رأيك.

- وأنا؟ ما هي الموهبة الخاصة التي أتميز بها؟

- إنك تعرف أرض الغولف في صننغ ديل تمام المعرفة، وقد مارست اللعبة فيها وأعتبرك خبيراً في الغولف، ويجب أن تخمن ما هو الشيء الذي يحتمل أن يربك لاعباً في أثناء مزاولته اللعبة إلى حدّ أن يشوش عليه لعبته نهائياً.

- لا ريب أنه أمر جلل جداً لأن سيسل لاعب ممتاز، وقد راح يلعب بعد أن بلغ الحفرة السابعة كما لو كان مبتدئاً.

- من الذي قال ذلك؟

- برنارد وليكي، ألا تذكرين؟ لقد كانا يلعبان خلفه.

- حدث هذا بعد أن التقى سيسل بالمرأة ذات الثياب البنّية، وقد رآه برنارد وليكي يتحدث معها، أليس كذلك؟

- هو فعلاً ما...

وأمسك تومي فجأة فنظرت زوجته إليه بدهشة، وكان يحدق في قطعة الخيط التي يمسكها في يده، ولكنه كان يبدو وكأنه كان يتأمل شيئاً لا يراه أحد غيره.

- تومي، ما الخبر؟

- انتظري يا توبنس. إنني ألعب أمام الحفرة السادسة في صننغ ديل، وسيسل وهولابي أمامي، وقد بدأ النهار ينصرم، ولكنني

أتبين جيداً الرداء الأزرق الذي يرتديه الكابتن. وفي الممر على يساري تتقدم امرأة، وهي لم تعبر الطريق المخصص للنساء الذي على يميني وإلا لكنت رأيتها، ومع ذلك فإن الأمر غريب، فأنا لم أرَها قبل ذلك وأنا في الحفرة الخامسة مثلاً. لقد قلت الآن إنني أعرف أرض الغولف جيداً، وخلف الركام السادس توجد خميلة صغيرة يستطيع أي شخص أن يختبئ فيها وأن يغيّر مظهره. يجب أن ألجأ إلى ذكائك من جديد. أيكون من العسير على رجل أن يتنكّر في صورة امرأة؟ هل يستطيع مثلاً أن يلبس تنورة فوق الإزار القصير الخاص بالغولف؟

- بكل تأكيد، وستبدو امرأة بدينة بعض الشيء ولا شيء أكثر من ذلك، تنورة بنيّة اللون طويلة نوعاً ما، ومعطف من نفس النوع الذي يرتديه الرجال والنساء معاً، وقبعة من اللباد مثبت بها بعض خصلات من الشعر من الناحيتين، وكل هذا يكفي لأن يخلق الوهم عن بُعد طبعاً لأنني أتصور أن هذا هو ما تفكر فيه. وما إن ترفع التنورة والقبعة وتضع طاقية حتى تعود رجلاً من جديد.

- وما هي المدة الكافية لتنفيذ ذلك؟

- أقل من دقيقتين طبعاً.

- ها أنا ذا إذن ألعب أمام الحفرة السادسة، وتبلغ المرأة ذات الثياب البنّية ركام الحفرة السابعة ثم تقف، ويتقدم سيسل بردائه الأزرق نحوها ويتبادلان الحديث لحظة، ثم يمضيان في الطريق الذي تحفّ به الأشجار ويختفيان. وينتظر هولابي وحدة في أرض الغولف وتمضي لحظة، وأتقدّم أنا مسافة، ثم يظهر الرجل ذو المعطف الأزرق من جديد ويستأنف اللعب ولكنه يرتكب أخطاء كثيرة، ويخبو ضوء النهار أكثر فأكثر ونستمرّ أنا وزميلي في اللعب

وهولابي وسيسل أمامنا، وتكثر أخطاء ذلك الأخير، وعندما يصل إلى الحفرة الثالثة أراه يبتعد بخطوات واسعة ولا تقع عيناي عليه بعد ذلك، فماذا حدث بحيث يلعب كما لو أن رجلاً آخر هو الذي يلعب؟

- اللقاء الذي تم بينه وبين المرأة ذات الثياب البنّية، أو الرجل إذا كنت تفترض أنه كان رجلاً.

- تماماً، فحيث كان يقف توجد أجمة كثيفة يمكن إخفاء جثة فيها.

- تومي، ماذا تقول؟ كان من الجائز أن يسمع أحد...

- ماذا يسمع؟ لقد اتفق الأطباء على أن الموت كان سريعاً، وقد رأيت رجالاً يسقطون في أثناء الحرب دون أن يصدر منهم أي صوت، ولكن سيسل كان يتقدم نحو الحفرة السابعة وذهبت المرأة للقائه، ولعله عرف فيها رجلاً بدت ملامحه مألوفة لديه فدفعه الفضول إلى معرفة سبب هذا التنكّر فمضى إليه، وكانت ضربة واحدة من الدبوس كافيه لقتله فوقع صريعاً، ثم جرّ القاتل جثته إلى الأجمة ثم لبس المعطف الأزرق واختفى تنكّره النسائي قبل أن يعود إلى أرض الغولف. ولا يرى اللاعبان اللذان يتبعان إلا معطف الكابتن المعروف، ولهذا اعتقدا أنه هو الكابتن سيسل، ولكن القاتل لم يكُن متمكناً من اللعب تمكُّن سيسل منه، وقد أجمع الشهود على أنه كان يلعب كما لو أن رجلاً آخر هو الذي يلعب، وكانوا على حق في هذا يا توبنس لأن رجلاً آخر غير الكابتن سيسل هو الذي كان يلعب مكانه.

- ولكن...

- وقد تسبّب رجل آخر غير سيسل في مجيء دوريس إيفانس، فليس الكابتن سيسل هو الذي تعرّف على فتاة في دار العرض وأقنعها بأن تذهب لزيارته في صننغ ديل، وإنما رجل آخر اتخذ اسم سيسل لهذه المناسبة. ولا تنسَي أن الشرطة لم يقبضوا على السيدة إيفانس إلا بعد خمسة عشر يوماً وأنها لم ترَ الجثة قط، ولو أنها رأتها لأثارت دهشة الجميع لو أنها قالت إنه ليس الرجل الذي ذهب بها إلى أرض الغولف والذي هدّدها بأن يقتلها وينتحر.

وصمت تومي برهة ثم استطرد قائلاً: إننا أمام خطة مدبرة بعناية كبيرة، فقد دُعيت الفتاة إلى الكوخ يوم الأربعاء ولم يكُن به أحد في ذلك الوقت، ثم دبوس الشعر الذي سيحمل رجال الشرطة إلى توجيه اتهامهم إلى امرأة، فقد التقى القاتل بدوريس في الكوخ وعرض عليها أن تتمشى معه ثم اصطحبها إلى أرض الغولف، وعندما بلغا مسرح الجريمة أخرج مسدسه وأفزع الفتاة، وعندما هربت راكضة لم يبقَ عليه إلا أن يُخرج جثة سيسل وأن يضعها حيث يقف هو ودوريس ويلقي بالمسدس بجوار الجثة ويحزم ثياب التنكّر. ومن الواضح أنه ذهب بعد ذلك إلى محطة ووكينغ، وهي على بُعد سبعة أميال، سيراً على قدميه ثم عاد إلى لندن، وهذه النقطة الأخيرة ليست إلا مجرّد نظرية.

- يوجد شيء غير سليم في هذا البيان يا تومي، فقد نسيت هولابي.

- وكيف ذلك؟

- إنني معك في أن برنارد وليكي لم يلحظا استبدال سيسل بقاتله، ولكن ماذا عن زميله؟ أو لعلك تريد إقناعي بأن هولابي

كان مبهوراً بالرداء الأزرق بحيث لم يلتفت إلى شيء آخر.

- هنا عقدة المشكلة يا عزيزتي توبنس. لقد كان هولابي شريكاً، وهكذا ترَين أنني تبنّيت نظريتك في أن الأب والابن ارتكبا الجريمة لأنهما هما اللذان اختلسا المال وليس سيسل. إن الظواهر تدلّ على أن القاتل يعرف القتيل وحاشيته بحيث يعلم أن الخادمَين غير موجودَين بالكوخ يوم الأربعاء وأن السيدة سيسل ستكون غائبة هي الأخرى فيتحايل لصنع مفتاح للكوخ. وأرى أن كل هذه المبررات تنطبق على هولابي الشاب، ثم إن له تقريباً قوام سيسل وبدانته كما أنه حليق الوجه، ولا ريب أن دوريس إيفانس قد رأت صورة القتيل في الجرائد، وكما قلت أنت نفسك يا عزيزتي لم تستطع أن تتبين الفرق في الملامح.

- ولكن ألم تلتقِ بهولابي الشاب في أثناء المحاكمة؟

- إنه لم يظهر طَوال المحاكمة. ولماذا يفعل؟ لم يكُن بحاجة إلى الإدلاء بأية شهادة لأن الكهل هولابي تولى كل شيء بدليل إثباته الحاسم الذي لا يقبل أيّ جدل. ولم يفكر أحد في أن يسأل أين كان الابن في الوقت الذي كان الأب يلعب فيه الغولف مع سيسل.

- أعترف بأن كل شيء في بيانك يبدو مترابطاً جداً، ولكن هل تعيد إلقاء هذا البيان على مسامع اسكتلنديارد؟

- أخشى أن لا يعيروني آذاناً صاغية.

وسمع تومي صوتاً خلفه يقول: تكون مخطئاً إذا خطر لك ذلك يا سيد بيريسفورد.

فتحوّل تومي كي ينظر خلفه فرأى ماريوت وقد فرغ من غدائه، ثم قال ذلك الأخير: إنني أتناول الغداء هنا في بعض

الأحيان، وأستطيع أن أؤكد لك يا سيد بيريسفورد أن اسكتلنديارد ستستمع إليك. والحق أنني أستطيع أن أقول لك الآن بالذات إنها استمعت إليك لأننا لم نشعر بأيّ ارتياح إلى نتيجة التحقيق. إننا نشتبه في هولابي وابنه منذ وقت طويل، ولكننا لم نجد أيّ سبب لإزعاجهما، فهما ماكران جداً، ولكن بدا أن جريمة صننغ ديل قد أظهرت لنا خطأنا من ناحية الأب والابن، وبسببك أنت والسيدة بيريسفورد سنواجه دوريس إيفانس بهولابي الشاب، أما نظريتك فيما يتعلق بالمعطف الأزرق فمدهشة حقاً، وسأحرص على أن أذكر أن مكتب بلانت الدولي للأبحاث هو الذي استطاع أن يجلو سرّ هذه الجريمة.

- هذا كرم كبير منك يا ماريوت.

- إننا نقدّركما كثيراً في اسكتلنديارد يا سيد بيريسفورد، ولكن هل أستطيع أن أعرف ما فائدة قطعة الخيط التي بين أصابعك؟

فارتبك تومي ودسّ الخيط في جيبه ثم قال: لا شيء. إنها عادة قبيحة اعتدت عليها، أما فطيرة الجبن وكوب اللبن فهو نظام غذائيّ خاص أنا مضطرّ إلى اتّباعه.

فتظاهر ماريوت بأنه يصدّقه ثم قال: لقد ظننت أنك قرأت الكثير من الروايات البوليسية، وخُيل إليّ... ولكن ليس لهذا أية أهمية. إن النتيجة وحدها هي التي تهمّ.

* * *

-٩-

بيت الموت

بدأت توبنس تقول: ماذا...

ولكنها سرعان ما أمسكت وهي على عتبة باب السيد بلانت وهي ترى زوجها لاصقاً عينه على منظر الباب، ثم همس تومي قائلاً: صه، ألم تسمعي وأنت في غرفتك جرس الباب وهو يرنّ معلناً قدوم بعض العملاء؟ لقد جاءتنا زائرة شابة جميلة جداً، وألبرت يذكر لها الآن العبارة المألوفة، وهي أنني أتكلّم في الهاتف مع إدارة اسكتلنديارد.

- دعني...

وتخلّى تومي عن مكانه لزوجته على مضض ثم قالت هذه: لا بأس بها فعلاً، وثيابها أنيقة طبقاً لآخر صيحة.

- إنها تحملني على التفكير في الفتيات اللاتي يستلهم ميسون نماذجه منهن، فهي جميلة جداً وظريفة جداً وفاتنة ورقيقة ولكن في اعتدال. أظن أنني سأكون اليوم هانو العظيم.

- هانو العظيم؟ إذا كان يوجد مخبر مشهور لا تشبهه في شيء فهو صاحبنا هانو. هل أنت جدير بتغير شخصيتك في لمح البصر

وأن تنتقل من شخصية ممثل عظيم إلى طفل من أطفال الشوارع أو إلى صديق حميم؟

فهوى تومي بقبضته على المنضدة وقال: يوجد شيء أرجو أن لا يغيب عن ذهنك يا توبنس، وهو أنني أنا الذي أدير المكتب.

وضغط الجرس، وعلى الفور أدخل ألبرت العميلة التي توقفت على الباب متردّدة، فتقدّم السيد بيريسفورد إليها وعلى شفتيه ابتسامة أبوية وقال: ادخلي يا آنسة، تعالَي واجلسي هنا.

فانفجرت توبنس ضاحكة فرماها تومي بنظرة صارمة قائلاً: هل تكلّمت يا آنسة روبنسون؟ لا، لا ريب أنني أخطأت. والآن يمكنك أن تبثّيني همومك يا آنسة كي نبحث معاً عن خير وسيلة لمساعدتك.

- أنت ظريف جداً يا سيدي. ولكن معذرة، هل أنت أجنبي؟

فضحكت توبنس من جديد فنظر تومي إليها غاضباً وقال بمشقة: ليس تماماً، ولكنني عملت كثيراً خارج بريطانيا العظمى في الأيام الأخيرة وتطبعت برقة رجال الشرطة الفرنسيين.

وومض في عينَي الفتاة بريق إعجاب. لقد كانت جميلة نحيلة العود لها عينان واسعتان جادتان، وتفلت خصلاتها الذهبية من قبعتها الصغيرة، ولا ينمّ عن انفعالها غير توتر أصابعها التي لا تكفّ عن اللعب بقفل حقيبتها. وراحت تقول بصوت عذب: اسمي لوسي هارغريفس، وأقيم في بيت كبير عتيق يُعرف باسم تارنلي غرانغ يقع في قلب الريف ونزاول فيه الصيد في فصل الشتاء ولعب كرة المضرب في فصل الصيف. ويجب أن أعترف أنني لم أشعر بالضيق

والضجر قط، والحقيقة أنني أفضّل حياة الريف على حياة المدن بكثير، ولكن أقل حادثة في القرية تأخذ أهمية كبيرة كما هي العادة، فمنذ أسبوع وصلني عن طريق البريد طرد به علبة شكُلاتة لا يحمل أية إشارة إلى مرسِله، وأنا لا أحبّ الحلوى كثيراً، ولهذا قدّمت الشوكولاتة للموجودين، وأعني بهم المقيمين معي في تارنلي غرانغ. وفي صباح اليوم التالي كان الجميع يشكون من المرض إلا أنا طبعاً، واستدعيت طبيبنا الدكتور بيرتون الذي سألنا عما تناولناه أمس، ثم أخذ ما تبقّى من الشوكولاتة لتحليلها. لقد وجدها تحتوي على كمّية من الزرنيخ يا سيد بلانت، كمية ليست كافية كي تقتل، ولكن كي تظهر أعراض المرض على من يتناولها.

- هذا غريب!

- وقد أزعج هذا الاكتشاف الدكتور بيرتون لأن هذه كانت ثالث مرة يقع فيها مثل هذا الحادث في قريتنا، وكان يبدو أن بيتاً كبيراً قد اختير في كل مرة، وأن المرسِل الغامض أرسل إليه بعضاً من الشوكولاتة المسمّمة، وهذا يدلّ على أنه من أهالي القرية، ولعله شخص مختلّ العقل يحلو له أن يتخابث مع من خصّهم الحظ عنه. وعلى الرغم من أنني لا أشارك الدكتور بيرتون رأيه فإنه يصرّ على أن ينسب هذه القصة إلى الفوضويين. والواقع أن قرية تارنلي تعج ببعض المستائين الذين لا يرضون بحظهم، وقد يكون صاحبنا الذي يحلو له أن يرسل الطرود المسممة منهم. وقد نصحني الدكتور بيرتون بأن ألجأ إلى رجال الشرطة في الحال.

- هذه نصيحة طيّبة، وأظن أنك لم تتبعيها.

- أجل. إنني أخشى الدعاية التي لا بدّ أن تنتج عنها، ثم إنني واثقة من أن رجال الشرطة المحلّيين غير أكفاء لاكتشاف أيّ شيء.

وكنت قد قرأت إعلانكم في الجرائد فقلت للدكتور بيرتون إن من الحكمة أن أستشير مخبراً خاصاً، وإنك تذكر في إعلانك أنكم تكتمون الأسرار. وإذا سمحت لي فإنني أرجو أن لا تذيع شيئاً قبل أن تحصل على موافقتي.

فقطب تومي جبينه ولكن توبنس أسرعت تقول نيابة عنه: أظن أنك تتصرفين وفقاً لمصلحتك إذا أنت ذكرت لنا السبب الحقيقي لانزعاجك.

فتململت الفتاة مترددة فقال تومي بإصرار: إن الآنسة روبنسون على حق، يجب أن تذكري لنا كل شيء.

وقالت توبنس: إن ما يذكره لنا عملاؤنا يظل دائماً في الكتمان.

- إذا كان الأمر كذلك فإنني أستطيع أن أعترف لكما بأنني لا أريد أن ألجأ إلى الشرطة لأنني أشتبه في أن مرسِل الطرد شخص من المقيمين معي.

- وعلامَ تبنين شكوكك هذه يا آنسة؟

- كلما وجدت معي قلماً خططت رسماً صغيراً اعتدت عليه دائماً، وهو عبارة عن ثلاث سمكات متشابكات، ومنذ أيام جاءني طرد به جوارب كنت قد طلبتها من لندن، وكان ذلك في أثناء تناولنا الطعام، ودون تفكير وقبل أن أفكّ الطرد خططت رسمي المفضل في ركن البطاقة. وقد نسيت هذا الأمر، ولكنني عندما فحصت الورق الذي استخدمه المرسِل في تغليف علبة الشوكولاتة رأيت أنه استخدم ورقة قديمة وأنه انتزع منها قبل ذلك البطاقة التي كانت بها اسم المرسَل إليه السابق وكان قد بقي منها جزء، وعلى ذلك

الجزء وجدت الرسم المذكور.

- يبدو أنك وضعت إصبعك على أثر حقيقيّ. ولكن اغفري لي إصراري، فإنني لا أفهم لماذا لا تلجئين إلى الشرطة حتى إذا كان مرسِل الطرد من أصدقائك.

- لنقُل إنني أريد أن أتحاشى كل دعاية ممكنة يا سيد بلانت.

- هذا مفهوم. وأظن أنني أستطيع أن أقول إنك لست مستعدة للكشف عن اسم الشخص الذي تشتبهين فيه.

- إنني لا أشتبه في أحد بالذات، ولكن توجد بعض الاحتمالات فحسب.

- حسناً، هل يمكنك أن تحدّثيني عن الأشخاص الذين يقيمون معك؟

- إن الخدم كلّهم مسنّون، وهم يقومون بخدمتنا منذ سنوات طويلة فيما عدا الفتاة المكلفة بخدمة المائدة. ويجب أن أقول إن خالتي السيدة رادلكيف هي التي ربتني، وقد جمع زوجها ثروة كبيرة ونال وسام الفروسية واشترى قصر تارنلي غرانغ، ولكنه مات بعد سنتين من إقامته فيه، وبعد موته استدعتني خالتي كي أقيم معها، ولم يكُن لي في الدنيا غيرها. وكان دنيس رادلكيف ابن أخي زوجِها يقيم معها هو الآخر، وأنا أعتبره ابن عمّ لي على الرغم من أنه ليست لي به صلة قربى. وقد ذكرت لنا خالتي منذ البداية أنها ستوصي بكلّ ثروتها لدنيس ما عدا دخلاً بسيطاً أعيش منه؛ فقد كانت تريد أن تعود ثروة زوجها إلى أحد أفراد أسرة رادلكيف، ومع ذلك، وبعد أن بلغ دنيس الثانية والعشرين من عمره اختلف مع

زوجة عمه فجأة، وأظن أن ذلك كان بسبب دَين استدانه، وعندما ماتت زوجة عمه بسنة دهشتُ حين اكتشفت أنها غيّرت وصيتها وأنني أنا التي ورثت كل ثروتها، وكانت صدمة شديدة الوقع على دنيس. وأنا شخصياً ما كنت لأتردّد أن أعطيه المال كلّه لو أنه قبله، ولكن يبدو أنه في مثل هذه الحالة بالذات يعترض القانون على مثل هذه الهبة. خلاصة القول أنني عندما بلغت الحادية والعشرين كتبت وصية لصالحه أوصي له بكل ثروتي.

- ومتى بلغت سنّ الرشد؟

- منذ ثلاثة أسابيع.

- لنعد إلى الأشخاص الذين يقيمون معك، من هم؟

- السيدة كالواي، وهي العجوز الطاهية، وتساعدها ابنة أختها روز، وامرأتان مسنّتان هما الخادمة القديمة والعمة لوس، وتلك الأخيرة تخلص لي كل الإخلاص، وإستر كوانت، وهي الفتاة التي تقوم بخدمة المائدة، وهي ظريفة ورقيقة جداً، ثم توجد الآنسة لوجان، وكانت فيما سبق وصيفة لخالتي، وهي تقوم بإدارة شؤون البيت الآن، ودنيس رادلكيف، وقد حصل الآن على رتبة ملازم ويقيم معنا، كما توجد الآنسة ماري شيلكوت وهي صديقة قديمة لي كانت معي في المدرسة الداخلية. هؤلاء هم الذين يعيشون معي.

- ولكن من المفهوم أنك لا تشتبهين في أحد منهم بصفة خاصة، ولعلك تعتقدين أن الأمر يتعلق بإحدى خادماتك أكثر من أي شخص آخر، أليس كذلك؟

- لا أستطيع التأكد من ذلك؛ فإن البطاقة التي حرّرها المرسِل

كانت مكتوبة على الآلة الكاتبة.

- يجب أن أذهب إلى المكان بنفسي، فهل يمكنك أن تمهّدي الطريق لحضورنا؟ وليكُن ذلك باسم السيد والسيدة فان دوران، ويمكنك أن تقولي إننا صديقان حميمان لم نلتقِ منذ مدة طويلة.

- حسناً، هذا إجراء سهل طبعاً. متى تأتيان؟

- غداً، فلا داعي إلى أن نضيع مزيداً من الوقت.

وعندما استأذنت الفتاة في الانصراف نصحها السيد بلانت قائلاً: لا تُطلعي أيّ أحد على حقيقة شخصيتنا.

- اعتمد عليّ.

وشيّع زائرته إلى الخارج ثم عاد إلى توبنس فسألها رأيها في تلك القضية فقالت: إنني لا أحبّ ذلك، خصوصاً أن كمّية الزرنيخ التي وُضعت في الشوكولاتة قليلة.

- ماذا تقصدين؟

- ألا تفهم؟ إن هذه الشوكولاتة التي أُرسلت إلى تارنلي غرانغ لم يُقصد بها إلا خلق أثر كاذب والإيهام بوجود حسود، وكل ذلك لإبعاد الشكوك في اليوم الذي تقع فيه الفتاة ضحية لتسمّم ما بأيّ شكل آخر. ولولا تلك البطاقة القديمة لما اشتبه أحد في أن المرسِل من المقيمين في تارنلي غرانغ.

- يجب أن نسلّم بأنه ارتكب خطأ كبيراً. هل تظنين أنه توجد محاولة تُدبّر ضدّ الفتاة بالذات؟

- أخشى ذلك. وأذكر أنني قرأت شيئاً عن الميراث الذي تركته لها السيدة العجوز، والحق أن الثروة تبلغ رقماً كبيراً.

- ومن ناحية أخرى فإن الوصية التي كتبتها لوسي هارغريفس لصالح ابن العم مهمة جداً بالنسبة إليه.

- وأسوأ ما في الأمر أنها تشتبه فيه، ولهذا تأبى أن تلجأ إلى الشرطة. هل تريد رأيي؟ إنها تحبه على الرغم من شكوكها.

- لماذا لا يتزوّجها إذن؟ إن هذا يسهّل الأمور.

فنظرت توبنس إلى زوجها ملياً ثم قالت: لقد أثرت نقطة هامة. لأيّ سبب يلجأ إلى وسيلة إجرامية شديدة الخطر ما دامت أمامه وسيلة شرعية كي يستردّ ثروته؟

وفكّرت قليلاً ثم استطردت قائلة: لعله تزوّج بفتاة ما في أثناء دراسته في أُكسفورد، ولعل هذا هو السبب الحقيقي لخلافه مع عمته.

- لو صحّ هذا فقد كان من الأفضل أن يرسل الشوكولاتة إلى الفتاة التي تزوّجها، فإن هذا يدلّ على ذكاء أكثر. أرى يا توبنس أن لا تقفزي إلى النتائج العاطفية مباشرة هكذا.

- لقد انتهيت فقط إلى نهاية استنتاج منطقيّ.

- منطقيّ؟ ربما بالنسبة إليك.

- على كل حال ستكون وحدك عندما تواجه الثور، وعندئذ سنرى هل تبقى في العرين عشرين دقيقة كاملة أم لا.

وكان ردّ تومي على ذلك أن رماها بوسادة أصابتها في رأسها.

* * *

في صباح اليوم التالي كان تومي ينتظر طعام إفطاره، ولكنه استدعى زوجته فجأة فأقبلت متسائلة: ما الخبر يا تومي؟

فألقى بجريدة الصباح بين يديها وهو يشير بإصبعه إلى عنوان كبير في الصفحة الأولى كان نصّه: "تسمُّم غامض بمرّبى تين. وقع تسمم غامض في قصر تارنلي غرانغ، وحتى مثول الجريدة للطبع أسفر عن وفاة شخصين هما الآنسة لوسي هارغريفس صاحبة البيت وإستر كوانت إحدى الخادمات، أما الكابتن رادلكيف فهو في حالة خطرة. وقد حدث التسمّم من تناول شطائر بمربى التين. والسيدة شيلكوت هي الوحيدة التي لم تتناول شيئاً منها، وهي في صحّة جيّدة".

وصاح تومي قائلاً: يجب أن نذهب فوراً. يا إلهي! لقد كانت تلك الفتاة تتفجّر حياة وصحّة أمس فقط، وقد جاءت تبثّنا همومها، فلماذا لم أصحبها على الفور؟

- لو أنك فعلت لأكلت من تلك الشطائر ولكنت أنا الآن أرملة. أرى أن دنيس رادلكيف في حالة خطيرة إذا صحّ ما ذكرته الجريدة.

- لا ريب أن ذلك الوغد يتظاهر بالمرض.

* * *

وصل السيد بيريسفورد وزوجته إلى تارنلي غرانغ قُبيل الظهر، وفتحت لهما امرأة عجوز منتفخة العينين لفرط البكاء، وتفرست فيهما بشكّ فقال تومي يطمئنها: لا تخافي، إننا لسنا من الصحفيين. لقد جاءتني الآنسة هارغريفس أمس لاستشارتي، وكان من المتفق أن آتي اليوم. هل أستطيع أن أتحدّث مع أحد في البيت؟

- إن الدكتور بيرتون هنا إذا أردت أن تراه، هذا إلا إذا آثرت أن تتحدث مع الآنسة شيلكوت، فهي التي تهتم بكل الإجراءات.

- إذا استطاع الدكتور بيرتون أن يكرس لنا بضع دقائق من وقته فإنني أحب أن أتحدث معه.

ومضت بهما الخادمة إلى غرفة استقبال صغيرة، وبعد خمس دقائق أقبل رجل أشيب الشعر محدودب الكتفين حلو النظرات جبينه مثقل بالهموم، ثم قال: أنا الدكتور بيرتون.

فقدّم له تومي بطاقته التي تدلّ على أنه شرطة سرّية وقال: لقد جاءتني الآنسة هارغريفس أمس بخصوص شكُلاتة مسمّمة، وأنا قادم للتحقيق بناءً على رغبتها، وإن كنت قد جئت متأخراً لسوء الحظ. أقدّم لك مساعدتي الآنسة روبنسون.

فانحنى الطبيب أمام توبنس ثم قال: لا أستطيع أن أسكت عن بعض الوقائع نظراً للظروف، ولولا حادث الشوكولاتة لعزوت الأمر إلى طعام فاسد أدّى إلى التهاب معويّ حادّ مصحوب بنزيف، أما الآن وقد أصبحت مرتاباً بسبب الحادث الذي جاء بي إلى هذا البيت فإنني أرى أنني مضطرّ إلى تحليل مربى التين.

- هل تشتبه في حالة تسمّم جديدة بالزرنيخ؟

- لا، فإن السمّ، إذا كان يوجد سمّ، أشدّ فتكاً وتأثيراً في هذه الحالة، ولديّ ما يحملني على الاعتقاد بأنه سمّ مستخرَج من النبات.

- هل لك أن تذكر لي يا دكتور إذا كنت مقتنعاً بأن الكابتن رادلكيف يتألم من محاولة إجرامية أم لا؟

- إن الكابتن رادلكيف لا يتألم في الوقت الحالي من أي شيء.

- ماذا تعني؟

- أعني أنه مات في الساعة الخامسة من صباح اليوم.

فدهش تومي دهشة شديدة، وبينما كان الدكتور يهمّ بالخروج سألته توبنس قائلة: والمصابة الأخرى، الآنسة لوجان؟

- ما دامت قد ظلت على قيد الحياة حتى الآن فيداخلني الأمل في أنها ستنجو. يبدو لي أن السمّ لم يكُن له أي تأثير عليها، ربما بسبب تقدّمها في السنّ. وسأخبرك بالنتيجة بعد التحليل يا سيد بلانت، وفي أثناء ذلك ستطلعكما الآنسة شيلكوت على كل ما تريدان معرفته.

وعند الباب التقى بالآنسة شيلكوت، وكانت سمراء طويلة القامة حلوة البشرة هادئة النظرات. وقالت بهدوء: يسرّني أنك أتيت يا سيد بلانت، فإن هذه القضية قد أزعجتني كل الإزعاج. هل يوجد ما أستطيع أن أخبرك به؟

- من أين جاءت مربى التين؟

- إنها مربى خاصة نطلبها من لندن منذ وقت طويل، ولا شيء يميز ذلك البرطمان عن غيره. وأنا شخصياً لا أحبّ التين، وهذا هو السبب في أنني لم أُصَب، ولكنني على العكس لا أدري لماذا تسمّم دنيس، فهو لم يكُن هنا في أثناء تناول الشاي. لا ريب أنه أكل شطيرة عند عودته.

فأحسّ تومي بيد توبنس تضغط على ذراعه برفق ولكنه استطرد قائلاً: ومتى عاد؟

- لا أدري بالضبط، ولكنني أستطيع أن أسأل إذا أردت.

- شكراً يا آنسة شيلكوت، ولكن لا جدوى من ذلك. لعلك لا تعترضين على أن أستجوب الخدم، أليس كذلك؟

- يمكنك أن تفعل كل ما تريد يا سيد بلانت، فأنا شخصياً شديدة الإرهاق.

وتمتمت معتذرة وأولته ظهرها ذاهبة إلى الحديقة، وبعد بضع دقائق سمعها تومي تُصدر أوامرها للبستاني، فقال يخاطب زوجته: اهتمي أنت بالخدم يا توبنس ريثما أذهب إلى المطبخ. هل لاحظت أنها قالت إنها منزعجة؟ ومع ذلك فلا يبدو عليها أيّ حزن.

بعد نصف ساعة استعرض الزوجان المعلومات التي حصلا عليها، فقال تومي: لقد أكلت الفتاة المكلفة بخدمة المائدة شطيرة أمسٍ وهي ترفع الأطباق، وهذا يفسر موتها، وفي ذلك الوقت لم يكن دنيس رادلكيف قد عاد بعد، وعلى ذلك فعلينا أن نخمّن كيف تسمّم هو الآخر.

- لقد رأته الخادمة عند عودته في الساعة السابعة إلا الربع، وقد مضى إلى مكتبه حيث تناول العصير. لقد دخلتَ المطبخ في الوقت المناسب كي تأخذ منها الكأس التي شرب فيها قبل أن تغسلها، وقد قالت لي إن الكابتن بدأ يشكو من آلام في معدته بعد أن شرب العصير.

- سأذهب بهذه الكأس إلى الدكتور بيرتون فوراً. هل يوجد شيء آخر؟

- أريدك أن تأتي كي ترى الخادمة؛ فإن أمرها غريب.

- ماذا تقصدين؟

- لا أدري، ولكن يبدو أنها أُصيبت بمسّ من الجنون.

وقادته توبنس إلى الطابق الذي تقيم فيه حنة، وكانت الأخيرة جالسة منتصبة القامة فوق مقعد عالٍ والإنجيل مفتوح عند ركبتيها. وعندما دخلا رفعت عينيها إليهما ولكنها استمرّت تقرأ بصوت مسموع قائلة: وليقع الجمر المتأجج فوقهم كي يذوبوا في نار جهنم ولا تقوم لهم بعد ذلك قائمة.

وتقدّمت توبنس منها بخجل وقالت: هل أستطيع أن أقاطعك لحظة؟

ولكن حنة أتت بإشارة من يدها محنقة وقالت: ليس الآن لأن الوقت لا يسعفني، سأتبع أعدائي وأعذبهم ولن أتحوّل عنهم إلا حين أصعقهم. هذا هو المقدور. لقد زارني صوت الله وأنا يده.

فقال تومي: إنها تهزّ رأسها.

ورأى كتاباً مفتوحاً فوق المائدة فأخذه، وبعد أن ألقى عليه نظرة دسّه في جيبه، وفجأة نهضت المرأة العجوز وتقدّمت نحوهما وقالت متوعّدة: اخرجا من هنا. لقد أزفت الساعة، أنا يد الله، الريح تجمّع العاصفة، وكما تحطم الريح سأحطم أنا. يجب أن يموت الأشرار، وهذا البيت هو بيت الشرّ، الشرّ. أقول لكم احذروا غضب الله، فأنا يده.

وتقدّمت نحوهما فرأى تومي أن من الحكمة أن يتقهقر. وبينما هو يغلق الباب رأى حنة تأخذ الإنجيل فقال: هل هي كذلك دائماً؟

ثم أخرج الكتاب الذي كان قد دسّه في جيبه وقال: انظري ماذا تقرأ هذه المرأة العجوز.

فقرأت توبنس عنوان الكتاب قائلة: «الأدوية الطبّية»، تأليف إدوارد لوغان. إنه كتاب قديم. هل تظن أننا نستطيع زيارة الآنسة لوغان يا تومي؟ لقد قال الطبيب إن حالتها قد تحسّنت الآن.

- يجب أن نتأكد من ذلك أولاً، فلنسأل الآنسة شيلكوت.

- بل لنبحث عن خادمة ونرسلها في التماس مقابلة قصيرة.

وبعد بضع لحظات قالت الآنسة لوغان إنها ستستقبلهما لبضع دقائق، فمضى تومي وزوجته إلى غرفة كبيرة تشرف على الحديقة بها امرأة عجوز طريحة الفراش تغيّرت قسمات وجهها الرقيق من الألم. وقالت بصوت واهن: أنا مريضة جداً والحديث يرهقني، ولكن إيلين أخبرتني أنكما من الشرطة السرّية، وأظن أن لوسي كانت قد ذهبت لاستشارتكما.

فأومأ تومي برأسه موافقاً ثم قال: لن أزعجك كثيراً يا آنسة لوغان، ولكنني أريد أن تذكري لي بعض المعلومات. هل الخادمة حنة سليمة العقل؟

- حنة؟ نعم. إنها امرأة متدينة، وليس أكثر من ذلك.

وعرض عليها تومي الكتاب الذي وجده عند الخادمة قائلاً: أهذا الكتاب لك؟

- نعم. لقد ورثته عن أبي. كان طبيباً بارعاً معروفاً، وكان واحداً من روّاد العلْم الذين اهتموا بالأمصال.

- هل أعرت هذا الكتاب لحنة؟

فاعتدلت المرأة العجوز وقالت ساخطة: لا، إنها لا تفقه شيئاً فيه لأنه أكبر من مستواها من الناحية الفنّية.

- ومع ذلك فقد وجدته في غرفتها.

- يا للوقاحة! لن أسمح لأي من الخدم بلمس ممتلكاتي.

- أين تضعين كتبك؟

- في غرفة الاستقبال الخاصة بي. لم أُعِر هذا الكتاب إلا لماري لأنها تهتمّ بالأعشاب، وقد قامت ببعض التجارِب في المطبخ، وأنا نفسي أقوم بتكرير بعض العصائر وإعداد أنواع من المربى طبقاً لمواصفات قديمة. ولويز رادلكيف كانت تعشق كل ما أصنع، ودنيس أيضاً. يا للفتى العزيز! كان أبوه ابن عمّي.

فأعاد تومي السيدة العجوز إلى الواقع قائلاً: وهذا المطبخ، هل يدخله أحد غيرك أنت وماري؟

- إن حنة تقوم بتنظيفه وتعدّ فيه الشاي في كل صباح.

- شكراً لك يا آنسة لوغان. ليس لديّ أسئلة أخرى في الوقت الحالي، وأرجو أن لا أكون قد أرهقتك.

وانصرف الزوجان فهبطا إلى الطابق الأرضي، وقال تومي يخاطب توبنس: يوجد شيء لا أفهمه يا عزيزي السيد ريكاردو.

فقالت توبنس: إنني أكره هذا البيت؛ فهو يخيفني. هلمّ بنا إلى الخارج نتمشى قليلاً ونحاول استخلاص معلوماتنا يا... سيد هانو.

ولكنهما ذهبا بعد ذلك إلى الدكتور بيرتون، ثم خرجا إلى الحقول وراحا يتمشيان ويتبادلان أفكارهما عن القضية. قال تومي: لو أنه يوجد من يتظاهر بالمرض لهان الأمر، ولا أستطيع إلا أن أكره نفسي لأنه ربما كان في مقدوري منع هذه الميتات المفاجئة.

- اطرح هذه الفكرة من رأسك، فأنت لم تقُل للآنسة هارغريفس أن لا تلجأ إلى الشرطة، وما من شيء في العالَم كان يمكن أن يحملها على الإقدام على هذا الإجراء، وإذا كانت لم تأتِ إلينا فما كان في مقدورها أن تمنع أية محاولة إجرامية جديدة ضدّها.

- النتيجة واحدة. إنك على حق يا عزيزتي، لا يجب أن يلوم الإنسان نفسه بسبب مصيبة لا يدَ له فيها. كل ما أستطيعه الآن هو العمل على اكتشاف القاتل.

- لن يكون الأمر سهلاً.

- أجل، فإن كل النظريات تبدو غير محتملة. لنفرض أن دنيس رادلكيف هو الذي دسّ السمّ في الشطائر وكان يعلم أنه لن يكون موجوداً عند تناول الشاي، فكلّ شيء حتى هذه النقطة يبدو سهلاً.

- أجل، ولكننا لا نلبث أن نكتشف بعد ذلك أنه تسمّم هو أيضاً، وهذا يزيل عنه كل شكّ. يوجد شخص لا يجب أن ننساه، وأعني به حنة.

- حنة؟

- إن الذين يتمسّحون بالكتب المقدسة يقدِمون على أشياء غريبة في بعض الأحيان.

- أعترف بأنها هي نفسها غريبة الأطوار حقاً. يجب أن نتحدث عنها مع الدكتور بيرتون.

- إذا كان ولا بدّ أن نصدّق الآنسة لوغان فإن جنون حنة قد استولى عليها فجأة.

- لعل هذا هو نتيجة لتصرّفها، فإن الذين على شاكلتها ينشدون التراتيل في غرفهم سنوات طويلة ويعتقدون فجأة أن الله اصطفاهم لعقاب المذنبين.

- إن حنة أكثر الجميع شبهة طبعاً، ومع ذلك فلديّ فكرة.

- ما هي؟

- إنها مجرّد حدس وتخمين يا تومي. ما هو التأثير الذي أحدثته الآنسة شيلكوت عليك؟ هل هو تأثير طيّب؟

- طبعاً، ويبدو لي أنها امرأة ذكية وعاقلة، بل لعلها فائقة الذكاء، ولكنها من النوع الذي يمكن للمرء أن يوليه ثقته.

- ألم تستغرب أنه لم يبدُ عليها الحزن كثيراً؟

- الحق أن هذه النقطة بالذات في صالحها، فلو أنها كانت مذنبة لتظاهرت بالحزن والأسى ولحملنا تظاهرها هذا إلى الشكّ في أمرها على الفور.

- هذا جائز، ثم إنني لا أرى ماذا تستفيد من ذلك.

- أظن أن الخدم لا دخل لهم.

- كل الظواهر تدلّ على ذلك. إنني أتساءل، كيف كانت إستر كوانت، الفتاة المكلفة بالإشراف على المائدة؟

- أتعنين أنها لو كانت جميلة وفي مقتبل العمر لكان في الإمكان أن تقوم بدور في تلك القضية؟

- نعم، الحق أنا لم نتقدم كثيراً منذ أن أتينا.

- سيجلو رجال الشرطة سرّ القضية دون شك.

- طبعاً، ولكنني كنت أحبّ أن نجلوها نحن. بالمناسبة، هل رأيت العلامات الصغيرة فوق ذراعَي الآنسة لوجان؟

- لا. وما وجه الغرابة فيها؟

- أظن أنها آثار حقن تحت الجلد.

- لا ريب أن الطبيب حقنها لتهدئة آلامها أو لمساعدة قلبها على النبض.

- لا شك في ذلك، ولكنني لاحظت آثاراً لنحو أربعين حقنة على الأقل، وهذا كثير، أليس كذلك؟

- لعلها تتناول مخدّرات.

- لقد خطر لي ذلك، ولكنني لم أرَ في نظرتها ما يريب، ثم إنني لا أظن أنها من ذلك النوع الذي يدمن المخدّرات.

- الواقع أنه يبدو لي أنها امرأة محترمة.

وتنهّدت توبنس ثم قالت: أظن أنه لا بدّ لنا من أن نقرّ بالهزيمة يا تومي. لا تنسَ أن نعرّج على الطبيب قبل عودتنا.

* * *

لم يكُن الطبيب في بيته، ولكنه كان قد ترك رسالة للسيد بلانت هذا نصّها: «عزيزي السيد بلانت، لديّ ما يحملني على الاعتقاد بأن السمّ المستخدم هو الخروع، وهو سمّ نباتي زعاف شديد الفتك. أرجو أن تحتفظ بهذا الأمر سراً في الوقت الحالي».

فكّر تومي لحظة ثم قال: هل تعرفين شيئاً عن الخروع يا توبنس؟ لقد كنت فيما سبق على دراية بمثل هذه الأمور.

- أظن أنه يُستخرج من الزيت المعروف بنفس الاسم.

- لقد كنت دائماً ضدّ زيت الخروع، وقد ازددت كراهية له الآن.

- إن الزيت لا يضرّ، والخروع نفسه يُستخرج من النبات الذي يُنتج الزيت، وأظن أنني رأيت في الحديقة صباح اليوم بعض أشجار الخروع، وهي أشجار لها أوراق غزيرة لامعة.

- هل تقصدين القول إنه من الممكن استخراج الخروع من تلك الأشجار؟ هل تظنين مثلاً أن حنة استطاعت أن تقوم بهذا العمل؟

- هذا يثير دهشتي لأنها لا تفقه شيئاً من ذلك.

وفجأة أطلق تومي صيحة وقال: الكتاب!

ثم أخرج كتاب الأدوية من جيبه وراح يقلب صفحاته بأصابع مرتعشة ثم قال: هذا ما ظننت. إنه مفتوح عند هذه الصفحة. انظري يا توبنس، في هذه الصفحة بحث عن الخروع.

فأخذت توبنس الكتاب منه وراحت تقرأ، ثم سألها زوجها قائلاً: هل تفهمين شيئاً؟

- إن الأمر واضح جداً.

وسارت بجوار تومي ولم تغلق الكتاب إلا حين اقتربا من البيت فقالت: تومي، هلاّ تركتني أهتمّ بهذه القضية؟ سأكون أنا هذه المرة الثور الذي يجب أن يبقى في العرين أكثر من عشرين دقيقة.

- حسناً يا توبنس، يجب أن نحلّ هذه المعضلة لا لشيء إلا كي ننتقم للوسي المسكينة.

- أريد أن ألقي سؤالاً على الآنسة لوغان أولاً.

وما إن بلغت البهو حتى صعدت الدرَج وطرقت باب المرأة العجوز دون تردّد ودخلت، فصاحت الوصيفة السابقة تقول: أهذه أنت يا عزيزتي؟ هل اكتشفت شيئاً؟

- نعم يا آنسة لوغان.

فنظرت المريضة إليها متسائلة فقالت توبنس: لقد عملت في المستشفيات في أثناء الحرب يا سيدة لوغان، وأعرف أن الخروَع إذا حُقن في الجسم على دفعات صغيرة أكسبه مناعة ضدّ تأثيره الفتاك، وبهذه الطريقة اكتشفت الأمصال. وكنت أنت يا آنسة لوغان تعرفين ذلك، فرُحتِ تحقنين نفسك بالخروع منذ وقت طويل وتناولت الشطائر المسمّمة كما فعل الآخرون. لقد ساعدت أباك في عمله، وأنت تعرفين كل شيء عن طريقة استخراج الخروع من النباتات التي تزرعينها في الحديقة، وتنفيذاً لخطتك اخترت يوماً يكون دنيس فيه غائباً وقت تناول الشاي لأنك كنت لا تريدين أن يموت قبل لوسي هارغريفس بالذات لأنه سيرث الثروة إذا ماتت هي قبله، وإذا مات هو بعدها تؤول الثروة إليك أنت لأنك قريبته الوحيدة، فقد قلتِ لنا أنت نفسك اليوم إن أباه كان عماً لك.

تفرّست المرأة العجوز في توبنس بحقد طاغٍ، وفجأة اندفع شخص من الغرفة المجاورة ولم يكُن غير حنة. لقد كانت حنة تمسك في يدها شعلة من النار، فتقدّمت وهي تصيح قائلة: ظهر الحق وزهق الباطل. إن هذه المرأة شرّيرة، فقد رأيتها تقرأ الكتاب وتضحك وحدها فأدركت أنها تتأهب لعمل الشرّ، فأخذت الكتاب ولكنني لم أفهم منه شيئاً. لقد كانت تكره سيدتي الكونتيسة وتحسدها، ولم تستطع احتمال الآنسة لوسي المسكينة.

ولكن الشرّيرة ستموت، ستأكلها نار الله.

ورفعت الشعلة في يدها واندفعت نحو الفراش، فأطلقت الآنسة لوغان صيحة تنمّ عن الذعر قائلة: أبعديها عني. إنها تقول الحق، ولكن أبعديها عني!

فألقت توبنس بنفسها أمام حنة، ولكن قبل أن تتمكّن من انتزاع الشعلة منها كانت النار قد أمسكت بستائر الفراش. وأسرع تومي فانتزع الستائر وأفلح في إخماد النار، ثم تحوّل لنجدة توبنس واستطاعا معاً التغلب على حنة.

وأقبل الدكتور على أثر ذلك، وكانت بضع كلمات كافية لأن يعرف ما حدث، فاقترب من الفراش ورفع يد الآنسة لوغان في يده ولم يلبث أن قال: لقد ماتت. إن الصدمة كانت عنيفة بالنسبة إليها فلم تحتملها، وأظن أن ذلك أفضل نظراً للظروف. لقد وجدنا أثر خروع في الكأس الذي أحضرته يا سيد بيريسفورد.

* * *

قال تومي يحدث توبنس بعد أن أصبحا وحيدين: لعل هذا أفضل فعلاً، فدعيني أهنئك يا عزيزتي. لقد كنت رائعة.

- لم يكُن لهذه القضية أية نقاط مشتركة بينها وبين القضايا التي اهتمّ بها هانو.

- أجل، وأعترف بذلك. يجب أن أكفّ عن التفكير في تلك الفتاة المسكينة، فبفضلك استطعنا أن ننتقم لها. وإنني أكرّر لك إعجابي بك، فإنها لميزة أن تتمتعي بالذكاء دون أن يبدو عليك.

* * *

-١٠-

دليل الإثبات

جلست توبنس أمام زوجها تفحص الرسائل الواردة، ثم لم تلبث أن أطلقت صيحة مرحة قائلة: عميل جديد!

فقرأ تومي الرسالة وقال: لا شيء هام لأول وهلة، فيما عدا أن السيد... السيد مونتغمري جونس على الرغم من غرابة اسمه لا يحترم الحروف الهجائية، وفي هذا دليل على أنهم اتفقوا على تعليمه عبثاً.

- مونتغمري جونس. إن هذا الاسم يذكرني بشيء. نعم، يبدو أن جانيت سان فنسان هي التي حدثتني عنه، فإن أمه السيدة مونتغمري امرأة ثرية ومتدينة تزوّجت السيد جونس الذي عوّض عراقة دمه بثروته الطائلة.

- القصة الخالدة، وهذا السيد يكتب لنا ويقول إنه آتٍ لزيارتنا اليوم في الساعة الحادية عشرة والنصف صباحاً.

وفي تمام الساعة الحادية عشرة والنصف أقبل إلى غرفة الاستقبال شابّ طويل القامة رقيق الحاشية وطلب رؤية السيد بلانت، فسأله ألبرت: هل أنت على موعد يا سيدي؟

- لست واثقاً، ولكنني كتبت...

- ما اسمك يا سيدي؟

- السيد مونتغمري جونس.

- سأخبر السيد بلانت بقدومك.

وبعد بضع لحظات عاد ألبرت ليقول: أرجو أن تنتظر بضع دقائق يا سيدي لأن السيد بلانت يتحدث في الهاتف حديثاً هاماً.

- حسناً.

وبعد لحظة رأى تومي أنه أحدث ما يكفي من التأثير على الزائر الجديد فضغط الجرس فأدخل ألبرت السيد مونتغمري إلى مكتبه، ونهض تومي لاستقباله ومضى به إلى مقعد مريح قائلاً: ماذا أستطيع أن أؤدي لك يا سيد مونتغمري جونس؟

فنظر الشاب إلى توبنس بارتباك، فقدّمها السيد بلانت إليه ثم قال له: هل يتعلق الأمر بمشكلة عائلية دقيقة؟

- ليس تماماً.

- مشكلة شخصية إذن؟

- لا، بل على العكس.

- حسناً. لعلك تستطيع أن تخبرنا بمشكلتك.

ولكن كان يوجد شيء وكأنه لا يناسب السيد جونس لسوء الحظ، فقد قال متردّداً: إن ما أريد أن أطلبه منكم أمر خاص. الحق أنني لا أدري كيف أفسر لك.

فقال تومي: إننا لا نهتمّ بقضايا الطلاق.

- ليست المسألة قضية طلاق، إنما هي دعابة، دعابة مزعجة، ولا شيء أكثر من ذلك.

فحاولت توبنس أن تساعده قائلة: هل نصب أحد عليك؟

- لا.

فقال تومي وقد بدأ السيد مونتغمري جونس يضايقه: تكلّم يا سيدي العزيز.

وبعد أن تنهّد طويلاً قرّر العميل أن يتكلّم فقال: حسناً، إليك القصة كما وقعت. لقد دخلت مطعماً وجلست إلى مائدة تجاور مائدة أخرى تجلس إليها فتاة كانت... ما أشدّ غبائي! لن يتسنّى لي أن أصفها. لقد كانت واحدة من تلك الفتيات اللائي لم أرَ مثيلاً لهن في جمالهن. إنها أسترالية وتسكن مع صديقة لها في شارع كلارغس، ولا أستطيع أن أصف لك مدى تأثيرها عليّ.

فقالت توبنس برباطة جأش: إننا نتصور ذلك بسهولة تامة يا سيد مونتغمري جونس.

- لا أفهم كيف تستطيع فتاة أن تُفقد رجلاً عقله هكذا! لقد عرفت فتاة أخرى قبلها، أو بالأصحّ فتاتين، وكانت إحداهما شديدة المرح ولكنني لم أستظرفها قطّ، ومع ذلك فيجب أن أعترف بأنها كانت بارعة في الرقص، ولأننا كنا صديقين منذ الطفولة فإنني كنت أحسّ بأنني معها في أمان دائماً لأنها كانت تفهم ما أعنيه. أما الأخرى فقد كنت أقدّر زمالتها ولكن أمّي لم تكُن توافق على أن أتزوجها. ومهما يكُن من أمر فلم أشعر بأية رغبة في الزواج بأي منهما، ومع ذلك فقد بدأت أفكّر في الزواج عندما أجلستني المصادفة بجوار تلك الفتاة في ذلك المطعم.

وقالت توبنس مكملة: وتغيّرت الدنيا.

فاضطرب تومي واشتدّت عصبيته، فإن قصص أولاد الأثرياء العاطفية قد بدأت تثير أعصابه. وابتسم الشاب وقال: لقد أصبتِ التخمين يا آنسة، فهذا هو الإحساس الذي أحسست به، ولكنني أخشى أن تكون تلك الفتاة قد كوّنت رأياً عني، فإنني... لست ذكياً بصفة خاصة.

فقالت توبنس: إنك متواضع.

- إنني أعرف تماماً أنني لست من ذلك النوع الذي تختاره فتاة رائعة كتلك الفتاة من أول نظرة، ولهذا السبب بالذات يجب أن أجلو هذه المعضلة، فهذه هي فرصتي الوحيدة. إن تلك الفتاة منذ أن كلّمتها وأنا واثق أنها لن تنكث عهدها لي.

قطبت توبنس جبينها وقالت: لا أفهم تماماً ما الذي تنتظره منا.

- يا إلهي! ألم أقُل لكما ذلك؟

فقال تومي: نعم يا صديقي، لم تقُل.

- تصورا أننا كنا نتكلّم عن الروايات البوليسية، وتحدثنا أنا وأونا (وهذا اسمها) عن أدلة الإثبات، ودار الحديث عن لغز يقوم حول دليل إثبات، وعندئذ تعرضنا إلى أدلة الإثبات الكاذبة فقلت... لا، بل هي التي قالت... ولكن مَن منا الذي تكلّم...؟

فقاطعته توبنس قائلة: هذا لا يهمّ.

- قلت إن من المتعذر جداً أن يأتي الإنسان بدليل إثبات كاذب يمكن الاستناد إليه، ولكن أونا لم تكُن من رأيي مدّعية بأنه

يكفي قليل من التفكير العميق. وحمي الحديث بيننا وأخيراً قالت: "بماذا تراهن على أنه يمكنني أن أقدّم لك دليل إثبات لا يمكن لأحد أن يدحضه؟"، فأجبتها: "بما تشائين". وكان يبدو أنها واثقة من الفوز، ومع ذلك فقد أنذرتها بأنها إذا خسرت فإنني أستطيع أن أطالبها بشيء لن يحقّ لها أن ترفضه، ولكنها اكتفت بأن ضحكت وقالت إنها سليلة أسرة من المقامرين وإنها تقبل التحدّي مهما كانت نتيجته.

قطبت توبنس حاجبَيها ونظر السيد مونتغمري جونس إلى تومي كالكلب المدحور ثم قال: إن كل شيء رهن بي الآن، وهذه هي فرصتي في غزو قلب أونا، وإلا فستتحوّل عني إلى الأبد.

فسأله تومي بدهشة قائلاً: هل طلبت منك هذه الأسترالية شيئاً غريباً يا سيد جونس؟ لا أعتقد أنني فهمت شيئاً!

- لقد أتيت إليك لأنني أعرف أن قوام مهنتك التأكد من أدلة الإثبات واكتشاف الزائف منها.

- هذا صحيح.

- حسناً. إنني أطلب منك هذا الدليل، فإنني لست موهوباً كي أقوم بهذا العمل. ستقوم مهمّتك على اكتشاف زيف هذا الدليل فحسب، وإذا كانت هذه المسألة تبدو بسيطة في نظرك فإنها معقدة جداً بالنسبة إليّ. سأدفع لك طبعاً، أعني... أعني أنني راضٍ بكل ما تطلب.

فابتسمت توبنس وقالت: لا تقلق يا سيد جونس، سيقبل السيد بلانت أن يجلو لك هذه المعضلة البسيطة طبعاً.

وقال تومي: أجل، إنها مسألة بسيطة جداً بالنسبة إلينا.

فتنهّد السيد مونتغمري بارتياح ثم أخرج من جيبه ورقة قائلاً: سأقرأ لكما نصّ اللغز الذي عرضته أونا عليّ: "أؤكّد لك أنني كنت موجودة في مكانين مختلفين في وقت واحد، فقد تناولت العشاء أولاً في مطعم غود تايم بحيّ سوهو، ثم مضيت وحدي إلى مسرح ديوك وشاهدت مسرحية الزهرة الزرقاء، وبعد أن انتهت المسرحية تناولت وجبة خفيفة مع صديق لي يُدعى ليمارشان في مطعم سافوي، ولكنني كنت موجودة طَوال ذلك الوقت في مدينة توركاي ولم أعُد إلى لندن إلا في صباح اليوم التالي، وعليك الآن أن تكتشف نقاط الزيف التي يستند إليها هذا الدليل، أو بعبارة أخرى يا عزيزي مونتغمري حاول أن تخمّن في أيّ مكان وفي أية لحظة كذبت". هذه هي المعضلة التي أسألك أن تجلوها لي يا سيد بلانت.

فقال تومي: معضلة ظريفة وساذجة. إن الآنسة أونا تظنّ أنها ذكية جداً.

- إليك صورة أونا كذلك، فقد تحتاج إليها.

- ما لقب هذه الفتاة؟

- دريك، وتقيم في رقم ١٨٠ بشارع كلارغس.

- حسناً يا سيد جونس، سندرس هذه المزحة وأرجو أن أزوّدك بحلّها في أسرع وقت.

فنهض الشاب وهو يتنهد قائلاً: إن تفاؤلك يشجّعني يا سيد بلانت. شكراً جزيلاً.

وبعد أن شيّع تومي عميله إلى الباب عاد إلى مكتبه حيث وجد توبنس منهمكة في فحص الروايات البوليسية، ثم نظرت من

فوق كتفيها وقالت: هذه المعضلة جديرة بالمفتش فورتشن بطل الروايات البوليسية المشهور، فهو محطّم أدلة الإثبات الأول، وإنني أعرف وسائله، فهو يحب أن يتحقق من كل شيء بنفسه، وبهذه الطريقة يكتشف زيفها.

- عندما تقدمين الأمور هكذا تبدو المعضلة سهلة جداً، ولا سيّما في البداية. إننا نعرف أنه توجد كذبة، ولكنني لا أخفي عنك أن سهولة هذه المعضلة هي التي تزعجني.

- لماذا؟

- لأننا إذا حللنا هذه المعضلة الصبيانية فإننا سنضع الآنسة دريك في موقف تلتزم فيه بالزواج بالسيد جونس هذا، فهل لنا الحق في ذلك؟

- اطمئنّ يا تومي، فمن النادر أن تقامر النساء، ثم إنهن لا يدعن شيئاً للمصادفة أبداً. وتأكد أن هذه الفتاة أونا ما لم تكُن قد عزمت مسبقاً على الزواج بذلك الشاب الظريف الذي لا يتمتع بالذكاء فإنها ما كانت لتندفع في هذا الرهان الغريب. وصدّقني، إنها ستتزوّجه طواعية لأنها تشعر نحوه بميل وإعجاب بحيث إنها أرادت أن تساعده بطريقة أخرى.

- إنك تتصورين أنك تعرفين كل شيء كعادتك.

- تماماً.

- إذا كان الأمر كذلك فدعينا نفحص هذا اللغز معاً. أولاً صورة الآنسة دريك، إنها فتاة جميلة والصورة جيدة.

- لا بدّ لنا من الحصول على بضع صور أخرى لفتيات جميلات.

- لماذا؟

- كي نستطيع أن نقدّم أربعاً أو خمساً منها للنادلات في المطاعم حتى يتعرفن على صاحبة الصورة التي تهمنا.

- هل تظنين أن هؤلاء الناس لا يخطئون أبداً؟

- إنهم لا يخطئون في الروايات البوليسية على كل حال.

- من المؤسف أن الواقع لا يشبه الخيال إلا قليلاً. لننظر الآن إلى التفصيلات التي قدمتها أونا فيما يتعلق بلندن. العشاء في مطعم غود تايم في الساعة السابعة والنصف، ثم المسرح حيث شاهدت مسرحية الزهرة الزرقاء، وهذه هي التذكرة التي تدل على أنها شاهدت المسرحية، ثم تلك الوجبة الخفيفة في مطعم سافوي برفقة السيد ليمارشان. أظن أنه يجب أن نبدأ بذلك الرجل.

- لن يفيدنا هذا في شيء لأنه إذا كان متواطئاً معها فلن يذكر لنا شيئاً، ولن تكون لتأكيداته أية قيمة.

- لننتقل إلى توركاي. القطار يقوم من محطة بارنغتون ظهراً، والغداء في عربة الأكل بالقطار، وهذا هو كشف الحساب الدالّ على ذلك. ثم غرفة محجوزة بفندق كاسل بتوركاي لقضاء ليلة واحدة، وكشف حساب آخر تدعيماً لذلك.

- كل هذا يبدو صبيانياً. إنّ أي شخص يمكن أن يشتري تذكرة للمسرح دون أن يضطرّ إلى مشاهدة المسرحية. أعتقد أن الآنسة دريك ذهبت إلى توركاي وأن دليل لندن زائف.

- إذا كان الأمر كذلك فستكون مهمّتنا سهلة. هلُمّي بنا إلى بيت السيد ليمارشان.

* * *

كان السيد ليمارشان شاباً طويل القامة لم يُبدِ دهشة لرؤية تومي وتوبنس، وقد قال: هل تدبّر أونا شيئاً؟ إن تلك الفتاة تفكر دائماً في المقالب السخيفة و...

فقاطعه تومي قائلاً: أظن أن الآنسة دريك تناولت معك وجبة خفيفة في مطعم سافوي مساء يوم الثلاثاء الماضي، أليس كذلك؟

- إنني أتذكر هذا اليوم جيداً لأن أونا أصرّت على أن أدوّنه في دفتر مذكراتي. سأريك ذلك على كل حال.

ثم أخرج دفتر مذكراته وأشار إلى صفحة كتب فيها: «تناولت العشاء مع أونا مساء يوم الثلاثاء التاسع عشر من الشهر الجاري».

- هل ذكرت لك الآنسة دريك أين ذهبت قبل ذلك في تلك الليلة بالذات؟

- ذهبت لتشاهد مسرحية الزهرة الزرقاء، وقد قالت لي إنها لم ترُقها.

- هل أنت واثق أنها تناولت العشاء معك مساء يوم الثلاثاء؟

فأجاب الشاب بذهول: طبعاً. ألم أذكر ذلك؟

فقالت توبنس: لعلها طلبت منك أن تقول ذلك.

- الواقع أنها أبدت ملاحظة غريبة في أثناء تناول العشاء، فقد قالت لي: "هل أنت متأكد أننا معاً الآن يا حبيبي؟ ما قولك إذا عرفت أنني في هذه اللحظة بالذات أجلس في مكان يبعد بنحو مئتَي ميل عن لندن، في ديفونشاير؟"، والأغرب من هذا أن أحد

أصدقائي وهو ديكي رايس قال لي فيما بعد إنه يعتقد أنه رأى أونا هناك. وكان قد ذهب إلى توركاي لرؤية خالته، وهي امرأة متقدمة في السنّ ويبدو دائماً أنها قاب قوسين أو أدني من الموت، ولكنها تتشبث بالحياة وهو يهتمّ بتدليلها. وكان يسير متأبطاً ذراعها عندما رأى أونا، ولكن خالته ما كانت لتحتمل أن يدَعها على الرصيف ويمضي كي يثرثر مع فتاة. ومهما يكُن من أمر فإنه لم يكُن قد تعرف على أونا إلا منذ وقت قصير. والخلاصة أن كل هذا حدث يوم الثلاثاء الماضي، وقت تناول الشاي تقريباً. وقد قلت لديكي إنه أخطأ، ولكنني على الرغم من كل شيء أشعر بشيء من الحيرة، خصوصاً وأن أونا نفسها كلّمتني عن ديفونشاير في نفس الليلة.

- إنني أفهم حيرتك. هل حدث أن رآك أحد أصدقائك وأنت تتناول العشاء في مطعم سافوي في تلك الليلة؟

- كان آل أوغلاندر يجلسون إلى المائدة المجاورة لنا.

- وهل يعرفون الآنسة دريك؟

- نعم، ولكنهم ليسوا أصدقاء حميمين.

وعندما لم يعُد لدى السيد ليمارشان ما يخبرهما به انصرف آل بيريسفورد، وقال تومي وهما في الطريق: هل تريدين رأيي يا توبنس؟ إما أن يكون هذا الشاب كذاباً صغيراً أو أن يكون قد ذكر الحقيقة. هلُمّي بنا إلى مطعم غود تايم. إن وجبة شهية لن تضرّنا، ولكن لنحاول أولاً الحصول على صور لبعض الفتيات.

واتضح لهما فيما بعد استحالة ذلك لأنهما عندما طلبا مجموعة من الصور من أحد المصوّرين رفض وهو يرميهما بنظرة ازدراء، فتأوّهت توبنس قائلة: لماذا يبدو هذا سهلاً في الروايات

ويتعذر تحقيقه في الواقع؟ هل لاحظت نظرة ذلك المصوّر إلينا؟ ماذا حسب أننا سنفعل بهذه الصور؟ إن الأفضل أن نذهب إلى مسكن جين ونحاول أن نحصل على مجموعة من الصور منها.

وقد سمحت لهما جين، صديقة توبنس، بأن يأخذا ما يريدان من حافظة الصور الخاصة بها، وهكذا مضى آل بيريسفورد إلى مطعم غود تايم منتصرين، ولكن كانت تنتظرهما صعوبات ونفقات باهظة، فقد أخذ تومي كل نادل على حدة ونقده قطعة من النقود ثم عرض عليه مجموعة الصور. وإذا نحن صدّقناهم فإن ثلاثاً من الفتيات التي عرض عليهم صورهن على الأقل تناولن العشاء في ذلك المطعم في مساء يوم الثلاثاء السابق.

عادا إلى مكتبهما، وفحصت توبنس مواعيد قطارات السكك الحديدية ثم قالت: يوجد قطار يغادر لندن في الظهر ويبلغ توركاي في الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة والثلاثين، وإذا كان السيد رايس، صديق ليمارشان، قد رأى الفتاة في توركاي في وقت تناول الشاي فهذا يدلّ على أنها استقلّت ذلك القطار.

– إننا لم نسأل السيد رايس بعدُ كي نتأكد من هذه القصة التي قد تكون من نسج خيال السيد ليمارشان.

– أكاد أكون واثقة من أن السيد ليمارشان قد ذكر لنا الحقيقة، ولكن لديّ فكرة أخرى. لقد كان في مقدور أونا أن تستقلّ القطار في بادنغتون ظهراً وتصل إلى توركاي في الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة والثلاثين، وتحجز غرفة في فندق كاسل ثم تعود إلى لندن في الوقت المناسب كي تتناول العشاء في سافوي مع صديقها. وإنني أرى أنه يوجد قطار يغادر توركاي في الرابعة وأربعين دقيقة ويبلغ لندن في الساعة التاسعة وعشر دقائق.

- وماذا بعد ذلك؟

- بعد ذلك تتعقد الأمور لأنه يوجد قطار ليليّ ينطلق إلى توركاي، ولكنني لا أظن أنها تمكّنت من اللحاق به.

- وإذا كانت قد قامت بالرحلة بالسيارة؟

- لا تنسَ أنه كان لا بدّ لها أن تقطع مئتَي ميل، وهي ليست بالمسافة البسيطة.

- لقد سمعت أن الأستراليات سائقات ماهرات.

- هذا جائز طبعاً، وإذا صحّ فإنها تكون قد بلغت توركاي في نحو السابعة من صباح اليوم التالي.

- هل تعنين أنها تسلّلت إلى غرفتها دون أن يراها أحد من موظفي الفندق أو أنها تقدّمت إلى كاتب الاستقبال قائلة إنها قضت الليلة في الخارج، ثم دفعت كشف حسابها وعادت إلى لندن؟

- ولكننا غبيان يا تومي؛ فهي لم تكُن بحاجة إلى أن تعود إلى توركاي في تلك الليلة. كان يكفيها أن تكلّف صديقة لها بأن تذهب إلى الفندق وأن تدفع كشف حسابها وتستردّ حقيبتها.

- هذه النظرية تبدو لي معقولة تماماً. سنستقلّ غداً قطار الظهر من بادنغتون لنتحقق من استنتاجاتك اللامعة.

* * *

أخذا الصور معهما واستقلا القطار في صباح اليوم التالي، وجلسا في مقصورة بالدرجة الأولى وحجزا مائدة في عربة الطعام. وقال تومي: إن الحظ سيكون حليفنا حقاً إذا خدمنا نفس النادل الذي أشرف على خدمة أونا. وأظن أنه لا بدّ لنا من القيام بهذه

الرحلة من لندن إلى توركاي لأسابيع طويلة قبل أن نقع عليه.

فتنهدت توبنس ثم قالت: لقد بدأت قصة هذا الدليل تمتدّ أكثر من اللازم. إن الأدلة في الروايات تُصنع دائماً في لمح البصر.

ومرة أخرى حالف الحظ تومي بيريسفورد وزوجته، فنادل عربة الأكل الذي جاءهما بكشف الحساب تعرّف على الفور على أونا دريك من بين الصور التي عرضاها عليه، وساعدته ورقة مالية على فكّ عقدة لسانه فقال: إنني أذكر أنني رأيتها هنا يوم الثلاثاء الماضي لأنها قالت لي إن يوم الثلاثاء هو اليوم الذي تتفاءل به.

وقالت توبنس عندما عادت إلى مقصورتها: كل شيء على ما يرام الآن، وسنعرف أنها حجزت غرفة في الفندق، ولكن أصعب شيء هو أن نكتشف متى عادت إلى لندن، ولكن لعل أحد الحمّالين بالمحطة يتذكرها.

ومع ذلك فعندما هبطا توركاي لم يستطع تومي أن يحصل على شيء مؤكّد على الرغم من الهبة الضخمة التي دفعها، وكل ما وصل إليه هو أن فتاة تشبه إحدى الفتيات التي يحتفظ بصورها معه استقلّت قطار الساعة الرابعة والدقيقة الأربعين إلى لندن، ولكن الفتاة التي تكلّم عنها الحمّال فتاة أخرى غير أونا دريك. قالت توبنس: هذا لا يدلّ على شيء. لعلّها استقلّت القطار دون أن يلحظها أحد.

- أو لعلها استقلّت القطار من المحطة التالية.

- سنتحرّى هناك عن ذلك بعد أن نفرغ من تحرياتنا في الفندق.

* * *

كان فندق كاسل فندقاً فخماً يشرِف على البحر، وبعد أن حجز لهما غرفة ووقّعا في سجلّ الفندق رفع تومي عينيه إلى فتاة الاستقبال وقال بغير اكتراث: أظن أن صديقة لي نزلت بفندقكم يوم الثلاثاء الماضي. إن اسمها الآنسة أونا دريك.

- هذا صحيح. أتذكرها جيداً، وقد كانت أسترالية.

وبإشارة من تومي عرضت توبنس صورتها عليها قائلة: هل بقيت في الفندق أياماً كثيرة؟

- لم تبقَ به غير ليلة واحدة ثم استقلّت القطار السريع إلى لندن في صباح اليوم التالي، وإنها لمسافة كبيرة كي تقضي مثل هذه المدة القصيرة، ولكن الأستراليات لا تهمّهن المسافات.

- إن أونا رياضية ممتازة، وقد سمعت أنها تناولت العشاء مع بعض الأصدقاء ثم خرجوا يتنزهون في السيارة فتعطلت بهم في الطريق ولم تعُد الآنسة دريك إلا في الصباح.

- لا، إن الآنسة دريك بقيت في الفندق وتناولت العشاء وحدها.

- هل أنت واثقة؟

- لقد رأيتها بنفسي.

- عجباً! كنت متأكدة من أن بعض الأصدقاء دعوها إلى العشاء معهم.

- لقد تناولت عشاءها هنا يا سيدتي، وأتذكر أنها كانت ترتدي ثوباً من الموسلين المطبوع.

* * *

في غرفتهما تبادل الزوجان آراءهما، فقال تومي بإعياء: إن تلك الفتاة قوّضت كل شيء بتأكيدها.

- من الجائز جداً أن تكون قد أخطأت، وأرى أن نسأل رئيس الخدم، فمما لا ريب فيه أن الرواد قليلون في مثل هذا الوقت من السنة.

وعند تناول الغداء أقدمت توبنس على تلك الخطوة فسألت رئيس الخدم الذي أقبل لخدمتها قائلة: هل يمكنك أن تخبرني إذا كانت إحدى صديقاتي قد تناولت العشاء هنا مساء يوم الثلاثاء الماضي؟ إن اسمها أونا دريك وكانت ترتدي ثوباً من الموسلين المطبوع، وهذه هي صورتها.

وعرضت عليه الصورة فابتسم على الفور وقال: تماماً يا سيدتي، إنني أتذكر الآنسة أونا ديرك تماماً. لقد قالت إنها أسترالية، وبعد أن فرغت من الطعام سألتني عن الملاهي الموجودة بالمدينة فنصحتها أن تذهب إلى البافيليون، ولكنها رأت أخيراً البقاء بالفندق كي تسمع فرقتنا الموسيقية.

فهتف تومي: آه! ألا تذكر في أية ساعة تناولت العشاء؟

- في وقت متأخر جداً يا سيدي، في نحو الثامنة والنصف.

فدمدمت توبنس كمداً عندما انصرف رئيس الخدم وقالت: لقد أخطأنا يا تومي عندما استهنّا بهذه المسألة. يبدو لي أن تلك الأسترالية دبّرت أمرها جيداً.

- هل تظنين أنها استقلّت قطاراً بعد العشاء؟

- لو فعلت هذا ما كانت لتصل في الوقت المناسب كي تظهر في مطعم سافوي. إن الأمل الأخير هو أن نصعد ونسأل الخادمة.

وقد تذكّرت الخادمة هي الأخرى أونا دريك، فقد كلمتها تلك الأخيرة كثيراً عن أستراليا وحيواناتها، وبعد التاسعة والنصف بقليل مساء يوم الثلاثاء السابق قرعت الجرس وطلبت بعض الزجاجات الساخنة، ثم سألتها أن توقظها في الساعة السابعة والنصف من صباح اليوم التالي وأن تقدم لها القهوة بدلاً من الشاي.

قالت توبنس: وعندما أتيت في السابعة والنصف لإيقاظها هل كانت لا تزال نائمة؟

نظرت الخادمة إلى توبنس بلا فهم وقالت: طبعاً يا سيدتي.

- كنت أعتقد أنها تصحو مبكراً دائماً.

وبعد انصراف الخادمة تهالك تومي فوق مقعد قائلاً: كل هذا واضح وضوح الشمس. توجد نتيجة واحدة تفرض نفسها، وهي أن دليل لندن زائف.

- إذا كان الأمر كذلك فإن ليمارشان يكون كاذباً.

- لدينا وسيلة للتحقق من ذلك. لقد كان يجلس إلى المائدة المجاورة له أناس يعرفون أونا دريك. ما أسماؤهم؟ نعم، أوغلاندر. حسناً، سنذهب لاستجوابهم عن ليلة الثلاثاء، ثم يجب أيضاً أن نتحرى قليلاً عن الآنسة أونا دريك.

* * *

في صباح اليوم التالي غادر الزوجان الفندق يجرّان أذيال الخيبة عائدَين إلى لندن، وعرفا عنوان آل أوغلاندر عن طريق دليل الهاتف. وفي ذلك اليوم تقدّمت توبنس بصفتها صحفية تهتمّ بما ورد في المجتمعات، فتملّك الغرور السيدة أوغلاندر وسَرّها أن تذكر لها تفصيلات ليلتها التي نجحت كل النجاح في مطعم سافوي

يوم الثلاثاء الماضي، وعندما أشرف الحديث على نهايته قالت توبنس: ألم تكُن الآنسة أونا دريك جالسة إلى المائدة المجاورة؟ يبدو أنها مخطوبة للدوق بيرث. إنك تعرفينها طبعاً؟

- لا أعرفها معرفة شخصية، ولكن قيل لي إنها ظريفة جداً، وقد كانت تتناول العشاء فعلاً على المائدة المجاورة مع ليمارشان الشاب. إن بناتي يعرفنها خيراً منّي.

* * *

غادرت توبنس السيدة أوغلاندر ومضت إلى رقم ١٨٠ بشارع كلارغس حيث استقبلتها الآنسة مرغوري ليسستر صديقة أونا دريك وشريكتها في المسكن. وقالت بعد هنيهة: أتقولين إن أونا تراهنت رهاناً معقّداً؟ كل الذي أستطيع أن أؤكّده لك هو أنها رقدت هنا ليلة الثلاثاء الماضي.

- هل رأيتِها؟

- لا، فإنها قد عادت في الساعة الواحدة صباحاً وكنت في فراشي، والتقيت بها في الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي.

- حسناً، شكراً لك.

وتركتها توبنس وخرجت، وعند الباب اصطدمت بامرأة بدينة فسألتها قائلة: هل تعملين هنا؟

- نعم يا سيدتي، إنني آتي في التاسعة من كل صباح.

فدسّت توبنس في يدها قطعة من النقود قائلة: هل تذكرين أنك رأيت الآنسة دريك في صباح يوم الأربعاء الماضي؟

- نعم، رأيتها في التاسعة وكانت لا تزال راقدة في فراشها،

وقد وجدت صعوبة كبيرة جداً في إيقاظها عندما ذهبت إليها بكوب الشاي.

- هل أنت متأكدة من ذلك؟

- كل التأكيد يا سيدتي.

- حسناً، أشكرك على كل حال.

وهبطت توبنس الدرَج وقد تملّكها اليأس المطلق، ثم لحقت بتومي في مطعم صغير بحيّ سوهو، وروَت له ما تمّ في الزيارتين اللتين فشلتا، ومن ناحيته هو لم يجد شيئاً. وقد قال: لقد قابلت ذلك الشاب رايس، وهو يقول إنه رأى أونا دريك في توركاي. أريد ورقة وقلماً كي نلخّص الموقف.

ثم كتب في تلك الورقة الملاحظات الآتية: "في الساعة الواحدة والنصف شوهدت أونا دريك في عربة الطعام بالقطار المنطلق إلى توركاي، وفي الساعة الرابعة وصلت إلى توركاي، وفي الساعة الخامسة رآها السيد رايس في توركاي، وفي الساعة الثامنة شوهدت في مطعم الفندق نفسه، وفي الساعة التاسعة والنصف شوهدت في سافوي برفقة ليمارشان، وفي الساعة السابعة والنصف أيقظتها خادمة فندق توركاي، وفي الساعة التاسعة أيقظتها خادمة مسكن شارع كلارغس بلندن".

وتبادل الزوجان النظر، واضطُرّ تومي إلى أن يعترف تلك المرة بأن المكتب الدولي للأبحاث قد فشل، ولكن توبنس أصرّت قائلة: لا، لا بدّ أن بعضهم كاذب.

- ومع ذلك فإن كل الذين استجوبناهم بدوا لنا صادقين.

- يوجد زيف في مكان ما، وهذا أمر لا بدّ منه، فلا يمكن أن

تكون الآنسة دريك في مكانين مختلفين في وقت واحد. وأرى أن أفضل شيء الآن هو أن نأوي إلى الفراش، فيبدو أن العقل الباطن يعمل في أثناء النوم.

- نأمل ذلك، وإذا جاءنا عقلك الباطن بحلّ صباح الغد فإنني سأرفع له قبعتي احتراماً.

وقبل أن يمضيا إلى غرفة النوم فحصا الورقة التي دوّنا فيها تفصيلات تصرفات الآنسة دريك في يوم الثلاثاء من جديد، وعادت توبنس فأضافت إليها بعض المذكرات وهي تحدّث نفسها بصوت مسموع، وفحصت مواعيد السكك الحديدية من جديد، وأخيراً أوي الزوجان إلى النوم دون أن يهتديا إلى أيّ قبس يمكن أن يجلو سرّ الدليلين. وتأوّه تومي قائلاً: إن هذا يدعو إلى اليأس.

- هذه أشقّ ليلة قضيتها في حياتي.

- كان يجب أن نذهب إلى أحد الملاهي، فبعض النكات عن الحموات والتوائم كانت ستريح أعصابنا.

- لا، سوف ترى أن التركيز العميق له نتيجة مُرضية، إن عقلنا الباطن سيعمل طَوال الساعات الثمانية المقبلة.

في صباح اليوم التالي قال تومي: حسناً، هل أدّى عقلك الباطن واجبه؟

- لديّ فكرة.

- حقاً؟ وما هي؟

- ولكن يجب أن أقول لك إنها لا تتفق مع ما نقرؤه في الروايات البوليسية، والواقع أنك أنت الذي أوحيت إليّ بها.

- لا ريب أنها فكرة عبقرية إذن. ما هي يا توبنس؟

- يجب أن أرسل برقية أولاً كي أتأكد من نظريتي. إنني لا أستطيع أن أقول لك شيئاً في الوقت الحالي، وعلى الرغم من أن نظريتي هذه تبدو سخيفة إلا أنها الوحيدة التي تتفق مع الحقائق.

- يجب أن أذهب إلى المكتب لأنني لا أستطيع أن أدَع عملاءنا ينتظروننا عبثاً. إنني أضع هذه المسألة بين يديك أيتها المساعدة الموهوبة.

ولم تظهر توبنس في المكتب طَوال اليوم، وعاد تومي إلى المسكن في نحو الساعة الخامسة والنصف فوجدها تكاد تطير من الفرح وقالت: قُضي الأمر يا تومي. لقد جلوت سرّ الدليل، وما علينا الآن إلا أن نقدّم للسيد مونتغمري جونس كشف حساب ضخم ونطلب منه أن يردّ إلينا كل النفقات التي صرفناها، ويمكنه بعد ذلك أن يذهب ويستولي على أستراليته.

- ماذا عرفت بالله عليك؟

- الأمر يتلخّص في كلمة واحدة: توأمتان.

- كيف هذا؟ توأمتان؟

- نعم، وهو الحلّ الوحيد الممكن. أنت أوحيت لي بالفكرة مساء أمس وأنت تتكلّم عن الملاهي، وقد أرسلتُ برقية إلى أستراليا فجاءني الردّ كما كنت أرجو. إن لأونا أختاً توأمة اسمها فيرا جاءت إلى إنكلترا يوم الإثنين الماضي، وهذا يفسر أمر الرهان. وقد خطر لأونا أنها مزحة طيّبة تُدخلها على مونتغمري جونس المسكين. وقد ذهبت الأخت إلى توركاي في حين بقيت أونا في لندن.

* * *

-١١-

ابنة القسيس

دارت توبنس بالمكتب وقالت عابسة: أتمنى أن تدعونا ابنة القسيس كي نسرع إلى نجدتها.

- ولماذا ابنة القسيس؟

- هل نسيت يا تومي أنني أنا نفسي ابنة قسيس؟ إنني أتذكر معنى هذا بالنسبة إليّ، ومن هنا كان حبّي لعمل الخير.

- أرى أنك تستعدّين للقيام بدور روغر شرنغهام، بطل الروايات البوليسية الشهير. اسمحي لي أن أوجّه إليك نقداً خفيفاً، فإنني أرى أنك تتكلّمين كما يفعل هو، ولكنك لا تجيدين الكلام مثله.

- هذا خطأ، فإن في كلامي لمسة نسائية لا يمكن أن يجاريني فيها أيّ رجل، ثم إنني أملك صفات لا يتحلّى بها الأشخاص الذين أحتذي بهم. ومهما يكُن فإنني أتمنى اليوم أن أسرع إلى نجدة ابنة قسيس، وسوف ترى يا تومي أن أول فتاة ستأتي لطلب معونتنا ستكون ابنة قسيس.

- أراهنك على العكس.

- اتفقنا. والآن سأسرع إلى آلتي الكاتبة؛ فقد أقبل أحد العملاء.

كان مكتب السيد بلانت أشبه بخلية نحل في أتم نشاطها عندما فتح ألبرت الباب وقال: الآنسة مونيكا دين.

وتوقفت بالباب فتاة طويلة القامة ذات شعر كستنائي ترتدي ثياباً متواضعة، فأسرع تومي لمساعدتها قائلاً: تفضلي يا آنسة. اجلسي وأخبريني، ماذا أستطيع أن أفعل من أجلك؟ اسمحي لي أن أقدّم لك سكرتيرتي الخاصة الآنسة شرنغهام.

فقالت توبنس: يسرّني أن أتعرف بك. أظن أن أباك من رجال الدين، أليس كذلك؟

- بلى، هذا صحيح، ولكن كيف عرفت ذلك؟

- إن لدينا وسائلنا الخاصة. لا تدهشي إذا تكلّمت كثيراً، فإن السيد بلانت يروقه أن يصغي إليّ، ويقول إن حديثي يمدّه بالأفكار النيّرة.

نظرت الفتاة بذهول. لم تكُن بالغة الجمال ولكن كان فيها لفتة من الحسن، ولها عينان زرقاوان داكنتان حولهما هالتان تدلان على الهمّ والكرب. قال تومي: أخبريني بمشكلاتك يا آنسة دين.

فتحوّلت الفتاة إليه ثم قالت: إنها قصة غريبة لا معنى لها. لقد كان أبي راعياً لكنيسة هامبسلي بسافولك، وقد مات منذ ثلاثة أعوام وتركني أنا وأمي لا نكاد نملك شيئاً فالتحقت بوظيفة مدرّسة، ولكن أمي مرضت وأصبحت عاجزة عن العمل فاضطررت إلى أن أترك عملي كي أُعنى بها. كنا فقيرتين جداً، ولكن ذات يوم جاءتنا رسالة من محامٍ يخبرنا فيها بأن عمة لأبي ماتت وأننا ورثناها،

وكنت قد سمعت عن تلك العمة قبل ذلك، وكانت قد اختفت مع أبي منذ سنوات طويلة، كما كنت أعرف أنها ثرية جداً. وخطر لي أنا وأمي أن همومنا قد انتهت، ولكن الأمور جاءت على غير ما نشتهي؛ فقد ورثنا البيت الذي عاشت عمتي فيه، ولكننا بعد أن دفعنا ضرائب التركة لم يتبقَ شيء يُذكر من المال. وأظن أن عمتي خسرت ثروتها في أثناء الحرب أو أنها أنفقتها قبل أن تموت، ومهما يكُن فقد بقي لنا البيت، ولكن لم نلبث أن عُرضت علينا فرصة لنبيعه بثمن مناسب، ولعل ذلك كان حماقة منّي لأنني رفضت العرض الذي قُدّم إليّ. لقد كنا نقيم في مسكن حقير ولكنه مرتفع الإيجار، ففكرت أننا إذا انتقلنا إلى البيت الأحمر فسوف تستطيع أمي أن تقيم في غرفة مريحة كما نستطيع إيواء بعض السكان لتغطية نفقاتنا. ونفّذنا هذه الخطة وانتقلنا إلى البيت على الرغم من عرض كبير آخر تقدمت به سيدة لشرائه. ونشرت إعلانات كي ألفت الأنظار، ومرّ كل شيء على ما يرام في البداية، فقد جاءتنا رسائل كثيرة يتوق أصحابها للإقامة في الريف بضعة أيام. وبقيت خادمة عمتي العجوز معنا تشرف على خدمتنا، ولكن سرعان ما وقعت أحداث غريبة لا أجد لها تعليلاً.

- أية أحداث؟

- بدا كأن البيت مسكون بالأشباح، فقد راحت اللوحات تقع والأطباق تطير من غرفة إلى أخرى وتنكسر. وذات مساء رأينا أن قطع الأثاث انتقلت من أماكنها، وفي البداية حسبنا أن شخصاً يمزح ويريد مداعبتنا، ولكن لم نلبث أن طرحنا الفكرة، فقد كانت تقع جلبة شديدة في بعض الأحيان ونحن مجتمعون جميعاً لتناول العشاء، وعندما نسرع إلى الطابق العلوي نجد شيئاً محطماً على الأرض.

فقالت توبنس باهتمام: روح هدّامة.

- هذا ما اعتقده الدكتور أونيل. على كل حال كانت النتيجة مفجعة، فقد هجرَنا جميع السكان على عجل، وحذا الذين جاؤوا بعدهم حذوهم فتملكني اليأس. ومما زاد الأمر سوءاً أن انقطع عنا المعاش الصغير الذي كنا نتقاضاه لأن الشركة التي كانت تبعثه إلينا قد أفلست.

فقالت توبنس: مسكينة أنت يا صديقتي. كل هذه المصائب والنكبات؟ هل تريدين أن يقوم السيد بلانت بالتحقيق في قصة هذا الشبح؟

- مهلاً، فلم أنتهِ بعد. منذ ثلاثة أيام زارنا الدكتور أونيل وقال إنه يدير شركة للأبحاث النفسية وإنه يهتم كثيراً بالظواهر الغريبة التي تقع في بيتنا، وقال إنه يفكر في شراء البيت كي يقوم فيه بتجارِب معيّنة.

- حسناً.

- تلقّينا عرضه في البداية بفرح شديد لأنه كان الأمل الوحيد في التخلّص من متاعبنا، ولكن...

- ولكن ماذا؟

- قد تحسبين أنني ذات نزوات وأهواء، ومن الجائز أن تكوني على حق، ولكن كان الأمر يتعلق بنفس الرجل.

- أيّ رجل؟

- الرجل الذي أراد أن يشتري البيت في بادئ الأمر قبل أن يُبدي الدكتور أونيل ميله إلى شراء البيت.

- ولماذا يزعجك ذلك؟

- ألا تفهمين؟ لقد كان الرجلان مختلفَين، فقد كان الأول شاباً حسن الهندام لا يتجاوز الثلاثين من عمره، أما الدكتور أونيل فكان يبدو في الخمسين من عمره، له لحية بيضاء ويلبس نظارة ويمشي محدودب الظهر، ومع ذلك فعندما تحدث معي لاحظت أن له ضرساً من الذهب، وكان للرجل الآخر ضرساً من الذهب كذلك وفي نفس المكان، ثم إن أذنيه كان لهما شكل غريب، فهما تبدوان من غير شحمتين تقريباً ويشبهان أُذنَي الدكتور أونيل كل الشبه، وهاتان النقطتان لا يمكن أن يكونا مجرّد مصادفة. لقد فكرت كثيراً ثم كتبت أخيراً للدكتور أونيل بأنني سأعطيه ردّي النهائي بعد أسبوع، وكنت قد قرأت في أثناء ذلك إعلانكم فأتيت إليكم.

فقالت توبنس بحماسة: لقد أحسنت صنعاً، فهذه القضية بحاجة إلى دراسة دقيقة.

وقال تومي: إنها قضية على جانب كبير من الأهمية يا آنسة دين، ويسرّنا أن نقوم بها، أليس كذلك يا آنسة شرنغهام؟

- بلى، وسنمضي فيها إلى النهاية. أظن أنني فهمت أنك تقيمين وحدك مع أمك وخادمة يا آنسة دين، فهل يمكنك أن تذكري لنا ما تعرفينه عن تلك الخادمة؟

- إن اسمها كروكيت، وكانت في خدمة عمتي وقد قضت في خدمتها نحو عشرة أعوام، وهي ليست في سنّ الشباب ولكنها خادمة ممتازة على الرغم من أنها مشاكسة بطبعها، وهي تشعر بشيء من الخيلاء لأن أختها تزوجت برجل فوق مستواها، ولها ابن أخت تقول إنه مثال الرجل الشهم المهذب.

تنهد تومي وهو لا يعرف كيف يدير الحديث بعد ذلك، ولكن توبنس أسرعت تقول: أظن أن أفضل شيء هو أن تأتي الآنسة دين لتناول طعام الغداء معي، فإن الساعة قد اقتربت من الواحدة، وأستطيع أن أدوّن كل المعلومات الإضافية التي قد نحتاج إليها ونحن على المائدة.

فقال تومي: هذه فكرة رائعة يا آنسة شرنغهام.

* * *

عندما جلست المرأتان أمام المائدة في مطعم مجاور انحنت توبنس نحو زميلتها فقالت: أريد أن تعترفي لي صراحة، هل يوجد سبب خاص يدفعك إلى اكتشاف الحقيقة بخصوص هذه القصة؟

فاصطبغ وجه مونيكا وقالت: نعم.

- اذكري لي كل شيء.

- حسناً، يوجد رجلان يريدان الزواج بي.

- أظن أنها القصة العادية، أحدهما غنيّ والآخر فقير، والفقير هو الذي تفضّلينه.

- لا أدري كيف استطعتِ تخمين ذلك!

- ذلك أنها ليست حالة شاذة، فهي شائعة، وقد مررت أنا نفسي بهذا الموقف.

- إذا بعنا البيت فلن يكون لدينا ما نعيش منه، وغيرالد ظريف ولكنه فقير جداً على الرغم من أنه مهندس موهوب. لو أنه يملك رأس مال صغير لاتخذته الشركة التي يعمل بها شريكاً. أما الآخر، واسمه السيد بارتيدج، فهو رجل ممتاز وغنيّ، ومعنى هذا أنني

إذا تزوّجته فستنتهي كل همومي ومتاعبي، ولكن...

- اتفقنا، النتيجة معروفة على الرغم من ثرائه وصفاته. إن الآخَر هو الذي تريدينه.

فهزت مونيكا رأسها ولم تُجِب فقالت توبنس: يجب أن أذهب إلى المكان لدراسة القضية. ما هو عنوانك؟

- البيت الأحمر بشورتون.

ثم همست الفتاة تقول وقد اضطرم وجهها في حين كانت توبنس تكتب العنوان: ولكنني لم أسأل عن شروطكم.

- إننا لا نتقاضى أتعاباً إلا بعد ظهور النتيجة. إذا كشفنا سرّ البيت الأحمر وإذا اتضح أنه مفيد كما يدلّ على ذلك إصرار هذا السيد الغامض فسوف نطلب منك نسبة مئوية ضئيلة، أو أننا لن نتقاضى شيئاً على الإطلاق.

- شكراً لك.

- ما عليك الآن إلا أن تنسَي همومك، فسترَين أن كل شيء يسير على ما يرام. ولنأكل ونحن نتكلم عن أشياء أكثر أهمية.

* * *

نزل الزوجان بفندق التاج بتونلي، ونظر تومي من نافذة غرفتهما بشيء من الحزن، فقالت توبنس لترفع من معنوياته: لنفحص المسألة من جديد.

- بكل سرور. اسمحي لي أن أقول لك رأيي أولاً، فأنا أشتبه في الأم العاجزة.

- لماذا؟

- عزيزتي توبنس، ضعي نصب عينيك أن قصة هذه الروح الهدامة إنما هي قصة مدبرة لإقناع الفتاة ببيع البيت. إن مونيكا دين قالت لنا إن الجميع كانوا يجلسون أمام المائدة يتناولون طعام العشاء عندما أخذت الأشياء ترتطم بالأرض في الطابق العلوي. وإذا كانت الأم عاجزة فلا شك أنها كانت موجودة في غرفتها بالطابق العلوي.

- ولكن من العسير عليها أن تنقل قطع الأثاث من مكانها بسبب عجزها.

- ولكن من الجائز تماماً أنها ليست عاجزة إطلاقاً، ولعلها تتظاهر بذلك.

- وما الداعي؟

- الواقع أنني كنت أتكلم فحسب عن المبدأ المعروف بأن المذنب هو دائماً أقل شخص تعرضاً للشبهات.

- إنك تمزح في كل شيء. لا ريب أنه يوجد سبب يدفع هؤلاء الأغراب إلى شراء البيت، وإذا كان لا يهمك أن يُكتشف هذا السبب فإن هذا يهمني أنا. إنني أحب مونيكا فهي فتاة ظريفة.

- إنني أشاركك رأيك، ولكنني أحب إثارتك يا توبنس. يوجد شيء مخبوء في ذلك البيت، ومهما يكُن من أمره فليس من السهل العثور عليه، وإلا لكانت سرقة عادية كفيلة بذلك، وما دامت قد وقعت محاولات لشراء البيت مستعينين في سبيل ذلك بجميع الوسائل فإن معنى ذلك أنه لا بدّ لنا من رفع ألواح الأرضية وهدم الجدران عند الضرورة، هذا إذا لم يكُن يوجد منجم فحم في الحديقة.

- إنني أفضّل كنزاً؛ فإن هذا يكون أكثر رومانسية.

- إذا كان الأمر كذلك فمن الأفضل أن أذهب لرؤية مدير المصرف المحلّي. سأقول له إنني أتيت لقضاء عيد الميلاد في قريته وإن في نيتي أن أشتري البيت الأحمر، وسأدرس معه فتح حساب لي في مصرفه.

- لماذا؟

- انتظري وسوف ترَين.

وبعد ساعة عاد تومي متألق العينين وقال: إننا نتقدم يا توبنس. لقد دار حديث مع مدير المصرف كما توقعت، وقد سألته بغير اكتراث إذا كانوا يأتونه بذهب كثير كما هو الحال في الأرياف، أعني الفلاحين الذين أخفوا ذهبهم في أثناء الحرب مثلاً، ثم انتقلنا إلى الحديث عن نزوات السيدات المسنّات، واختلقت لنفسي عمة نسجت بشأنها قصة وهمية، فذكّرته قصتي بعميلة له أصرّت على أن تسحب كل ثروتها من المصرف، واشترطت أن تكون ذهباً بقدر الإمكان، كما استردّت كل أسهمها وسنداتها قائلة إنها تفضّل أن تحتفظ بها في بيتها، فصِحت دهشاً إزاء هذا الطيش، فاعترف لي بأن هذه العملية هي صاحبة البيت الأحمر السابقة، فهل تفهمين الآن يا توبنس؟ لقد استردّت ثروتها وأخفتها في مكان ما، ولا شك أنك تذكرين إشارة مونيكا إلى قلّة المال الذي خلّفته عمتها. وأنا مقتنع الآن أن السيدة العجوز أخفت كل ثروتها في البيت وأنه يوجد من يعلم ذلك.

- بل إنني أستطيع أن أقول من هو.

- من؟

- المخلصة كروكيت طبعاً لأنها هي التي تعرف.

- وماذا عن الدكتور أونيل ذي الضرس الذهبي؟

- إنه ابن أخت كروكيت دون شك. ولكن أين الكنز؟

- إنك تعرفين السيدات المسنات أكثر منّي يا توبنس، ولا ريب أن عندك فكرة عن المكان الذي يخفين فيه كنوزهن عادة.

- إنهن يضعنها في جوارب أو في ثياب قديمة أو ما شابه ذلك.

- لا ريب أنك على حق، ولكنني لا أظن أن هذا هو ما فعلته عمة مونيكا، وإلا لكانوا قد عثروا عليها. ومن ناحية أخرى فإن السيدة المسنّة لا تستطيع أن تنتزع ألواح الأرضية بنفسها أو أن تحفر حفرة تحت الجدار أو في الحديقة، ومع ذلك فإن الثروة في مكان ما بالحديقة. إن كروكيت لم تضع يدها عليها بعدُ ولكنها تعرف أنها ليست بعيدة، وتعرف أنها في اليوم الذي تصبح فيه هي وابن أختها صاحبَي البيت يستطيعان أن يقلبا كل شيء كما يريدان، ويجب أن نسبقهما. تعالَي، هلُمّي بنا إلى البيت الأحمر حالاً.

* * *

استقبلتهما مونيكا وقدمتهما لأمها وكروكيت على أنهما جاءا لمشاهدة البيت لأنه يُحتمل أن يشترياه، ولم يُطلع تومي الفتاة على الاستنتاجات التي انتهى إليها، وألقى إليها بضعة أسئلة معيّنة، فعرف بهذه الطريقة أن العمة أعطت جزءاً من ثيابها وأمتعتها لكروكيت ووزّعت الباقي على بعض الأُسَر الفقيرة.

- هل تركت عمتك أوراقاً؟

- إن أدراج المكتب مملوءة بها، ولكن ليس فيها أي شيء هام.

- هل تخلّصتم منها؟

- لا؛ فإن أمي ترفض إلقاء الأوراق القديمة، ثم إنها وجدت في بعضها وصفات كثيرة تنوي استخدامها ذات يوم.

وأشار تومي إلى رجل كهل يُعنى بالحديقة وقال: هل كان هذا البستاني يعمل هنا عندما كانت عمتك على قيد الحياة؟

- نعم، كان يأتي ثلاثة أيام كل أسبوع، وهو يقيم في القرية، والمسكين لا يستطيع أن يفعل الكثير في الوقت الحالي، وهو يأتي يوماً واحداً كل أسبوع ليُعنى بالحديقة لأن مواردنا لا تسمح بأن يأتي أكثر من ذلك.

فغمز تومي بعينه لتوبنس غمزة معناها أن تستبقي مونيكا بجوارها ريثما يذهب هو إلى البستاني الكهل الذي تبادل معه بضع كلمات عن الفِلاحة، ثم سأل فجأة: ألم تدفن صندوقاً لسيدتك ذات يوم؟

- نعم، لم أدفن لها شيئاً. ولأي سبب كانت تريد أن أدفن لها صندوقاً في الأرض؟

فهز تومي رأسه وعاد إلى البيت مقطباً. إذا لم تأتِه أوراق العجوز بأيّ ضوء فقد يكون من المتعذر حلّ القضية؛ فقد كان البيت قديماً، ولكنه لم يكُن من القِدم بحيث يضمّ غرفة سرّية.

وعندما همّ الزوجان بالانصراف أحضرت لهما مونيكا صندوقاً كبيراً من الورق المقوى قائلة: هذه هي الأوراق التي عثرت عليها، يمكنكما أخذها معكما إذا شئتما كي تفحصاها كما

يحلو لكما، ولكنني واثقة أنكما لن تعثرا على شيء يمكن أن يلقي ضوءاً على الأحداث الغامضة التي دارت في هذا البيت.

وفي نفس اللحظة دوّت فرقعة كبيرة فوق رؤوسهم، فأسرع تومي إلى الطابق العلوي فوجد إبريقاً محطماً فوق الأرض ولم يعثر على أحد، فتمتم مبتسماً: لقد بدأ الشبح ألاعيبه من جديد.

ثم عاد إلى الطابق الأرضي مفكراً وقال: هل أستطيع أن أتحدث مع خادمتك بضع لحظات يا آنسة دين؟

- بكل تأكيد، سأدعوها حالاً.

وأسرعت مونيكا إلى المطبخ ولم تلبث أن عادت وبرفقتها كروكيت، فقال تومي يخاطبها بصوت رقيق: إننا نفكر في شراء البيت، وزوجتي تريد أن تعرف هل تقبلين العمل معنا إذا نحن اشتريناه.

فأجابت كروكيت دون أن ينمّ وجهها عن أيّ انفعال قائلة: شكراً لك يا سيدي. أحبّ أن أفكر في الأمر إذا سمحت.

فالتفت تومي إلى مونيكا وقال: إن البيت يروقني كثيراً يا آنسة دين، وقد فهمت أنه يوجد شخص آخر يريد أن يشتريه، ومهما يكُن العرض الذي قدّمه لك فإنني أزايد عليه بمئة جنيه.

فتمتمت مونيكا ببضع كلمات مهذّبة لا تشجّع ولا تبعث اليأس، وبعد ذلك انصرف الزوجان.

قال تومي وهما في طريق العودة: لقد صدق حدسي، فإن كروكيت ضالعة في هذا الأمر. هل لاحظت أنها كانت تلهث عندما أتت؟ لقد هبطت الدرَج ركضاً بعد أن قامت بدور الروح الهدامة، وأكاد أكون مقتنعاً بأنها أدخلت ابن أختها المكان كي يقوم بدور

الروح الهدامة في حين تبقى هي بجوار الأسرة. سترَين أن الدكتور أونيل سيقدم عرضاً جديداً قبل أن يمضي اليوم.

وفعلاً كان تومي بيريسفورد وزوجته يتناولان غداءهما في الفندق عندما جاءهما النادل برسالة من الآنسة دين تقول فيها: «لقد جاءني عرض من الدكتور أونيل. إنه يزيد المبلغ مئة وخمسين جنيهاً».

فقال تومي: ابن الأخت لا تنقصه الموارد، وسأقول لك شيئاً يا عزيزتي، إن الغنيمة التي يأمل الحصول عليها لا تساوي كل ما ينفقه بكل تأكيد.

- ليتنا نستطيع أن نضع أيدينا عليها فحسب.

- في سبيل هذا يجب أن نقوم أولاً بجميع الأبحاث الأولية.

وأخرجا الأوراق من الصندوق، وكان عملاً مملاً، وتوقف الزوجان أكثر من مرّة لمقارنة ملاحظاتهما، فقال تومي: هل يوجد جديد يا توبنس؟

- كشفا حساب قديمان، وثلاث رسائل عديمة الأهمية، ووصفة لحفظ البطاطا الجديدة، وأخرى لعمل فطيرة بالجبن والليمون.

- وفي يدي أنا كشف حساب عن الربيع، وقصاصتان من قصاصات الجرائد بإحداهما مقالة عنوانها «لماذا تشتري النساء الجواهر؟ لأنها استثمار أكيد»، وأخرى بعنوان: «الرجل الذي تزوّج أربع فتيات، قصة غريبة»، وكذلك وصفة لطهي الأرنب.

- لقد بدأت أشعر باليأس.

ولم يلبث أن فرغ ما في الصندوق وتبادل الزوجان النظرات بحيرة، ثم أخذ تومي ورقة كان قد وضعها أمامه وقال: لقد وضعت هذه جانباً على الرغم من أنه لا صلة لها بالموضوع الذي يهمّنا.

- أرِني. آه، إنها لغز!

ثم استطردت تقرأ قائلة: «شطري الأول طائر يؤكَل، ووسطي هو الأول، وكلّي يوضع على النار ويُحمّر أو يُسلَق أو يُطبخ».

تمتم تومي: هذا لغز عجيب وبسيط.

فهتفت توبنس قائلة: إذا حللنا هذا اللغز أصبح الكنز لنا، أو بالأصحّ لمونيكا.

- دعينا ندرس هذا اللغز إذن. شطري الأول طائر يؤكل ووسطي هو الأول. ماذا يمكن أن يكون هذا الطائر؟ ما هذا إلا لغز وهذر.

- لا. إنني واثقة أن الأمر سهل جداً، فيجب أن نفكر. أعطني هذه الورقة.

وأخذا يفكران ويواجهان كل الاحتمالات عبثاً. ومرت عليهما نصف ساعة وهما كذلك، وجاءت الخادمة وهما على تلك الحال فقالت لهما إن العشاء سيكون جاهزاً بعد نصف ساعة، ثم استطردت قائلة: ولكن السيدة لوملي تريد أن تعرف هل تفضّلان البطاطا محمّرة أم مسلوقة.

فأجابت توبنس على الفور: بل مسلوقة، إنني أعشق البطاطا المسلوقة.

وجحظت عيناها فجأة، فنظر تومي إليها بدهشة وقال: ما

الأمر يا توبنس؟ هل رأيت شبحاً؟

- تومي، ألا تفهم أن الكلمة هي بطاطا. بطاطا! شطري الأول طائر يؤكل أي «بط»، ووسطي هو الأول أي حرف الألف لأنه أول الحروف الهجائية، وكلّي يوضع على النار.

- مرحى يا توبنس، إنك ذكية جداً. ولكنني أخشى أن نكون أضعنا وقتاً كبيراً جداً بلا فائدة. فما دخل البطاطا بالمال؟ هل في هذه أية فائدة؟

وراح يقلب بين الأوراق حتى أخرج ورقة صفراء وقال: ها هي.

ثم قرأ: «لحفظ البطاطا الجديدة توضع في صندوق حديديّ ثم يُدفن الصندوق في الحديقة. ستظلّ البطاطا محتفظة بنضارتها وطعمها حتى فصل الشتاء كما لو كانت طازجة».

فصاحت توبنس قائلة: ها نحن قد عرفنا سرّ اللغز. إن الكنز مخبوء في الحديقة في صندوق من الحديد.

- لكنني سألت البستاني فأجابني بأنه لم يدفن شيئاً في الحديقة.

- أعرف ذلك، ولكن الناس لا يردّون أبداً على ما تطلبه منهم، وإنما يأتي ردّهم بما يُحتمل أن يكون رداً على السؤال، خصوصاً وأنه كان يعلم أنه لم يدفن شيئاً ذا قيمة. سنذهب إليه غداً ونسأله أين اعتاد أن يدفن البطاطا.

* * *

كان اليوم التالي هو اليوم الأسبق لعيد الميلاد، واستفسر

الزوجان عن بيت البستاني فأرشدهم البعض أخيراً إلى الكوخ الذي يقيم فيه. وبعد بضع دقائق من الحديث تعرضت توبنس للموضوع الذي يشغلها فقالت: كنت أرجو أن أعثر على كمّية من البطاطا الجيدة في هذا الوقت من السنة؛ فقد كنت أريد أن أطهوها مع الدجاجة الرومية. ألم يتعود الأهالي هنا على حفظها في حديقتهم في صناديق من الحديد؟ لقد سمعت أن هذه هي أحدث طريقة للاحتفاظ بها طازجة.

فأجابها الرجل الكهل قائلاً: هذا صحيح. إن السيدة دين العجوز صاحبة البيت الأحمر السابقة كانت تحملني دائماً على أن أدفن لها ثلاثة صناديق كل سنة، وكانت تنسى استخراجها أحياناً.

- وهل كنت تدفنها في أحد الأحواض المزروعة أمام البيت؟

- لا، بل بجوار السور على مقربة من شجرة الصنوبر.

فانصرف الزوجان بعد أن عرفا ما يريدان وبعد أن نقدا الرجل العجوز خمسة شلنات.

- هلُمّي بنا الآن إلى مونيكا.

- تومي، إنك ليست لديك أية دراية بما سيحدث. دعني أتصرّف فلديّ خطة مدهشة. هل تظن أننا نستطيع أن نستعير أو نسرق فأساً من أيّ مكان؟

وعثرا على الفأس ثم تسللا في وقت متأخر من الليل إلى حديقة البيت الأحمر، واهتديا إلى المكان الذي أشار إليه البستاني دون مشقة، ثم بدأ تومي العمل على الفور. ولم يلبث الفأس أن

اصطدم بشيء معدني أخرجاه من باطن الأرض فكان عبارة عن صندوق كبير، وكان مختوماً بشريط لاصق ولكن تومي أخرج مُديته وفتحته توبنس دون عناء، ولكنها شعرت بخيبة الأمل وهي ترى أن الصندوق لا يحتوي إلا على كمّية من البطاطا.

- استمرّي في الحفر يا توبنس.

وبعد قليل أخرجا صندوقاً ثانياً به كمّية من البطاطا أيضاً، فقالت توبنس بأسى: يقولون إن الثالثة نابتة.

وأخرجا الصندوق الثالث بعد قليل، ورفعت توبنس غطاءه بيدين مرتعشتين ثم قالت: بطاطا أيضاً؟ تومي، توجد البطاطا في الطبقة العليا فقط... انظر.

ثم أخرجت كيساً كبيراً من الحرير فقال: عودي الآن إلى الفندق فوراً يا توبنس، فالجوّ بارد. يجب أن أسوّي الأرض، فخُذي الكيس معك ولكن لا تحاولي فتحه إلا عند مجيئي.

ولم تنتظر توبنس طويلاً، فقد جاء تومي يلهث، ودون أن يضيع الوقت في استبدال ثيابه صاح قائلاً: أخيراً سننال الشهرة التي نريدها. لنرَ الغنيمة الآن يا سيدة بيريسفورد.

وكان بداخل الكيس حزمة مغلفة بالقماش الذي لا ينفذ منه الماء وكيس ضخم من جلد الجمل أفرغاه فوجداه مملوءاً بالقطع النقدية الذهبية، فصاح تومي قائلاً: مئتا جنيه من الذهب! أظن أن هذا هو المبلغ الذي رضي مدير المصرف أن يسلّمها إياه. افتحي الربطة الأخرى يا توبنس.

وأخرجت المرأة من الربطة الثانية حزمة ضخمة من الأوراق المالية قام الزوجان بعدّها فإذا بها عشرون ألف جنيه، فأطلق تومي

صفيراً طويلاً من بين شفيته ثم قال: حسناً، من حسن حظ مونيكا أننا ثريّان وشريفان. ماذا يوجد في هذه الورقة؟

وفتحها فإذا بها عقد ثمين من اللؤلؤ، فقال: أنا لست خبيراً في الحليّ والجواهر، ولكنني لا أعرف شيئاً إذا لم تبلغ قيمة هذا العقد خمسة آلاف جنيه على الأقل لكبر حجمه. لقد فهمت الآن لماذا احتفظت المرأة العجوز بتلك القصاصة التي تتحدث عن الاستثمار الأكيد. لقد باعت كل أسهمها واستبدلت بقيمتها نقوداً وجواهر.

- أليس هذا رائعاً؟ يا للعزيزة مونيكا، ستستطيع الآن أن تتزوّج غيرارد وأن تعيش سعيدة مثلي.

- هذا قول ظريف جداً يا توبنس. هل أنت سعيدة فعلاً؟

- نعم يا تومي، ولكنني لم أكُن أريد أن أقول ذلك. لقد أفلتت الكلمات منّي.

- وهل تجيبين على سؤالي إذا كنت تحبينني حقاً؟

- إنني أكره هذا النوع من الفخاخ، ولكن تكلّم.

- كيف استطعت أن تعرفي أن مونيكا ابنة قسيس؟

- لقد استعملت الغشّ، فقد فضضت رسالتها من غير أن أذكر لك، وكانت تطلب أن نحدّد لها موعداً. وتذكّرت أن السيد دين كان راعي الكنيسة التي كان أبي يعمل بها، وكانت له في ذلك الوقت طفلة تصغرني بخمس سنوات، فكان أن استنتجت ما تعرفه.

- إنك مخلوقة معدومة الضمير يا توبنس، ولكني أتمنى لك عيد ميلاد سعيداً.

- وأتمنى لك عيد ميلاد سعيداً يا تومي. ستقضي مونيكا

عيد ميلاد سعيداً هي الأخرى والفضل يرجع إلينا. إنني سعيدة لأن المسكينة شقيت في حياتها حتى اليوم.

- أيتها العزيزة توبنس.

- أيها العزيز تومي، لقد أصبحنا عاطفيين.

رفع تومي إصبعه بوقار مصطنع وقال: إن عيد الميلاد مناسبة لا تأتي غير مرة واحدة في السنة. هذا ما أكده أجدادنا، ويجب أن أعترف بأن هذا القول صحيح.

* * *

-١٢-

أحذية السفير

قالت توبنس وهي تلوّح بفطيرة محشوة بالزبد: صديقي العزيز.

فنظر تومي إليها بغباء لحظة ثم ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة وقال: يجب أن نعمل بحرص كبير.

فقالت توبنس: أنت على حق. أنا الآن الدكتور فورتشن المشهور وأنت المفتش بيل.

- لماذا استقرّ رأيك على أن تكوني برغنالد فورتشن؟

- ذلك لأنني أريد أن آكل الكثير من الفطائر المحشوة بالزبد.

- هذه هي الناحية المثيرة من المغامرة، ولكن يوجد شيء آخر. فلا بدّ لنا أن نفحص وجوهاً ضائعة المعالِم وجثثاً أخذها العفن.

وكان الردّ الوحيد أن ألقت توبنس إليه برسالة قرأها تومي وهو مقطب الجبين ثم قال: السفير الأمريكي راندولف ويلموت؟ وماذا يريد؟

- سنعرف منه ذلك غداً في الساعة الحادية عشرة.

وكان السيد راندولف ويلموت سفير الولايات المتحدة في إنكلترا أميناً في مواعيده، فقد أقبل في الساعة المحددة، وبعد أن تنحنح بدأ يقول: لقد قصدتك يا سيد بلانت... بالمناسبة، أظن أنك أنت السيد بلانت بالذات، أليس كذلك؟

- بلى، أنا تيودور بلانت، مدير المكتب.

- هذا أفضل، فإنني أؤثر دائماً أن ألجأ إلى المديرين المختصين؛ فهذا أمر مستحبّ من جميع الوجوه. لقد قصدتك يا سيد بلانت كي أعرض عليك أمراً يشغلني، ولكن ليس فيه ما يستحقّ أن نخطر اسكتلنديارد؛ فأنا لم يُصِبني أيّ ضرر، والأمر لا يعدو أن يكون أكثر من خطأ بسيط دون شك، ولكنني لا أفهم معنى ذلك. إنني أغلي من الغضب دائماً عندما أجد نفسي في موقف لا أستطيع له تفسيراً.

وراح السيد ويلموت يتكلّم بإسهاب وبطء معلقاً أكبر الأهمية على أدقّ التفصيلات، وأفلح تومي في تلخيص الموقف فقال: إذن أنت أتيت منذ أسبوع بالباخرة نورماندي، وبطريقة ما وفي أثناء الرحلة اختلطت حقيبتك بحقيبة رجل آخر هو السيد رالف وسترهام، والحرفان الأولان من اسمه هما نفس الحرفين الأولين من اسمك، وبهذا أخذت أنت حقيبته وأخذ هو حقيبتك. وعندما بلغ السيد وسترهام بيته أدرك خطأه فأرسل خادمه إلى بيتك لاسترداد حقيبته. أهذا هو ما حدث؟

- تماماً. كانت الحقيبتان من نوع واحد وتحمل كل منهما نفس الحرفين الأولين من اسمينا، وهو خطأ مفهوم. وأنا شخصياً لم أعرف أي شيء عن هذه المغامرة حتى اللحظة التي أخبرني

فيها وصيفي بأن السيد وسترهام، وهو عضو معروف في مجلس الشيوخ أُكنّ له أكبر الإعجاب، أرسل رجلاً من رجاله ليعيد إليّ حقيبتي ويستردّ حقيبته.

- إذا كان الأمر كذلك فإنني لا أفهم.

- سوف تفهم. ليس هذا إلا بداية القصة، فقد التقيت أمس بوسترهام وأشرت إلى الحادثة مازحاً فلم يبدُ عليه أنه فهم شيئاً مما أقول فشرحت له الأمر، وكم كانت دهشته عندما قال لي إنه لم يأخذ حقيبتي خطأ وإنه لا يملك أية حقيبة.

- هذا غريب!

- قصة لا أول لها ولا آخر لأنه إذا كان يوجد مَن أراد أن يختلس حقيبتي فلماذا يعتقد أنه مضطرّ إلى إعادتها بالتالي؟ ومهما يكُن فقد أعيدت إليّ حقيبتي، ومن ناحية أخرى إذا كان الأمر لا يعدو أن يكون مجرّد خطأ فلماذا استُخدم اسم وسترهام عضو مجلس الشيوخ؟ أريد أن تجلو لي هذه القصة يا سيد بلانت، وأرجو أن لا تظن أنها تافهة.

- أن لا أظن هذا مطلقاً. إن هذه المعضلة الصغيرة قد تكون سهلة التفسير، ولكن يجب أن أقول لك إنها محيّرة جداً إذا نظرنا إليها لأول وهلة. ألم تجد شيئاً ناقصاً من حقيبتك عندما أعيدت إليك؟

- يؤكّد وصيفي أنه لم ينقص منها شيء.

- وماذا كان يوجد فيها؟

- أحذية.

- أحذية؟!

- نعم، وهو أمر أدعى إلى الحيرة، أليس كذلك؟

- اغفر لي هذا السؤال، هل كنت تحمل مستندات سرّية أو ما أشبه مخبوءة في بطانة بعض تلك الأحذية أو في نعال زائفة؟

فبدا وكأن هذا السؤال قد أطرب السفير لأنه قال: لم تبلغ السياسة هذا الحدّ بعد، ولكنني أرجو ذلك على كل حال.

- ومن الذي جاء ليستردّ الحقيبة؟

- خادم وسترهام حسب الظاهر، ويقول وصيفي إنه رجل عاديّ كتوم، لا شيء في مظهره يثير الاهتمام.

- وهل خضعت حقيبتك للتفتيش؟

- من الأفضل أن تسأل وصيفي ريتشارد؛ فهو الذي يهتم بملابسي.

ثم أخرج من جيبه بطاقة كُتبت عليها بعض كلمات ثم ناولها لتومي قائلاً: إذا شئت أن تذهب إلى السفارة فإن هذه البطاقة ستكون لك بمثابة جواز المرور، ولكن إذا كنت تفضّل أن أرسل إليك ريتشارد...

- بل أفضّل أن أذهب إليه كي أراه أنا بنفسي.

فنهض السفير وهو ينظر إلى ساعته ثم قال: يجب أن أنصرف الآن لأن لديّ موعداً، وإلى الملتقى يا سيد بلانت. إنني أعتمد عليك.

وما إن خرج حتى تحوّل تومي إلى توبنس، وكانت قد دوّنت بعض المذكرات كما تفعل كل سكرتيرة قديرة، وقال: ما رأيك يا عزيزتي؟ هل تجدين معنى لهذا الاستبدال؟

- لا.

- حسناً، هذه بداية طيّبة؛ فهي تدل على الأقل على أنه يوجد شيء هام في هذه القصة.

- إننا إزاء معضلة غريبة. أحذية؟! ولماذا الأحذية بالذات؟

- لا ريب أنه حدث خطأ ما.

- لو أن الحقيبة كانت تحتوي على أسرار دبلوماسية لبدت القصة معقولة.

- ألا تظنين أن الذي أخذها ربما أراد أن يأخذ قالباً لبعضها.

ففكرت توبنس لحظة ثم هزّت رأسها وقالت: هذا غير معقول. أظن أنه يجب أن نسلّم بأنه لا دخل للأحذية في هذه القصة.

- على كل حال هلُمّي بنا لزيارة صاحبنا ريتشارد؛ فلعله يستطيع أن يلقي بعض الضوء على هذه الظلمات.

* * *

كان للبطاقة مفعول السحر، فقد تمكّن تومي من الوصول إلى مسكن السفير الخاص، واستقبله شاب كتوم شاحب اللون قائلاً: أنا وصيف السيد ويلموت. أظن أنني أعرف ماذا تريد يا سيدي.

- الواقع أن سيدك جاء إلى مكتبي صباح اليوم وطلب منّي أن ألجأ إليك بخصوص الحقيبة التي استُبدلت.

- إن أمرها يزعج سيدي كثيراً دون مبرّر لأنه لم يُسرق منها شيء، وقد ظننت أن الرجل الذي جاء كي يستردّها جاء من عند السيد وسترهام.

- ما أوصاف ذلك الرجل؟

- متوسط العمر وله مظهر محترم.

- هل لاحظت إذا كانت حقيبة سيدك قد فُتشت؟

- لا أظن ذلك لأنني كنت أغلقها بنفسي ووجدت أنه لم يتغير شيء من موضعه، وأعتقد أن السيد الذي أخذها ما إن فتحها ورأى أنها ليست حقيبته حتى أغلقها على الفور.

- وماذا عن الحقيبة الأخرى؟ هل فتحتها؟

- كنت أهمّ بفتحها في نفس الدقيقة التي أقبل الرجل فيها.

- وماذا حدث؟

فتحناها معاً كي يتأكد الرجل من أنها حقيبته، وألقى الرجل إليها نظرة سريعة ثم قال إنها حقيبته وأقفلها وأخذها.

- ماذا كان بها؟ هل كان بها أحذية هي الأخرى؟

- لا، بل أدوات تجميل على ما أظن، فقد خُيل إليّ أنني رأيت برطمانات أملاح للاستحمام.

وتخلّى تومي عن هذا الأثر وقال: وخلال الرحلة، ألم تُفاجأ بأحد يحاول لمس أمتعة سيّدك؟ ألم تلاحظ شيئاً مريباً في أية لحظة؟

- لا شيء على الإطلاق يا سيدي.

فقال تومي محدثاً نفسه: لا يوجد أي شيء مريب.

ولم يكُن في هذا أية دلالة، ولكن الخادم لم يلبث أن قال متردّداً: ولكنني أتذكر أنه حدث شيء لا أظن أن له أية علاقة

بذلك، فإن فتاة جميلة سمراء معتدلة القامة يبدو عليها أنها أجنبية تُدعى إيلين أوهارا أحسّت بشيء من الدوار أمام غرفة السيد ويلموت وسألتني أن أبحث لها عن طبيب، فجئتها بطبيب بعد أن عاونتها على الاستلقاء فوق أريكة سيدي، وقد قضيت وقتاً طويلاً وأنا أبحث عن الطبيب، وعندما عدنا أكّدت لنا الفتاة أنها تشعر بتحسّن كبير. فهل تظن...؟

- وهل كانت الآنسة أوهارا تلك مسافرة بمفردها؟

- نعم، أظن ذلك.

- هل رأيتها بعد أن هبطتم إلى الأرض؟

- لا يا سيدي.

- حسناً، هذا كل شيء يا ريتشارد.

* * *

عندما عاد تومي إلى المكتب أطلع توبنس على الحديث الذي جرى بينه وبين الوصيف وسألها رأيها فقالت: أي صديقي العزيز، إننا معشر الأطبّاء نشكّ دائماً في الإغماءات الفجائية، فهي تأتي في الأوقات المناسبة، ثم إن اسم إيلين أوهارا أيرلندي.

- لقد اهتدينا إلى أثر أخيراً. هل تعرفين ماذا سأفعل يا توبنس؟ سأنشر إعلاناً في الجريدة كي أعثر على تلك الفتاة.

- ماذا؟!

- نعم، سأقول إنني أبحث عن معلومات تتعلق بفتاة تُدعى الآنسة أوهارا سافرت على السفينة نورماندي في يوم كذا، وإذا لم يكُن يوجد ما تؤاخذه نفسها عليه فستردّ بنفسها على الإعلان،

وإلا فقد يأتي أيّ شخص آخر بدلاً منها. هذه فرصتنا الوحيدة في العثور على أثر.

- ولكن لا تنسَ أنك ستحذّرها بهذه الطريقة.

- لا بأس. هذه أخطار المهنة على كل حال.

- ما زلت لا أرى المعنى من كل ذلك. إذا كانت عصابة من المجرمين هي التي استولت على حقيبة السفير واحتفظت بها ساعة أو ساعتين فما الذي استفادته؟ إذا كانت الحقيبة المذكورة تضمّ مستندات سرّية فإنني أفهم، ولكن السيد ويلموت يؤكد أن الأمر ليس كذلك.

فنظر تومي إلى زميلته بتفكير ثم قال: إنك تذكرين الحقائق بطريقة دقيقة يا توبنس، وقد خطرت لي فكرة.

* * *

بعد يومين من ذلك خرجت توبنس لتناول طعام الغداء في حين راح تومي يطالع رواية بوليسية ظهرت حديثاً. وبعد ذلك بقليل فُتح الباب وقال ألبرت: امرأة شابة تريد أن تراك يا سيدي، اسمها الآنسة سيسلي مارش، وتقول إنها أتت بخصوص إعلان صغير.

فصاح تومي وهو يلقي بروايته في أحد الأدراج قائلاً: دعها تدخل.

وبعد دقيقة أدخل ألبرت الآنسة مارش، فرأى تومي فتاة شقراء جميلة، ولم يكَد يتحقق من ذلك حتى وقع شيء غريب، فقد فُتح الباب بعنف ووقف بعتبته رجل أجنبيّ له شعر أسود يبدو

من هيئته أنه إسباني ويرتدي ثياباً صارخة وربطة عنق لونها أحمر قانٍ، وكان متوتر الملامح لفرط الغضب ويشهر في يده مسدساً، ثم قال بلغة إنكليزية سليمة: هذا إذن هو مكتب صاحبنا المخبر المشهور. ارفع يديك وإلا أطلقت النار.

وإزاء لهجة ذلك الأجنبي لم يحاول تومي المناقشة في حين التصقت الفتاة بالحائط مذعورة، وقال الرجل: هذه الفتاة ستأتي معي. نعم يا عزيزتي، أنت لم ترَيني قبل الآن، ولكن ليس لهذا أية أهمية. إننا لا نريد أن تفشل خططنا بسبب فتاة حمقاء. من الواضح أنك كنت على ظهر الباخرة نورماندي وأنك حشرت أنفك حيث لا يجب، ولكنني لن أدَعك تفشين معلومات ثمينة لهذا الرجل. إن إعلانك يدلّ على ذكاء شديد يا صديقي، ولكنني أقرأ الجرائد أنا الآخر. سنراقبك من الآن فصاعداً، وإذا تخلّيت عن اهتمامك بهذه القضية تركناك وشأنك، وإلا فإن الموت سرعان ما يخطف الذي يحاولون عرقلة خططنا.

لم يُجِب تومي وظل يحدق بعينيه من فوق كتف الرجل؛ فقد رأى شيئاً ملأه ذعراً لأن ألبرت -وكان قد نسى أمره وحسبه طريحاً في غرفة الاستقبال- دفع الباب برفق وتسلّل خلف الرجل الأجنبي وفي يده حبل له أنشوطة كبيرة. فأطلق تومي صيحة ولكن كان المحظور قد وقع، فقد طوّح ألبرت بحبله بسرعة فأحاطت الأنشوطة بكتفَي الرجل الذي فقد توازنه، ووقع ما كان لا بدّ له أن يقع، فقد انطلقت رصاصة ومرّت وهي تصفر بجوار أذن تومي قبل أن تختفي في الجدار. وصاح ألبرت وقد أحمرّ وجهه لفرط سروره: لقد أمسكت به يا سيدي، فإنني أتمرّن في أوقات فراغي على اللعب بالحبل. هل لك أن تساعدني يا سيدي؟ إن هذا الحيوان قويّ جداً.

فأسرع تومي إلى نجدته وهو يتساءل ماذا يفعل كي يلغي أوقات فراغ ألبرت وقال: أيها الغبي، لماذا لم تذهب لتأتي بشرطيّ؟ بسبب تجربتك هذه كادت الرصاصة أن تصيبني، وقد نجوت من الموت بأعجوبة.

فأجاب ألبرت دون أن يضطرب: لقد تغلّبت عليه في لمح البصر. إن رجل السهول يفعل الكثير بحبل في يده.

- ولكننا لسنا في السهول يا ألبرت.

ثم أردف يقول وهو يلتفت إلى الرجل الغريب وكان قد أوثق قيده جيداً: والآن أين أذهب بك يا صاحبي؟

فردّ الرجل عليه بسبّة معبّرة بلغة أجنبية، فقال تومي محتجاً: بالرغم من أنني لا أفهم ما تقول فإنني واثق أنه ليس من هذا النوع الذي يجب أن تنطق به أمام سيدة. معذرة يا آنسة، بعد هذا الذي حدث أظن أنني نسيت اسمك.

فتمتمت الفتاة هامسة: مارش.

ثم اقتربت من الرجل الموثق الطريح فوق الأرض وهي شاحبة اللون وقالت: ماذا تنوي أن تفعل بهذا الرجل؟

فقال ألبرت: أستطيع أن أبحث عن شرطيّ.

غير أن تومي أسرع عندما رأى الفتاة تهزّ رأسها: سندعه يمضي إلى حال سبيله هذه المرة، ولكن يسرّني أن أدحرجه على الدرَج.

وفكّ وثاقه وعاونه على الوقوف، وبحركة مفاجئة دفع به خارج المكتب وألقاه من فوق الدرَج، وتناهت إلى الأسماع صرخة

ثم صوت ارتطام جسم، وعاد تومي وهو يلهث وعلى شفتيه ابتسامة عريضة. ونظرت الفتاة إليه وقالت: هل آذيته؟

- أرجو ذلك، ولكنّ هؤلاء الإسبانيين يصرخون دائماً قبل أن يلمسهم أحد، ولست واثقاً إذا كان قد أصابه ضرر أم لا.

وأمسك لحظة كما لو كان يستردّ أنفاسه ثم قال: هلا استأنفنا حديثنا يا آنسة؟ أرجو أن لا يزعجنا أحد هذه المرة.

وعندئذ قال ألبرت: سأحتفظ بالحبل معي.

فصاح تومي به: ضعه مكانه بالله عليك ولا تلمسه بعد ذلك.

انسحب الفتى وقد بدا عليه الاستياء في حين راحت الفتاة تقول: لقد كنت مسافرة على الباخرة نورماندي كما قال ذلك الرجل. والآنسة أوهارا، وهي السيدة التي تبحث عنها، كانت مسافرة هي الأخرى على نفس المركب.

- إننا نعرف هذا، ولكنني أظن أنك تعرفين شيئاً خاصاً يتعلق بذلك السيد، وإلا ما أسرع بالتدخل هكذا.

- سأذكر لك كل شيء. إن السفير الأمريكي كان يسافر على نفس المركب، وذات يوم في حين كنت أمرّ أمام مقصورته وكان الباب مفتوحاً رأيت السيدة في غرفته، وكانت منهمكة في عمل غريب بحيث وقفت كي أراقبها. لقد كانت تمسك في يدها بفردة حذاء.

- فردة حذاء؟! معذرة، استمرّي.

- وبواسطة مقصّ قطعت بطانتها وبدا لي أنها دسّت شيئاً

بداخلها، وفي تلك اللحظة أقبل أحد المسافرين وضابط السفينة نحوي، وعندما سمعت الفتاة وقع قدميهما تهالكت فوق الأريكة وهي تتأوّه، ففهمت على الفور أنها تظاهرت بالإغماء.

- وماذا بعد ذلك؟

- أكره أن أقول لك ما حدث بعد ذلك ولكن الفضول كان أقوى منّي، فترقبت ساعة غادر فيها السفير مقصورته ودخلت بدوري وفحصت فردة الحذاء المذكورة فوجدت داخل البطانة قطعة من الورق هممت بقراءتها، وعندما سمعت الخادم يقترب في الممرّ أسرعت خارجة، ورأيت أنني ما زلت أمسك بالورقة في يدي فمضيت إلى غرفتي كي أقرأها، لكنني لم أرَ فيها شيئاً غير بعض آيات من الإنجيل.

- الإنجيل؟

- هذا ما ظننته على الأقل. وقد ودفعني هذا إلى العدول عن إعادتها إلى مكانها لأنني رأيت أن الأمر لا يعدو أكثر من تصرّف صدر من مجنون، ولم أشأ أن أخاطر بأن يضبطوني في غرفة السفير بسبب تافه كهذا، ولكنني استخدمت الورقة أمس كي أصنع منها قارباً لولدي الصغير ووضعتها في حوض الاستحمام، وما كدت أفعل حتى رأيت على الفور علامات تظهر فوقها، فالتقطتها ولاحظت أن بعضهم رسم عليها رسماً لميناء بحبر سرّي. ولهذا ما إن قرأت إعلانكم حتى قرّرت المجيء.

فنهض تومي وراح يذرع أرض المكتب وهو يتمتم قائلاً: من الجائز أن يكون هذا الرسم لميناء عسكريّ، ومن الجائز أن تكون هذه المرأة قد سرقته ثم خشيت أن يفتشوها فاختارت هذا المخبأ، ثم استبدلت الحقيبة بعد رأت أن الرسم قد اختفى. أخبريني يا آنسة

مارش، هل معك هذه الورقة؟

- لا، لقد تركتها في المحلّ الذي أعمل به. إنني أدير محلاً للتجميل في شارع بوند، وأنا وكيلة منتجات سيكلامان بنيويورك، وهذا يفسر لك رحلتي. لقد خطر لي أن الورقة من الأهمية بحيث وضعتها في خزانتي. ألا تظن أن إدارة اسكتلنديارد يجب أن تعرف ذلك؟

- بلى، وعلى الفور.

- هل تريد أن نذهب الآن كي تأخذ الورقة كي نريها لهم؟

فقال تومي بلهجة عملية متنهداً وهو يلقي نظرة إلى ساعته: إنني مشغول جداً بعد ظهر اليوم، فإن أسقف لندن تواعد معي كي يعرض عليّ قضية مهمة.

فقالت الزائرة وهي تنهض: إذا كان الأمر كذلك فسأذهب وحدي.

- لحظة واحدة يا آنسة، كنت أهمّ بأن أقول إن الأسقف يمكنه أن ينتظر. سأترك رسالة لسكرتيرتي بخصوصه لأنني مقتنع بأنك ستكونين في خطر كبير يا آنسة مارش ما دامت هذه الورقة بعيداً عن اسكتلنديارد.

وكتب بضع كلمات في ورقة طواها ثم أخذ قبعته وعصاه وخرج مع الفتاة، وفي صالة الاستقبال أعطى الورقة لألبرت وهو يقول: إنني خارج في قضية عاجلة. إذا جاء صاحب الفخامة قبل أن أعود فاعتذر له، وهذه الكلمة للآنسة روبنسون.

فأجاب ألبرت وهو يقوم بدوره خير قيام: حسناً يا سيدي. وماذا بخصوص جواهر الدوقة؟

فأتى السيد بلانت بحركة تدلّ على نفاد الصبر وقال: يمكن لهذه القضية أن تنتظر.

وخرج برفقة الآنسة مارش، وعلى الدرَج التقيا بتوبنس وكانت عائدة بعد أن تناولت غداءها، فتجاوزها تومي وهو يقول بغلظة: متأخرة كعادتك يا آنسة روبنسون. إنني خارج في قضية عاجلة، فاهتمّي بالمكتب ريثما أعود.

فنظرت توبنس إليهما بذهول وهما يبتعدان، ثم قطبت جبينها واستأنفت الصعود.

* * *

كان تومي والفتاة قد خرجا من باب البيت وقطعا بضع خطوات على الرصيف عندما تقدّمت سيارة أجرة ووقفت أمامهما، وهمّ تومي بأن يركبها ولكنه لم يلبث أن غيّر رأيه وقال: هل تجيدين المشي يا آنسة مارش؟

- نعم، ولكن أليس من الحكمة أن نستقلّ هذه السيارة؟ سنصل سريعاً هكذا.

- لعلك لم تلاحظي ما رأيته أنا، فإن السائق رفض أن يقلّ راكباً قبلنا؛ فقد كان ينتظرنا. إن أعداءك يتربّصون بك، وإذا رأيت أنك تستطيعين السير في شارع بوند فقد يحالفنا الحظ ونختلط بالمارّة فنفلت منهم.

- اتفقنا.

وكانت لهجة الفتاة تدلّ على أنها لم تقتنع. وفعلاً كانت الشوارع مزدحمة جداً كما قال تومي، فراحا يتقدمان ببطء

ويصطدمان بالمارّة دون انقطاع. وكان تومي متيقظاً، وقد سحب زميلته أكثر من مرة بحركة مفاجئة، وإن كانت هي لم تلحظ ما يريب، ونظر إليها فجأة وبدا كأن ضميره يوبخه فقال: إنك شاحبة، ولا ريب أن الصدمة قد أثّرت فيك. ما رأيك في فنجان من القهوة؟

فهزّت الآنسة مارش رأسها بابتسامة حزينة فقال تومي: هلُمّي بنا لتناول فنجان من القهوة. لا يوجد أي خوف من أن يكون مسموماً.

وقطعا فترة طويلة في احتساء القهوة، وعندما استأنفا السير راحا يمشيان بخطوات أسرع، ثم قال تومي: أظن أننا تخلّصنا منهم هذه المرة.

وبلغا شارع بوند حيث يقع المحلّ الذي تديره الآنسة مارش. كانت توجد ستائر وردية اللون تستر ما بداخله عن الأعين، وفي الواجهة صُفّت بضع علب من دهانات الوجه والشعر وأدوات التجميل تتوسطها قطعة من الصابون بلون الباستيل. ووقفت الآنسة مارش لحظة ثم دخلت وتومي خلفها، وكان المحلّ صغيراً به مقصورة من الزجاج على اليسار تجلس فيها امرأة متوسطة السن ذات شعر بنفسجيّ وبشرة متلألئة، وكانت تتحدّث مع عميلة سمراء لاحظ تومي والآنسة مارش أنها تتكلّم بتردّد، وعلى اليمين أريكة ومقعدان ومنضدة فوقها بعض المجلات، وقد جلس رجلان يبدو عليهما الضجر، ولم يكُن يوجد ريب في أنهما زوجان ينتظران زوجتيهما.

اجتازت سيسل مارش المحلّ من غير أن تتوقف ففتحت باباً اختفت فيه برفقة تومي، وفي تلك اللحظة صاحت العميلة قائلة:

آه، يخيل إليّ أن هذا الرجل من أصدقائي.

وأسرعت خلف تومي. أما الرجلان اللذان يبدو عليهما الضجر فقد نهضا ببطء، فتوجّه أحدهما نحو باب في المؤخرة فاختفى خلفه، في حين دار الآخر بالمقصورة الزجاجية ووضع يده في الوقت المناسب فوق فم المرأة التي همت بأن تصيح. وفي مؤخّرة المحلّ دارت الأحداث بصورة غريبة، فما إن دخل تومي حتى أُلقيت على رأسه خرقة مبتلة وأحسّ على الفور برائحة بغيضة تثقل عليه، ولكن في نفس الوقت بالتقريب رُفعت الخرقة عن رأسه وصدرت صرخة حادة من بين شفتَي الآنسة مارش جعلت السيد بيريسفورد يرتعد. وطرفت عيناه وهو يرى المشهد الذي يدور أمامه على بُعد خطوات منه، فقد كان أحد الزوجين الزائفين اللذين كانا ينتظران زوجتيهما يضع الأصفاد على يدَي الرجل الأجنبيّ الذي هجم على تومي قبل ذلك في مكتبه في حين كانت الآنسة سيسل مارش تحاول التخلص من العميلة السمراء، ولم تلبث أن انقشعت الغيوم التي أمام وجهه فجأة فرأى قسمات توبنس فصاح يقول بحماسة: مرحى يا توبنس.

- لا فائدة من محاولة الهرب يا آنسة أوهارا؛ فقد انتهت اللعبة، أو لعلك تفضّلين أن أدعوك باسم الآنسة مارش؟

وأشارت توبنس إلى المفتش قائلة: أقدّم لك المفتش غريس من إدارة اسكتلنديارد. ما إن قرأت رسالتك حتى اتصلت به هاتفياً، وقد اتفقنا على أن نلتقي هنا أمام محلّ التجميل برفقة أحد رجاله.

فقال المفتش وهو يشير إلى أسيره: يسرّني أنني استطعت القبض على صاحبنا هذا؛ فإنه شديد الخطر، وما كنت أظن أنني

سأجده هنا.

وقال تومي بخيلاء: أرأيت يا توبنس؟ من المهم أن تعرفي كيف تتقدمين بكل حرص وحذر. لماذا أراد البعض أن يحصل على حقيبة السفير لمدة ساعة أو ساعتين؟ لقد ألقيت على نفسي هذا السؤال كثيراً. لعل أحدهم قد أراد أن تبقى حقيبته هو مع السفير ساعة أو ساعتين. إنها فكرة لامعة، فإن حقائب الدبلوماسيين لا تخضع للتفتيش في الجمارك، وعندئذ فكّرت أن الأمر يتعلق بالتهريب، ولكن تهريب أي شيء؟ شيء غير ثقيل، مخدّرات مثلاً؟ ربما. ثم دارت بعد ذلك تلك المهزلة الصغيرة في مكتبي، فإن المهرّبين قرؤوا الإعلان الذي نشرته بالجريدة وأصرّوا على خداعي والتخلّص منّي عند اللزوم، ولكن حين أفلح ألبرت في لعبته الصغيرة بأنشوطته رأيت نظرة الاستياء التي ارتسمت في عينَي الفتاة، ولم يكُن هذا لينطبق على الدور الذي تقوم به. لم يكُن للدور الذي قام به ذلك الأجنبي من غرض إلا ازدياد ثقتي بها، فرأيت أن أتظاهر بالسذاجة وهي تروي لي قصّتها، على الرغم من غرابتها، كي تحملني على المجيء إلى هنا، ولكنني تركت خلفي تعليمات دقيقة وتذرّعت بحجج كثيرة كي نتأخر في الوصول حتى يتمكن رؤسائي من اتخاذ الإجراءات اللازمة.

فنظرت سيسل إليه وقالت: أنت مجنون! ماذا تأمل أن تجد هنا؟

- أتذكّر أن ريتشارد قال لي إنه رأى في حقيبتك علب أملاح للاستحمام.

والتفت تومي إلى المفتش ثم قال: لعله يمكننا أن نبدأ بهذه الأصناف.

- فكرة طيّبة يا سيد بلانت.

وأخذ تومي العلبة الأولى التي وجدها فأفرغها فوق المكتب وقال: لا فائدة، هذه بلّورات حقيقية.

واقترب من الخزانة الحديدية المدفونة في جدار الغرفة وكان مفتحاها في القفل، وما إن فتح الباب حتى أفلتت من بين شفتيه صرخة انتصار، فقد كانت بالخزانة رفوف صُفت فوقها علب كثيرة، فأخذ واحدة منها فأفرغها فوجد تحت البلّورات مسحوقاً أبيض ناعماً. وانحنى المفتش فوقه، وكانت نظرة واحدة كافية، فقال: كوكايين. كنا نعرف أنه يوجد مخزن لتوزيعه في وست إند، ولكن ما كان ليخطر لنا أن نجده هنا. مرحى يا بلانت!

وبينما كان تومي يجتاز عتبة المحلّ وبرفقته توبنس بعد بضع دقائق قال: إن مكتب بلانت المشهور حاز نجاحاً باهراً، وإنها لميزة كبيرة أن يكون الرجل متزوّجاً، فإن كثرة انتقاداتك كان من شأنها أن جعلتني شديد الملاحظة وحملتني على أن أدرك على الفور أن شعر الآنسة سيسل مارش الأشقر مصبوغ. لقد كانت الآنسة أوهارا سمراء كما قال ريتشارد، ولكن أول شيء لفت نظري عندما جاءت الآنسة سيسل هو شعرها الأشقر اللامع. سنكتب خطاباً للسفير نقول فيه إننا حللنا معضلته الصغيرة. والآن ما قولك في أن نذهب لتناول الشاي وكل ما تريدين من فطائر؟

* * *

-١٣-

الرجل رقم ١٦

استدعى الرئيس تومي بيريسفورد وزوجته وأطنب في مدحهما وقال: الفضل لكما في أننا ألقينا القبض على خمسة أشخاص نهتمّ بهم منذ وقت طويل، وقد جمعنا منهم معلومات ثمينة جداً. ومن ناحية أخرى علمنا من مصدر موثوق به أنهم في موسكو تملّكهم الغضب لأنهم فقدوا الاتصال بعملائهم الروس في إنكلترا، وعلى الرغم من كل الاحتياطات التي اتخذناها فإنني أخشى أن ترقى شكوكهم إلى مركز تجمّعاتهم، وأعني به مكتب بلانت الدولي.

فقال تومي: هذا أمر لا بدّ من توقّعه ذات يوم.

- هذا صحيح، ولكنني شديد القلق من أجل سلامة السيدة بيريسفورد.

- سوف أعتني بذلك يا سيدي، وأستطيع أن أعتني بنفسي بمفردي.

- إن كلاً منكما معتدّ بنفسه إلى حدّ كبير، وإن الحصانة التي تمتعتّما بها حتى اليوم ربما كان مصدرها ذكاءكما الخارق، وربما كان جانباً كبيراً من الحظ. ومهما يكُن فإن عجلة الحظ قد تدور،

ولا أريد أن أستسلم للتشاؤم، وأظن أنه لا توجد فائدة من أن أطلب من السيدة تومي أن تبقى بعيداً هذه الأيام.

- لا توجد أي فائدة.

- حسناً. كل ما أستطيع أن أفعله هو أن أطلعكما على المعلومات التي لديّ إذن. لدينا من الأسباب ما يحملنا على الاعتقاد بأن روسيا بعثت بعميل خاصّ إلى إنكلترا، ولا أعرف متى يصل بالذات ولا بأيّ اسم يسافر، ولكنني أعلم أن ذلك الرجل سبق أن سبّب لنا الكثير من المتاعب في أثناء الحرب، فقد كنا نجده حيث لا نتوقّع وجوده، وهو روسيّ الجنسية ولكنه يتقن عدة لغات ويمكنه أن يتجنّس بستّ جنسيات مختلفة بما فيها جنسيتَينا، ثم إنه فوق ذلك أستاذ في فنّ التنكّر، وهو الذي وضع الشفرة رقم ١٦، ومن الجائز أن يتقدم ذات يوم إلى مكتبكم مدّعياً أن لديه قضية يريد أن يعهد بها إليكم، وخلال الحديث الذي سيدور بينكم سينصِب لكما فخاً من كلمات المرور، وأول هذه الكلمات كما تعرف هي الرقم ١٦، وعندئذ يجب أن تردّ عليه بأنك كنت في برلين في اليوم الثالث عشر من الشهر الماضي، وهذا كل ما نعرفه. أجب على هذه الأسئلة كما ينبغي لتكتسب ثقة صاحبنا، ولكن كُن على حذر دائماً حتى وإن رأيت منه أنه راضٍ غير متشكّك، فإن صاحبنا هذا خبيث جداً وبمقدوره أن يلعبَ لعبة مزدوجة خيراً من أي شخص آخر، وأنتما فرصتي الوحيدة كي أضع يدي عليه. وابتداءً من اليوم سأتخذ احتياطيات خاصة، فقد وضعنا مسجّلاً في مكتبك، ويوجد رجل في الغرفة التي فوقكما كي يسمع كل ما يدور، وبهذه الطريقة وعند وقوع ما يريب أستطيع أن أُعنى بكما معاً من غير أن أفقد صيدي الثمين.

وبعد أن أصغيا إلى كل هذه التوصيات استأذن الزوجان في الانصراف عائدَين إلى مكتبهما، وألقى تومي نظرة إلى ساعته ثم قال: إن الوقت موشك على الظهر، وأرجو أن لا يكون قد فاتتنا قضية هامة.

- لقد دوّنت أمس قائمة بالقضايا التي قمنا بها. لقد استطعنا أن نجلو أربعة أسرار معقّدة جداً، وتغلّبنا على عصابة لتزييف النقود، وعصابة المهربين، وكشفنا سرّ الجواهر المسروقة، وأفلتنا من الموت العنيف مرتين، وأغثنا فتاة مسكينة. وفي الجملة نجحنا تماماً، وهذا يدلّ على أننا على قدر من الذكاء.

- هذا رأيك دائماً، ولكنني أرى أن الحظ حالفنا مرة أو مرتين حقاً، وإن كان ألبرت أوشك أن يوردني موارد التهلكة بحبله، ولكنك تتكلّمين عن كل هذا كما لو أن الأمر قد انتهى بالنسبة إلينا.

- هذا صحيح.

ثم أردفت قائلة بلهجة الجدّ: هذه هي قضيتنا الأخيرة، فعندما يُلقون القبض على هذا الجاسوس الغامض فإن المخبر المشهور السيد بلانت سيعتزل العمل كي يهتمّ بزراعة الكرنب، هذا هو ما يحدث دائماً.

- هل تعبت من المغامرة؟

- هذا جائز، ومن ناحية أخرى فإننا قد نجحنا حتى اليوم، وأخشى أن يتخلى الحظ عنا.

- من الذي يتحدّث عن الحظ الآن؟

وفي تلك اللحظة كانا قد بلغا العمارة التي يقع فيها مكتبهما،

ودخلا المكتب فوجدا ألبرت يحاول الاحتفاظ بمسطرة معتدلة فوق أنفه، فنظر بلانت إليه مقطباً ومضى إلى مكتبه، وتخلّص من معطفه وقبعته ثم فتح خزانة الثياب حيث توجد مجموعة رواياته البوليسية الشهيرة وقال: لقد ضاقت الحلقة ولا أعرف مَن أختار اليوم.

فتحدثت توبنس بلهجة غير عادية جعلته يلتفت فجأة، فقد قالت: التاريخ... ما تاريخ اليوم؟

- لماذا؟

- انظر إلى التقويم.

كان تقويم الحائط يشير إلى أن ذلك اليوم هو يوم السبت السادس عشر في حين أن اليوم كان يوم الإثنين الحادي عشر، فقال تومي: هذا غريب! لا ريب أن ألبرت أخطأ وانتزع بضع ورقات أكثر. إنه غير دقيق.

- لا أظن أنه هو الذي أخطأ، ولكن يمكننا أن نسأله.

لكن ألبرت أقسم أنه لم ينتزع غير ورقتين اثنتين وهما ورقتا السبت والأحد، ثم إنه أشار إليهما لأنهما كانتا لا تزالان في الموقد، فوجدا الأوراق الأخرى في سلّة المهملات فقال تومي بدهشة: هذا عمل مقصود! هل أقبل أحد صباح اليوم في أثناء غيابي؟

- نعم يا سيدي. لقد أتت ممرّضة، وكانت تتحرّق شوقاً لرؤيتك، ورضيَت أن تنتظرك فمضيت بها إلى مكتب المستخدمين لأنه أكثر دفئاً من أيّ مكان آخر.

- ومن مكتب المستخدمين انتقلت إلى هنا من غير أن تلحظها. متى انصرفت؟

- منذ نصف ساعة تقريباً يا سيدي، وقالت إنها ستعود بعد ظهر اليوم. إنها فائقة الجمال.

- فائقة الجمال؟ اغرب عن وجهي.

وأسرع الفتى فأطاعه ثم قال تومي يخاطب توبنس: هذه مقدمة غريبة ولا طائل منها الآن، فسوف نكون على حذر. أرجو أن لا يكونوا قد دسّوا قنبلة في الموقد أو تحت مقعدي.

وبعد فحص سريع جلس مكانه وقال بهدوء: علينا الآن أن نواجه مشكلة على جانب من الأهمية يا صديقتي. لعلك تتذكرين العميل رقم أربعة الذي حطّمته. إنه لم يمُت حقاً، فإن هؤلاء المجرمين العتاة لا يموتون بسهولة، وأظن أن عميلنا رقم أربعة هو نفس العميل رقم ١٦. هل تفهمين يا صديقتي؟

- بكل تأكيد. أنت الآن هيركيول بوارو العظيم.

- أجل، ولكن من غير شارب، ومع ذلك فإن خلايا مخّي تعمل بنشاط.

- لديّ إحساس بأن هذه القضية ستُعرف باسم انتصار هيستنغز.

- هذا مستحيل يا عزيزتي لأن الصديق الغبيّ سيظلّ غبياً دائماً. يجب أن نحترم العرف والأصول.

وفي تلك اللحظة رنّ الجرس ثم دخل ألبرت وبيده بطاقة قرأها تومي بصوت خافت ثم قال: الأمير فلاد ميروفسكي؟ أدخله يا ألبرت.

كان الرجل الذي دخل معتدل القامة رشيق الحركة له لحية

شقراء وكان في نحو الخامسة والثلاثين من عمره، وقال بلغة إنكليزية سليمة: السيد بلانت. لقد أشاد أصدقائي بموهبتك، فهل يمكنك أن تساعدني في قضية لي؟

- هلاّ ذكرت لي التفصيلات يا سيدي؟

- إنها تتعلق بابنة صديق لي في السادسة عشرة من عمرها، وهو يريد أن يتجنّب الفضيحة.

- إن مكتبي يعمل منذ ستة عشر عاماً وذلك بفضل احترامنا لأسرارنا المهنية يا سيدي.

وخُيل إلى تومي أنه رأى وميضاً يبرق في عينَي محدّثه، ولكنه لم يكُن متأكداً. قال الرجل: ألديك مراسلون في الضفّة الأخرى من المانش؟

ودون أيّ تردّد أجاب تومي قائلاً: طبعاً، ثم إنني كنت في برلين في الثالث عشر من الشهر الماضي.

- ما دام الأمر كذلك فلا داعي إلى اللفّ والدوران، ولندَع ابنة صديقي الآن. لا ريب أنك أُخطرت بمجيئي.

- هذا صحيح.

- لقد قدمت كي أدرس الموقف عن قرب. ماذا حدث؟

فلم تستطع توبنس التزام الصمت أكثر من ذلك فتدخلت قائلة: خيانة.

فحوّل الروسي اهتمامه إليها وقال مقطباً: أهكذا؟ هذا ما اعتقدت. هل يتعلّق الأمر بسرغيوس؟

فأجابت توبنس دون أن تضطرب: إننا نظن ذلك.

– هذا لا يدهشني، ولكن ألستما أنتما بالذات عرضة لأية شبهة؟

فقال تومي: لا أظن؛ فإننا نقوم في الوقت الحالي بكثير من القضايا الهامة.

– هذا أمر حكيم فعلاً، ومع ذلك فمن الأفضل أن لا آتي بعد اليوم. إنني أنزل بفندق بليتز، وأقترح أن أصحب ماريز معي. أنتِ ماريز طبعاً؟

فأومأت توبنس بالإيجاب فقال: وبأيّ اسم تُعرفين هنا؟

– الآنسة روبنسون.

– حسناً يا آنسة روبنسون، أرى أن ترافقيني إلى فندق بليتز حيث أقيم، ثم نلتقي جميعاً في المركز العام في الساعة الثالثة. هل اتفقنا يا سيد بلانت؟

فأجاب بلانت قائلاً: اتفقنا.

وتساءل بينه وبين نفسه أين يمكن أن يكون هذا المركز العام، لا ريب أنه أحد الأماكن التي يتمنّى كارتر معرفتها.

وارتدت توبنس معطفاً طويلاً أسود اللون وأبدت استعدادها وخرجت مع الأمير تاركين تومي المسكين فريسة لمشاعر متناقضة، ثم قال في نفسه: لنفرض أن المسجّل توقف عن العمل بسبب ما، أو أن الممرّضة الغامضة اكتشفت أمره وعطّلته.

وبحركة سريعة تناول سماعة الهاتف وأدار رقماً، فردّ عليه على الفور صوت طمأنه قائلاً: كل شيء على ما يرام يا بيريسفورد، قابلني حالاً عند مدخل فندق بليتز بعد خمس دقائق.

وبعد خمس دقائق كان تومي والسيد كارتر يقفان في حديقة فندق بليتز، وكان كارتر متيقظاً لكل كبيرة وصغيرة ولكنه كان هادئ الأعصاب.

- لقد قمت بالعملة على خير ما يرام يا بيريسفورد، والأمير والسيدة الصغيرة يتناولان طعام الغداء في مطعم الفندق حيث يراقبهما رجلان من رجالنا يقومان بالخدمة مع رجال المطعم. وسواء كان الأمير يشكّ في الأمر أم لا، وأنا شخصياً لا أعتقد أنه يشتبه في شيء، فليس لهذا أية أهمية لأننا نمسك بطرفَي الشبكة. ويوجد رجلان من رجال يقومان بالحراسة أمام مسكنه، وكل المنافذ عليها مراقبة دقيقة بحيث إنه إذا خرج فجأة يمكن اقتفاء أثره بسهولة. لا تقلق على زوجتك، فإننا نحرص عليها.

ومن وقت إلى آخر كان أحد رجال الشرطة يأتي لتقديم تقرير وهو يرتدي الزيّ الخاص برجال المطعم، وبعد فترة كبيرة أقبل رجل جامد الأسارير وهمس ببضع كلمات في أُذنَي الرئيس، فتحول هذا الأخير إلى تومي وقال: لقد فرغا من تناول الطعام ويتأهبان للخروج. سنختفي خلف أحد هذه الأعمدة؛ إذ من الجائز أن يأتيا هنا. نعم، هذا ما توقّعته. إنهما يصعدان إلى مسكنه.

ورأى تومي وهو في مكانه الروسي وتوبنس يجتازان البهو ويدخلان المصعد وأُقفل الباب خلفهما، ومضت الدقائق ببطء وبدأ تومي يفقد أعصابه، فقال له المفتش: هدئ من روعك يا عزيزي، إن أحد رجالي يختبئ خلف أريكته.

وفي تلك اللحظة أقبل نادل وقال: جاءتني إشارة بأنهما يصعدان يا سيدي، ولكنهما لم يخرجا من المصعد.

- ماذا؟ لقد رأيناهما يدخلان معاً منذ...

وألقى نظرة إلى ساعة الحائط واستطرد قائلاً: منذ أربع دقائق، وتقول إنهما...

ومضى بخطوات كبيرة نحو المصعد، وكان قد هبط لتوّه وخاطب العامل الذي يتولى الخدمة فيه قائلاً: منذ بضع دقائق صعد رجل له لحية شقراء وبرفقته سيدة شابة، فهل خرجا في الطابق الثاني؟

- لا يا سيدي، بل في الطابق الثالث.

فدخل كارتر المصعد وأشار إلى تومي أن يصحبه، وصعد بهما المصعد إلى الطابق الثالث ثم زمجر الرئيس قائلاً: إنني لا أفهم، ولكن لا تقلق يا بيريسفورد، يوجد رجل من رجالي في الطابق الثالث كذلك.

وعندما بلغ المصعد الطابق الثالث اندفع الرجلان إلى الممر حيث أسرع إليهما شابّ يرتدي الزيّ الأبيض الخاص بالفندق وقال: كل شيء على ما يرام يا سيدي. إنهما بالغرفة رقم ٣١٨.

فتنهّد كارتر بارتياح وقال: حسناً، كم باباً لهذه الغرفة؟

- إنها عبارة عن مسكن له بابان يؤديان إلى هذا الممرّ.

- حسناً، تكلّم في الهاتف مع كاتب الاستقبال واسأله من الذي يقيم فيه.

وعاد الرجل بعد لحظات وقال: تقيم فيه السيدة كورتلاند فان سنايدور من ديترويت يا سيدي.

فارتسم القلق على وجه كارتر وقال: أتكون هذه السيدة شريكة له أم...؟ هل سمعت أية حركة داخل المسكن؟

- لا؛ فالأبواب سميكة جداً.

- إنني لا أحبّ سير الأحداث. هل معك مفتاح احتياطيّ؟

- طبعاً.

- ادعُ إيفانز وكلايدسلي.

وتقدم كارتر ورجاله إلى المسكن رقم ٣١٨ وفتح إيفانز الباب ودلفوا منه إلى بهو ضيّق على يمينه غرفة حمّام بابها مفتوح وغرفة استقبال، وعلى اليسار باب مغلق تناهى إلى سمعهم من خلفه صوت تنفّس ضعيف، فأدار كارتر المقبض ودخل.

كانت الغرفة عبارة عن غرفة نوم بها فراش كبير فوقه سيدة موثقة اليدين والقدمين مكمّمة الفم جاحظة العينين لفرط الألم والغضب تحاول عبثاً الخلاص من قيودها، وبإشارة من الرئيس اندفع الرجال يفتشون المسكن في حين بقى كارتر وتومي وقد راحا يفكّان قيود المرأة المجهولة. أدار كارتر عينيه في الغرفة وكان بها عدد كبير من الحقائب مبعثرة هنا وهناك، ولكنه لم يرَ أيّ أثر للروسي أو لتوبنس.

ثم جاء أحد رجال الشرطة يقول إن الغرفتين الأخريين خاليتين، فاقترب تومي من النافذة وتحقق من أنها دون شرفة. وقال كارتر لمساعده: هل أنت واثق أنهما دخلا هذا المسكن؟

- كل الثقة، والدليل...

وأشار بذقنه إلى المرأة الطريحة فوق الفراش. فأخرج كارتر مُديته وقطع الوشاح الذي يكتم أنفاس المرأة المسكينة، وما كاد يفعل حتى راحت المرأة تقول بهياج كبير: سأرفع شكوى إلى المدير؛ فهذه فضيحة. كنت أبحث عن زجاجة العطر عندما جاء

الرجل من الخلف ووضع قطعة من القطن المبللة بسائل نفاذ الرائحة تحت أنفي ففقدت وعيي، وعندما عُدت إلى الصواب وجدت نفسي كما وجدتني أنت! ماذا حدث لجواهري؟ لا ريب أنه سرقها!

- إنني واثق أن جواهرك في أمان يا سيدتي.

ونظر حول الفراش وانحنى فالتقط قطعة من الزجاج وقال: هل كنت تقفين هنا؟

- نعم.

وناول كارتر الزجاج لتومي الذي شمّها ثم قال: أثيل كلوريد. إن له تأثيراً سريعاً في التخدير لا يلبث أن يزول. أظن أنك عدت إلى صوابك يا سيدة فان سنيدر قبل أن يغادر الرجل هذه الغرفة.

- ألم أقُل لك هذا؟ نعم، كدت أُجَنّ وأنا أراه يهرب دون أن أتمكّن من منعه.

فقال كارتر على الفور: يهرب؟ من أية ناحية؟

- من هنا.

وأشارت إلى الباب ذي المصراعين الذي يفصل بين مسكنها والمسكن المجاور، ثم استطردت قائلة: وكانت ترافقه فتاة، ولكن كان يبدو أنها متناومة كما لو كانت قد خضعت للتخدير مثلي.

فتحوّل كارتر إلى خبير الأقفال الذي قال: هذا الباب يؤدّي إلى المسكن المجاور، ولكنه مزوّد من الناحيتين بمزلاجين.

ففحص كارتر المزلاجين ثم اعتدل وقال يخاطب المرأة: سيدة سنيدر، هل تصرّين على أن الرجل خرج من هذا الباب؟

- طبعاً. لماذا؟

- لأنه مغلق بالمزلاج من هذه الناحية.

فارتسمت الدهشة على وجه المرأة وعاد كارتر يقول: ولا يستطيع أحد أن يخرج من هنا ما لم يكُن قد رفع المزلاج أولاً.

ثم التفت إلى أحد رجاله وقال: هل أنت واثق أنهما ليسا في هذا المسكن؟ هل يوجد باب آخر؟

- لا يا سيدي، وإنني أؤكد لك ذلك.

فذهب الرئيس إلى خزانة ثياب كبيرة ففتحها ثم نظر تحت الفراش وداخل المدفأة وخلف الستائر، وفتش الحقيبتين الكبيرتين متجاهلاً احتجاجات السيدة فان سنيدر الغاضبة. وفجأة صاح تومي وكان لا يزال يفحص الباب الفاصل قائلاً: تعالَ وانظر يا سيدي. لقد خرجا من هنا فعلاً.

وكان قد اكتشف أن المزلاج قد بُرد بعناية عند مصرع الباب بحيث لا يلحظ أحد ذلك. وقال تومي: إن الباب لا يُفتح لأنه مغلق من الناحية الأخرى.

وبعد دقيقة وبفضل المفتاح الاحتياطي دخل رجال الشرطة المسكن الآخر، وكان شاغراً ليس به أحد ولكنهم عندما فحصوا المزلاج لاحظوا أن نفس الطريقة قد استُخدمت. وقد كان الباب مقفلاً ولم يكُن يوجد أيّ أثر للروسي أو لتوبنس.

وصاح الرجل الذي يقوم بحراسة الممرّ قائلاً: ولكن لو أنهما خرجا من هنا لرأيتهما.

وزمجر تومي قائلاً: يا إلهي! ولكن لا يمكن أن يتبخرا.

وفكّر كارتر ثم قال فجأة: تكلّم في الهاتف واسأل من الذي يقيم في هذا المسكن.

وبعد قليل قيل له: كان يقيم به رجل فرنسيّ عاجز يُدعى السيد بول دي فاريز ومعه ممرّضته، وقد رحلا.

فأفلتت صيحة من رجل الشرطة المكلّف بحراسة الطابق الثالث واصفرّ وجهه حتى بدا كوجوه الموتى ثم قال: يا إلهي! المريض في مقعده، والممرّضة! لقد التقيت بهما في الممرّ، وكنت قد رأيتهما كثيراً ولم يخطر لي...

فصاح كارتر قائلاً: هل أنت واثق أنهما نفس الشخصين؟ هل رأيتهما جيّداً؟

- لا. لقد ألقيت إليهما نظرة عابرة؛ فقد كنت مهتماً بالشخصين الآخرين طبعاً.

وغنيّ عن البيان أن نقول إنهما كانا يعتمدان على ذلك، وكان تومي يفحص كل مكان في الغرفة، وجرّ من تحت الأريكة ربطة سوداء بها معطف وثوب وقبعة، وهي ثياب توبنس، ومعها لحية شقراء، ثم قال بحرارة: هذا واضح، فهي في قبضتهم. إن ذلك الروسي الداهية قد أفلت من أيدينا بفضل شركائه، ذلك الفرنسي وممرّضته اللذين كانا يقيمان هنا منذ يوم أو يومين حتى يكتسبا ثقة الجميع، ولا ريب أن الروسي أدرك وهو يتناول الغداء أنه وقع في الفخّ فوضع خطة سريعة عمل بمقتضاها. لقد كان يأمل طبعاً أن يكون المسكن ٣١٨ خالياً لأنه كان خالياً فعلاً عندما قام ببرد المزلاج، ووجود السيدة سنيدر يوقفه مع ذلك، وقد خدّرها كما خدّر توبنس ثم أعدّ تلك الأخيرة وألبسها ملابس الرجال وغيّر مظهره ثم خرج، ولا ريب أنه كان يحتفظ بثياب التنكّر لاستخدامها

وقت الحاجة، ولكنني لا أدري كيف أفلح في إقناع توبنس كي تتبعه.

فقال كارتر وهو يلتقط إبرة من فوق السجادة: أما أنا فأدري؛ لقد حقنها بمخدّر.

- يا للوغد! لقد أصبح بعيداً الآن.

- ليس هذا بالأمر المؤكد، لا تنسَ أن كل الأبواب مراقَبة.

- ولكن الذين يراقبونها لديهم أوصاف رجل له لحية شقراء وامرأة ترتدي ثياباً سوداء، وليست لديهم أوصاف رجل عاجز وممرّضته. لا ريب أنهما رحلا الآن.

اضطُرّ كارتر بعد أن تحرّى أن يقرّ بالواقع، فالفرنسي وممرّضته استقلا سيارة أجرة منذ خمس دقائق. وقال الرئيس: اسمع يا بيريسفورد، احتفظ بجأشك بالله عليك. إنك تعرف أنني لن أترك ذرّة من الغبار من غير أن أقلبها إلى أن تعثر على زوجتك. إنني عائد إلى مكتبي على الفور، وبعد خمس دقائق سيبدأ كل رجل من رجالي العمل، وسوف نعثر عليهما.

- هل تظن ذلك؟ إن ذلك الرجل داهية، فكّر في جرأته ونحن نحيط به جميعاً. إنني أعرف أنك ستبذل المستحيل، ولكن أرجو أن لا يكون الوقت قد فات. إنهم يحقدون علينا حتى الموت.

وخرج وراح يهيم في الشوارع وهو يترنّح كالمخمور. أحسّ بأنه مشلول، فأين يبحث وماذا يفعل؟ وقادته قدماه إلى حديقة غرين بارك فتهالك على مقعد، ولم يلحظ الشاب الذي جلس بجواره ولكنه فزع فزعاً شديداً عندما سمعه يقول: اسمع يا رئيسي، هل يزعجك أن أبدي نظرية؟

فقال تومي بصوت خافت: أهذا أنت يا ألبرت؟

- إنني أعرف كل شيء يا سيدي، فلا يجب أن تنهار.

- لا يجب أن أنهار؟ من السهل أن تقول ذلك.

- فكّر جيّداً يا سيدي. إن مكتب بلانت للأبحاث لا يقرّ بالهزيمة أبداً، وإذا غفرت لي ملاحظتي فإنني أقول لك إنني سمعت حديثكما أنت وسيدتي صباح اليوم بخصوص هيركيول بوارو. لماذا لا تحاول أن تستخدم ذكاءك ونرى ما يمكن أن نستخلصه؟

- من السهل أن نقول ذلك في الخيال يا بنيّ، ولكن الحقيقة شيء آخر.

- إذا أردت رأيي فإنني لا أظن أن أحداً يستطيع أن يُسكت سيدتي بسهولة، فأنت تعرفها جيداً يا سيدي وتعرف أنها لا تقرّ بالهزيمة أبداً.

- إنك ترفع روحي المعنوية يا ألبرت.

- ما قولك إذن في أن نعيد دراسة القضية من جديد.

- إنني أعلم جيداً أنني لم أفلح في عمل الشرطة السرّية حتى الآن، ولكن لنرَ إذا كنت سأفلح في ذلك من جديد أم لا. لنرتب الحقائق الآن، في الساعة الثانية وعشر دقائق دخل صاحبنا المصعد وبرفقته توبنس، وبعد خمس دقائق تكلّمنا مع الخادم وصعدنا إلى الطابق الثالث، وفي الساعة الثانية والدقيقة التاسعة عشرة دخلنا مسكن السيدة فان سنيدر، فهل يوجد شيء خاص يلفت النظر في كل هذا؟

وسكت فران عليهما الصمت، وفجأة ومضت عينا ألبرت

وصاح قائلاً: ألم تكُن توجد حقيبة كبيرة في غرفة السيدة؟

- أرى أنك تفهم شيئاً يا صديقي في نفسية أمريكية قادمة من باريس. لقد كان بالغرفة ما لا يقلّ عن اثنتَي عشرة حقيبة.

- بل أعني حقيبة كبيرة يمكن إخفاء جسم بداخلها. ولكنني لا أفكّر لحظة واحدة أن أحداً استطاع أن يتغلب على سيدتي.

- لا فائدة يا ألبرت. لقد فتشنا كل الحقائب الكبيرة، فلنرَ الآن النقاط التالية، وبالترتيب.

- لقد نسيت نقطة يا سيدي، أعني عندما مرّت سيدتي مرتدية ثياب الرجال، والرجل الذي يرتدي ثياب الممرّضة أمام الشرطيّ بالممرّ.

- لا ريب أن هذا قد حدث قبل أن تخرج من المصعد مباشرة، ولو أننا تقدّمنا لحظة واحدة لرأيناهما. لقد كان عملاً سريعاً جداً. إنني...

وأمسك فجأة فقال ألبرت: ما الخبر يا سيدي؟

- اصمت يا بنيّ، لديّ فكرة صغيرة، فكرة مدهشة وعظيمة. الحق أن هذا يحدث دائماً إن عاجلاً وإن آجلاً لهيركيول بوارو، ولكن إذا كان الأمر كذلك وإذا لم أخطئ... أسأل الله أن أصل في الوقت المناسب.

ونهض فجأة وخرج وهو يعدو وألبرت خلفه يقول: ماذا حدث يا سيدي؟ إنني لا أفهم.

فأجاب تومي من غير أن يبطئ: ليس من المفروض أن تفهم، فإن هيستنغز لا يفهم أبداً.

وكان يتكلّم وهو يركض، ثم دخل بهو الفندق من جديد فرأى إيفانس فأخذه على حدة وأسرّ له ببضع كلمات، ثم استقلّ الرجال الثلاثة المصعد إلى الطابق الثالث ومضوا إلى الغرفة رقم ٣١٨، فأخرج إيفانس مفتاحه، ودون استئذان اندفعوا إلى مسكن السيدة فان سنيدر، وكانت الأمريكية لا تزال مستلقية فوق الفراش ترتدي ثوباً أنيقاً. وأوقف تومي صيحة الدهشة التي كادت تفلت من بين شفتيها قائلاً: ألتمس المعذرة إذا كنت لم أطرق الباب، ولكنني أريد زوجتي. هل يزعجك أن تغادري هذا الفراش؟

فصاحت السيدة باستياء: إنك مجنون تماماً.

- لقد فتشنا تحت الفراش ولكننا لم نفتش الفراش نفسه، وأتذكر أنني استخدمته في الاختفاء ذات مرة وأنا طفل، فقد تمدّدت بعرضه تحت الوسادة، وإحدى هذه الحقائب الكبيرة معدة كي تُوضع الجثة فيها. ولكننا أتينا مبكّرين، وكنتِ قد فرغت من تخدير فريستك ومن إخفائها تحت الوسادة، وقد فرغ رجالك الذين كانوا يشغلون المسكن المجاور من تقييد يديك وتكميم فمك. يجب أن أعترف أنني صدّقت قصّتك، ومع ذلك وبعد إمعان التفكير وجدت أنه من المستحيل أن يخدّر رجل امرأة ويُلبسها ملابس الرجال ويقيّد امرأة أخرى ويغيّر مظهره وكل ذلك في خمس دقائق. وكان على الممرضة والشاب أن يقوما بدور الطعم كي نندفع في أثرهما ونحن نأسف للسيدة سنيدر المسكينة التي راحت ضحية المجرمين. هل لك أن تساعد السيدة على مغادرة الفراش يا إيفانس؟ هل معك سلاح؟

وبالرغم من احتجاج المرأة فقد أُوقفت على قدميها قسراً، ورفع تومي الملاءة والوسادة فإذا بتوبنس ممدّة بعرض الفراش

مطبقة العينين شاحبة الوجه. وخيّل إلى تومي أنها ماتت، ولكنه لم يلبث أن سمع قلبها ينبض بضعف فاطمأنّ. لقد كانت زوجته مخدّرة.

ثم التفت بيريسفورد إلى إيفانس وألبرت وقال: والآن إليكما بالمفاجأة الأخيرة.

وبحركة مفاجئة أمسك بالسيدة فان سنيدر من شعرها فإذا به يخرج في يده، ثم قال: تماماً كما ظننت، العميل رقم ١٦.

* * *

بعد ذلك بنصف ساعة فتحت توبنس عينيها ورأت تومي والطبيب منحنيين فوقها. وانسدل الستار بحياء على ما حدث في أثناء ربع الساعة التالية، ولكن الطبيب لم يلبث أن انسحب بعد ذلك وقد اطمأنّ تماماً على سلامة مريضته. وتمتم تومي يقول برفق: صديقي هيستنغز، ما أسعدني أن أراك لا تزال على قيد الحياة!

- هل ألقينا القبض على العميل رقم ١٦؟

- مرة أخرى حطّمته كالبيضة، أو بالأحرى ألقى الرئيس القبض عليه. بالمناسبة، لقد رفعت راتب ألبرت.

- ارو لي كل ما حدث.

فروى لها تومي الأحداث المثيرة التي مرّت بهما، ولكنه آثر أن يحذف منها بعض النقاط، فقالت توبنس بإعياء: أراك لم تتوخَّ كل الصدق. هل هذا ما حدث حقاً؟

- تقريباً.

- يا لك من كذاب! إنك لا تزال شاحب اللون. سنتخلّى عن

المكتب، أليس كذلك؟

- الحق أنني كنت قلقاً بعض الشيء عليك يا حبيبتي. سنتخلّى عن هذه المهنة طبعاً.

- طبعاً.

فتنهّد تومي بارتياح وقال: كنت أرجو أن تحكّمي عقلك بعد هذه الصدمة.

- ليس لهذا السبب، فأنت تعرف أن هذه الصدمات لا تخيفني أبداً.

فتمتم زوجها يقول: أعرف ذلك، ولكن الواقع...

- الواقع أن لديّ شيئاً أفضل يجب أن أعتني به، شيئاً أكثر إثارة، شيئاً لم أجرّبه قبل الآن.

- توبنس، إنني أمنعك منعاً باتاً.

- لكنك لا تستطيع أن تفعل شيئاً أمام قانون الطبيعة.

- عمَّ تتحدثين؟

- عن وليدنا. إن المرأة لم تعُد تهمس بهذا الأمر في أيامنا هذه، بل تصيح به من فوق الأسطح. وليدنا! آه يا تومي، أليس هذا أمراً رائعاً؟

* * *

(تمت)